جعفر الخليلي

هكذا عرفتهم

خواطر عن أناس أفذاذ عاشوا بعض الأحيان لغيرهم أكثر مما عاشوا لأنفسهم

الجزء السادس

مكتبة الجوادين العامة
مؤسسة السيد هبة الدين الحسيني
الترسل
النجف الأشرف
تحت الكاظمية - العراق

هكذا عرفتهم

خواطر عن أناس أفذاذ عاشوا بعض
الأحيان لغيرهم أكثر مما عاشوا لأنفسهم

الجزء السادس

تأليف
جعفر الخليلي

هدية
مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث
إلى مكتبة الجوادين العامة

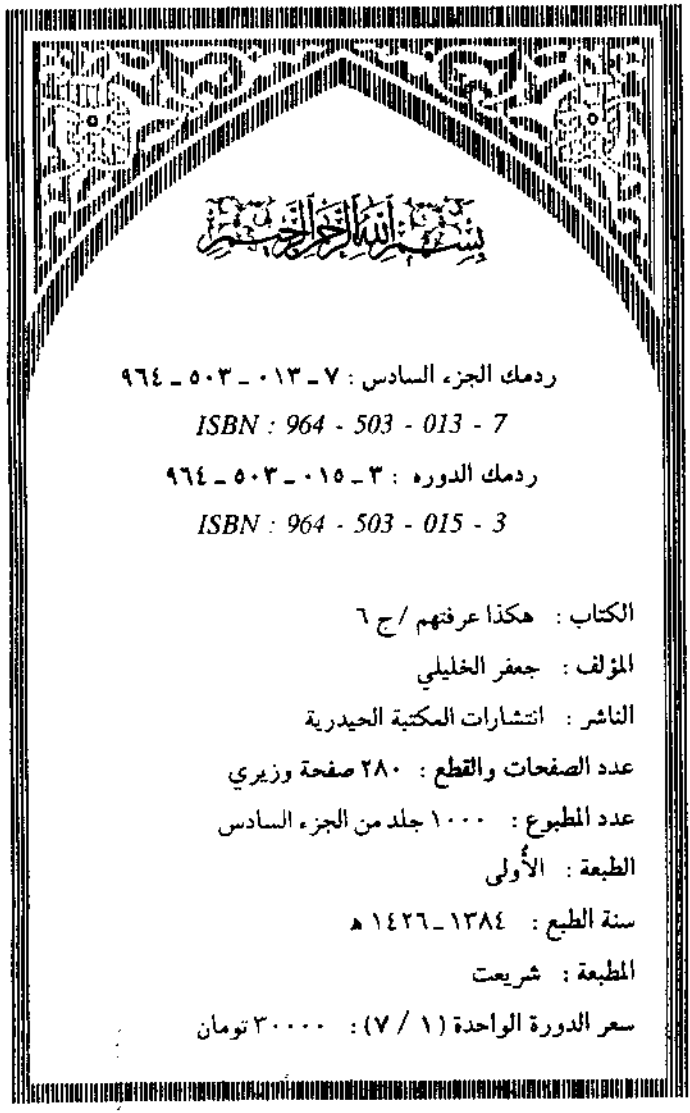

بسم الله الرحمن الرحيم

ردمك الجزء السادس : ٧ ـ ٠١٣ ـ ٥٠٣ ـ ٩٦٤

ISBN : 964 - 503 - 013 - 7

ردمك الدوره : ٣ ـ ٠١٥ ـ ٥٠٣ ـ ٩٦٤

ISBN : 964 - 503 - 015 - 3

الكتاب : هكذا عرفتهم / ج ٦

المؤلف : جعفر الخليلي

الناشر : انتشارات المكتبة الحيدرية

عدد الصفحات والقطع : ٢٨٠ صفحة وزيري

عدد المطبوع : ١٠٠٠ جلد من الجزء السادس

الطبعة : الأُولى

سنة الطبع : ١٣٨٤ ـ ١٤٢٦ هـ

المطبعة : شريعت

سعر الدورة الواحدة (١ / ٧) : ٣٠٠٠٠ تومان

الحاج عبد الحسين الازري

كيف عرفت
الحاج عبد الحسين الازري
١٨٨٠ - ١٩٥٤

- ١ -

كان اول عهدي بولوج اسم آل الازري اذني يوم كنت صبياً العب مع الصبيان (الطوبة) في الشارع وذلك حين يتسنى لي الذهاب الى دار لاعمامي هي الاخرى من دور الاعمام التي لا تبعد عن دارنا بكثير في النجف الأشرف ، و(الطوبة) هذه كرة من خرق مضغوطة ضغطاً قوياً وبحجم البرتقالة يحيك عليها الاطفال مثلثات متساوية الاضلاع بالصوف الملون الجميل ، أو الحرير ، ويتم اللعب بها تلقفًا بالأكف أو استهدافاً لاهداف معينة دون استعمال الارجل المألوف استعمالها اليوم ، وقد تنزلق (الطوبة) وتقفز بعيداً تبعاً للضربة من كف الضارب فتقف عند باب آل فلان او بالقرب من بابهم ، وكان بالقرب من بيت اعمامي أو قبالة بيتهم على الاصح مقبرة صغيرة لآل الازري ملاصقة لبيت السيد مهدي البغدادي الحسني والد السيد عبد الرزاق الحسني المؤرخ المعروف الشهير والواقعة في رأس شارع الشيخ محمد (حرز) من محلة العمارة في النجف الاشرف والمنتهي (بالثلمة) عند (درعيّة أبي كَلل) وقد اتخذ آل الأزري من هذه البقعة الصغيرة مقبرة لأمواتهم ، فاذا مات احد منهم ببغداد نقلوه الى النجف ودفنوه في هذه المقبرة ، ولما كانت عتبة الباب لهذه المقبرة واطئة بعض الشيء عن مستوى الشارع فكثيراً ما كانت (الطوبة) تقفز من بين الايدي وتستقر عند باب مقبرة آل الازري ، ولذلك لم يظل احد من اطفال (هذا) الشارع من يجهل اسم آل الازري ومحل مقبرتهم هذه .

أما من هم هؤلاء الأزريون الذين يسكنون بغداد ، ويأتون باموانهم ليدفنوهم هنا ؟ فلا أعرف عنهم يومذاك شيئاً ، ولكني حين شببت ، ودخلت المدرسة العلوية العصرية طالباً ، واغلقت المدرسة بسبب الحرب العظمى الاولى وانا لم أكمل الدراسة

فيها ، واقبلت على دراسة العلوم العربية بدأت أمرّ في دراسة البلاغة والفصاحة والمعاني والبيان على النصوص والامثلة ، ووجدتني أصغي للشعر اصغاء خاصاً ، واعطي كل احساسي وانتباهي لخطباء المنابر الحسينية الذين كانوا ينتقون خيار الشعر في مديح آل البيت ومراثيهم ومراثي الامام الحسين عليه السلام بصورة خاصة فيجيء الشعر منغماً عذباً وبالحان غاية في الرقة ولا يزال خطباء المنابر الحسينية على هذه الوتيرة يحسنون تلاوة الشعر ويضاعفون من قيمته بموسيقاه ، ولهم كل الفضل بكونهم من العوامل المهمة في التلذذ بالشعر ، اقول العوامل المهمة ، لان للمجالس النجفية التي بدأت أرتادها واستمع الى ما كان ينشد فيها من الشعر ، ولما كان يمرّ عليّ من الشواهد في درس البلاغة شأن غير منسي في تحبيب الشعر الى نفسي ، وسمعت على السنة خطباء المنابر المعجزات من آيات الشعر سواء من شعر القدماء امثال دعبل الخزاعي والكعبي أو المتأخرين أمثال السيد حيدر الحلي ، والسيد جعفر الحلي ، والشيخ كاظم الازري الذي أخذت قصيدته (الهائية) بلبي ، وزادني تخميسها من قبل الشيخ جابر الكاظمي اعجاباً بها فوق اعجابي .

والقصيدة (الهائية) هذه تزيد على الف بيت كما روى الرواة ومنهم السيد حسن الصدر وقد اكلتها الارضة فلم يسلم منها غير ٥٨٧ بيتا وهي التي خمّسها الشيخ جابر الكاظمي المتوفى في ١٣١٣ هجرية وسماها (بقرآن الشعر الاكبر) وكنت قد بحثت عنها عند اول انجذابي حتى عثرت عليها في مكتبة أبي ، وهي مطبوعة على الصخر اذا لم تخني الذاكرة وعلى ورق يميل الى الاصفرار الفاقع وبخط خشن جذاب واضح ، ومعها التخميس ، وفرحتي بها كانت مزدوجة لانني كنت لم ألتذ بشعر هذا الشاعر وحده وانما لاني كنت اعرف مقبرة آل الازري من الصغر ، واحسب ان الشيخ كاظم قد دفن فيها كما كنت اخال يومذاك .

وتعد هذه القصيدة (الهائية) على كثرة روائع الازري الرائعة الكبرى التي لم يمر على منوالها في مدح الرسول وآل البيت شاعر طوال القرون الاسلامية سبكا ، وبلاغة ، وابداعاً .

فمن بعض قوله في النبي (ﷺ) قوله :

لا تسل عن مكارم منه عمّت تلك كانت يداً على ما سواها

جوهر تعلم الفلذات من ... كل القضايا بانه كيمياها
حاز من جوهر التقدس ذاتاً ... تاهت الانبياء في معناها
لا تجل في صفات احمد فكراً ... فهي الصورة التي لن تراها
تلك نفس عزّت على الله قدراً ... فارتضاها لنفسه واصطفاها

وحين يجيء ذكر أمير المؤمنين الامام علي بن أبي طالب عليه السلام وآل البيت يقول الازري في بعض ما يقول من هذه الهائية :

ذاك رأس الموحدين وحامي ... بيضة الدين من اكفّ عداها
جمع الله فيه جامعة الرسل ... وآتاه فوق ما آتاها
وهم الاعين الصحيحات تهدي ... كل عين مكفوفة عيناها
علماء ، أئمة ، حكماء ... يهتدي النجم باتباع هداها
ورثوا من محمد سبق اولاها ... وحازوا ما لم تحز اخراها

وللشيخ كاظم الازري ديوان شعر مرتب على الحروف الهجائية ، وبجاميع مخطوطة في مكتبات الغرب لم يتح لاحد نقلها ومراجعتها وتتبعها على ما علمت ، وهي من خيار الشعر في مختلف النواحي ، وقد اشار الشيخ محمد رضا المظفر الى (الازري) فقال : « فشاعرنا فضلاً عن كونه من فحول الشعراء فان له فضل انشاء الحركة الادبية العالية في العراق اذ لم يعرف احد قبل تاريخه لا سيما في بغداد من بلغ شاوه أو جرى في مضماره ، وقد صدق فيما قال عن نفسه اذ قال :

يا أبا أحمد رويداً رويداً ... انا في الشعر صاحب المعجزات

وهو العارف بمكانة شعره اذ يقول :

أبى الشعر إلا أن يحل بساحتي ... فيأكل من زادي ويشرب من شربي
اذا أنا لم أعبا به عمر ساعة ... توهم هجراني فلاذ الى جنبي

وحملني اعجابي على تتبع سيرة الشيخ كاظم الازري ودراسته من شعره ومما كتب عنه ، ولكن هذا الذي كتب عنه لم يزد على جزء يسير من حكايات منقولة بالتواتر سجلها البعض واكتنزها البعض في صدره ، فهو من اسرة بغدادية ولد ببغداد سنة ١١٤٣ هـ وتوفي سنة ١٢١١ وفي تحقيق للدكتور حسين علي محفوظ في الجزء الثالث من قسم الكاظمين من موسوعة العتبات المقدسة انه توفي سنة ١٢١٢ هـ وسجلّ سنة ولادته

خير الدين الزركلي في الاعلام بالميلادية بسنة ١٧٣٠ م وسنة مماته بسنة ١٧٩٦ .

وقد درس علومه في النجف الاشرف وهكذا فعل اخواه الشيخ محمد رضا الازري وقد كان يفضل اخاه الشيخ كاظم من حيث التوغل في العلم والفقه لا الشعر واللغة والفلسفة ، وكلاهما الشيخ كاظم والشيخ محمد رضا لم يعقبا من الذكور عقباً ، وكان لهما اخ آخر هو الشيخ محمد يوسف الكاظمي ، وينحدر هؤلاء الاخوة من سلالة بغدادية عريقة كانت تتجر بالأزر وتستصدرها وتستوردها .

وأهم هذه المصادر التي مرّت على شيء من سيرة حياة الشيخ كاظم الازري مروراً يلقي بعض الضوء من المخطوط والمطبوع كانت الخواطر التي كتبها السيد حسن الصدر، ثم التي سجلها اغا بزرك في(الذريعة)ثم التي مرّ عليها السيد محسن الأمين اخيرا في (اعيان الشيعة) و ما كتبه الشيخ علي آل كاشف الغطاء والد الامام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء في (الحصون المنيعة) على ما علمت ، وما ورد في المجاميع التي تركها الشيخ محمد علي اليعقوبي في خزانته التي عرفت (بصندوق اليعقوبي) وما جاء ذكره في (الكنى والالقاب) للشيخ عباس القمي ، وما اورده خير الدين الزركلي في (الاعلام) وغير ذلك مما نسيته .

* * *

وادركت انا في النجف بعض من عرفت عن كثب أو بعض من عرفت بالاسم من المراجع لضبط التواتر في النقل عن تراجم من لم تذكر تراجمهم او من جاءت تراجمهم ناقصة في الكتب ، أو المناقشات الادبية التي تناقلها البعض على غير وجوهها ، او تحقيق نسب ، أو حادثة تاريخية تخص بعض الاجيال المتصلة باجيالهم الى غير ذلك مما لم يكتب بالمرة أو مما كتب ناقصاً ، أو ملتبساً ، أو مما يروى على الالسن بصورة متناقضة .

لقد أدركت من هؤلاء المراجع الذين كانوا يكتنزون الشيء الكثير من الاخبار الادبية والتاريخية فيرجع الناس اليهم فيما يختلفون فيه او فيما يريدون التثبت منه فكان منهم الشيخ محمد حرز ، وقد طبع له بعد مماته عدة أجزاء باسم (معارف الرجال) وعرفت الشيخ علي آل كاشف الغطاء وبقي كتابه (الحصون المنيعة) المؤلف من عدة أجزاء غير مطبوع حتى الان ، وعرفت الشيخ محمد السماوي وقد طبعت له في حياته مجموعة اراجيز عن العتبات جاء فيها ذكر اسماء المراجع وسني وفياتهم وتقاليد الزيارات

والمراسيم ، وعرفت الشيخ محمد لايذ المرجع الحجة في الانساب ولكني لم أره وعرفت السيد حسين القزويني وكان ديوانه من اكبر دواوين النجف الذي يجمع بين مشاهير اهل العلم والادب ، ولم تدركه سني ، وعرفت الشيخ عبد الكريم الجزائري ، كما عرفت ابي الشيخ أسد الخليلي ، وأبي وان مال لدراسة الطب أخيراً على نهج البعض من اسرته فقد ظلت صلته بالعلوم العربية والفقه والتاريخ الاسلامي واسفار الملاصدرا وعلم المنطق خاصة قوية جداً فضلاً عما كان يحفظ من الشوارد مما فات تدوينه ، وأنه ليؤسفني ان اضطر ولعلي لاول مرة ان اذكر أبي بالثناء ببعض ما اعرف عنه بسبب الشيخ كاظم الازري فقد عرفت عن طريق ابي لاول مرة وخلاف ما هو مشهور عن الناس بأن الشيخ كاظم ليس له اية علاقة بهذه الاسرة المعروفة بالازرية والتي ازعم اني اعرفها منذ صغري وان هذا الشاعر ينحدر من بيت بغدادي عريق ومن سلالة واثلية ، فهو عربي واثلي ، اما الازريون الذين كنت ألعب عند مقبرتهم فهم الاخرون من سلالة بغدادية عربية عريقة ولكنهم تميميون ومن بني تميم ، وان من الاشتباه ان يظن الناس ان الشيخ كاظم الازري هو جد هؤلاء الازريين ، كما ان من الاشتباه ان تظن أنت أو يظنون هم يقول أبي بأن الشيخ كاظم مدفون في النجف وفي هذه المقبرة ، وانما هو مدفون في الكاظمين .

هذا اول ما سمعته من والدي ، وقد كان هذا يخالف الرأي العام بل يخالف حتى بعض المصادر من الثقاة ، ولكن حين تم لي التتبع فيما بعد تيقنت ان الصحيح هو ان للشيخ كاظم الازري اخوين كما مرّ، هما : الشيخ محمد رضا ، والشيخ محمد يوسف وقد تزوج أحد اجداد التميميين الذين اشتهروا بالازرية ابنة للشيخ محمد رضا شقيق الشيخ كاظم فكان هذا هو الذي سبب هذا الالتباس والخلط بين الواثليين والتميميين .

ورحت استقصي اخبار الشيخ كاظم الازري من افواه الثقاة ومن الذين استقوها من رواتها العارفين بها والمحققين لها فعلمت ان الشيخ كاظم كان قد اتقن العلوم العربية ، وتبحر باللغة ، واحاط بفنون الشعر ولم يغادر مدينة النجف الاشرف التي كان قد أمّها هو وأخوه الشيخ محمد رضا الذي أصبح من العلماء المعروفين الا وقد صار الشيخ كاظم من مشاهير اعلام الادب وفحول الشعراء ، وكان بعكس اخويه اللذين يعتمران العمامة ، اذ كان يعتمر العقال وهو عقال ملويّ من الامام ويلبس قباء من النسيج المصري الذي كان مألوفاً لبسه عند وجهاء العوام ويرتدي عباءة مقصبة

الاكتاف ، وحذاء احمر اللون هو الاخر كان من ملبوس العوام والمسمى باليمني كان معروفاً ببغداد الى ما يقرب من ربع الاول من هذا القرن ، وكل البسة الشيخ كاظم تبعده عن اهل العلم والادب ، وحتى اهل السوق ، فهو الى وجهاء العوام اقرب منه الى أية طبقة اخرى لا سيما وقد كان حليق اللحية ، وله شارب كث مبروم الطرفين وهو بعد ذلك صبيح الوجه مهيب الطلعة ، جريء ، غير عابىء بالتقاليد ، هازىء بالمتحذلقين والمتكبرين ، وأكثر ما يرتاد في بغداد كانت مجالس الولاة والقضاة ، وله عندهم مكانة جد محترمة طالما استشفعوا بها عند ذوي السلطة وكانت له بآل الشاوي صداقة متينة وعلى الاخص بالحاج سليمان الشاوي كما كانت له بالنقباء صلات مودة ومحبة ، وطالما تحرش به اهل الادب ليلتذوا بسرعة جوابه وان نالهم من ذلك بعض اللذعات ، اذ كان غير هياب يرسل النكتة محبوكة لاذعة حتى في كبار الشخصيات ، وكان له صديق راوي من اهل(رواه) وكان من اهل الفضل والشعر والادب وكثيراً ما كان يتلقيه في بعض المجالس الادبية فاذا التقيا أنس الحاضرون بما يجري على لسانيهما من ادب وفكاهة ظل البعض منها مروياً على الالسن حتى اليوم ، فقد قيل ان الراوي قال للازري في معرض مناقشة وهو يداعبه ذات يوم ، لقد قال الراوي للازري : أما أنت فقد قيل لي عنك انك مجنون . فأجابه الأزري : يا سبحان الله ، وقد بلغني عنك انك مأفون فان صدق الراوي فانما هو فيّ انا وفيك انت ، وان كذب(الراوي) فلعنة الله على (الراوي) .

والمأفون كما يعلم الجميع هو المسلوب العقل والضعيف الرأي ، ولعل ما ورد في شعره عن (الراوي) انما يخص صديقه هذا فقد جاء عنه :

ولم الـغ حـرف الـراء الا لحكمـة اذا فهـت بالراوي تلفظت بالعاوي
وقالوا روى عنك الاحاديث كـاذب لقد صدقوا لكنما كـذب (الراوي)

وهو يحب المجون لحد محدود فلا يبالي ان يتناسى شأنه ووقاره ، اذا اقتضاه الحال ، او لعله هو الذي ينشد مثل هذا الحال ، فالمعروف عنه انه كثيراً ما يزور (العتبات) في المواسم ، والعادة الجارية ان يتحلق أهل البحث والعلم والدرس في الصحن الشريف من كل عتبة ويبدأ حينذاك الدرس والمناقشة والمباحثة فيندس الازري بين تلك الحلقات أو يجلس الى جوارهم يتسمع وليس فيهم من يعرفه لان مجلس عارفيه يكون في الدواوين والبيوت الرفيعة من هذه المدن وفي رحاب المجتهدين واساطين العلم

واهل الشعر، وهو يتسمع الى ما يدور بين الاستاذ والمتحلقين حوله من تلاميذه وإذ تبدُّله تعليقة ذات قيمة في القواعد العربية ، او الشعر ، والتفسير ، او قضية منطقية ، او مشكلة فقهية تبعا لما يجري البحث فيه يوجه الازري هذا التعليق الى الاستاذ الشيخ ويطلب منه الاجابة عليه ، وتفغر الافواه تعجباً من أن يتوجه رجل من العوام كما يدل عليه لباسه فيسأل مثل هذا السؤال بلغة فصيحة خاصة بلغة اهل العلم، وكثيراً ما يعجز الاستاذ عن الاجابة وهنا فقط يمجن الأزري اذ يضع جانباً من كف يده على طرف من فمه ويعفط عفطة ترن له ساحة الصحن يجمع أطرافها وتتوجه جميع الانظار الى مصدر العفطة ، ويقوم الازري بعد أن ترك الاستاذ غارقاً في خجله حتى شحمة اذنيه !!

والعفاط ويسميه البغداديون (بالزيك) بالكاف الفارسية كان مألوفاً وببغداد بصورة خاصة الى ما قبل اربعين سنة واكثر ، ولم يكن كل احد يحسن العفاط ويتقن اداءه ، ويظهر انه كان يجري التمرين عليه منذ الصغر وقد قيل ان جعفر باشا العسكري لم يكن احد يستطيع ان يباريه في ضرب (الزيك) ولا تستعمل هذه العفطة الرنانة الممتدة الا استهزاء ، وتهكماً ، وتحقيراً ، وكثيراً ما تأتي بمثابة تكذيب لراو ، او مبالغ في حكاية .

وطويلة هي حكاية الشيخ كاظم الازري ، ونبوغه الشعري وعلمه ، وسيرة حياته ، لم ينبر لها حتى الان من يوفيها حقها من الدراسة الكاملة ، وما هذا الاستطراق العابر الا من قبيل (الشيء بالشيء يذكر) استدعاني حديثي عن الحاج عبد الحسين الازري المرور عليه خطفاً .

- ٢ -

والذي شدني من الشعر والادب والاريحية بالشيخ كاظم الازري هو الذي شدني بالحاج عبد الحسين الازري فقد كان الحاج عبد الحسين الازري من الشعراء الافذاذ الذي تنطق دواوين شعرهم بنبوغهم وتغنيهم عن كل معرف يعرفهم للاخرين ففي ديوان الازري الذي جمعه هو بنفسه في حياته وطبع بعد مماته سنة ١٩٧٩ اي بعد وفاته بنحو خمس عشرة سنة يلمس فيه القارىء لوحة فنية رائعة لجيل كامل تصور الظالم والمظلوم ،والحاكم والمحكوم ، والقوي والضعيف ، ومدى ما يفعل المرض ، والفقر ، والجهل ، والضعف في النفوس ، والآهات والزفرات المتصاعدة من القلوب المشتعلة ،

والكبود المحترقة ، فهي لوحة تحكي تاريخ جيل كامل بكل نزعاته ، وآماله ، ورغباته ، وافكاره ، وحياته معطرة بالشعر الذي بلغ الغاية من حيث الروعة والبلاغة والذي يذكرك بالشيخ كاظم الازري ويزيدك يقينا بان (هذا الشبل من ذاك الاسد) حتى ولو شهد الحاج عبد الحسين نفسه كما شهد لي انا مؤيداً قول أبي بان الله لم يكتب له بان يكون من احفاد الشيخ كاظم الازري لكي تجتمع الشجرتان العربيتان العريقتان الازريتان باصل واحد، وان كانتا قحطانيتين في الجذور .

ولد الحاج عبد الحسين الازري ببغداد في سنة ١٩٨٠ ،والغريب ان عدداً من مشاهير النوابغ - ونوابغ الادب في العراق وفي الاقطار العربية الاخرى - قد ولدوا في مثل هذه السنة او ما قبل وما بعدها بقليل فتألف منهم جيل خلّف لنا من الاثار التي عملت في نفوسنا من الوعي والاثارة ، والتنبيه بعد ركود طال أمده فيما قبل هذه الحقبة فكان لها الفضل الكبير في التعجيل بايقاظ الامة العربية من سباتها وركودها .

والحاج عبد الحسين الازري هو ابن الحاج يوسف الازري ابن الحاج محمد الازري بن الحاج محمود الحضيري التميمي ، والحضيري نسبة لهذه الاسرة المنسوبة بقبيلة بني تميم التي تعتبر من اقدم قبائل العرب في الجزيرة العربية ، أما النسبة الازرية فقد جاءتهم من زواج احد الحضريين التميميين بابنة الشيخ محمد رضا الازري شقيق الشيخ كاظم الازري فانتقلت الى الحضيريين التميميين الزوجة ومعها نسبتها الازرية التي ما لبثت ان طغت على النسبة الحضيرية التميمية ، والا فليس لآل الازري التميميين اية صلة بآل الازري الوائليين الذين لا احسب أن أحداً قد بقي منهم واذا كان قد بقي منهم احد فلم اوفق للتعرف به .

ووقع الكثير في هذا الاشتباه وساعد عليه الشيوع بين الناس وحتى اليوم لم يسلم بعض الثقاة من المؤرخين من الوقوع في الخطأ حين يعتبرون الشيخ كاظم الازري الوائلي جداً لآل الازري التميميين .

وحين شب الحاج عبد الحسين الازري كان من السهل ان ينال قسطاً كبيراً من الادب والثقافة في ذلك العصر على مشاهير المشايخ المعروفين فقد كانت يومذاك ببغداد مدارس للعلوم العربية والفقه برز فيها من ائمة أهل العلم الالوسيون ، وآل النائب ، وكانت هناك دواوين تقوم مقام الاندية لما كان يرتادها الشعراء والادباء وما يجري فيها كل ليلة من الاحاديث التي لا يمكن أن لا تطعم بشيء من التاريخ الاسلامي والشواهد

من النصوص الشعرية والمأثور من الاقوال ، وفي مقدمة تلك الدواوين والاندية كان بيت الحاج مصطفى كبة واخيه الحاج محمد حسن كبة المجتهد المعروف وهو والد الشيخ محمد مهدي كبة وقد رأيت بنفسي طائفة من اجازات الاجتهاد التي يحملها من ائمة المراجع والتي لم أر نظيرها في الكثرة من حيث تزكية اجتهاده من ائمة علماء ذلك العصر .

وكان يرتاد ديوان آل كبة الى جانب اهل الفضل والادب البغداديين مشاهير من شعراء النجف والحلة الذين يمرون ببغداد في مواسم زيارة الكاظمين وسامراء ويشاركون في حلبة الشعر بل وقد يجري ذكر آل كبة في كثير من القصائد والاشعار من قبيل قول السيد محمد سعيد الحبوبي في احدى موشحاته حين يخاطب آل كبة فيقول :

انتم القوم الذين اتسعا ... في معاليهم مجال الشعرا
حاولوا حصراً لها فامتنعا ... وابت شهب السما ان تحصرا
شرفاً فضلاً، كمالاً ، شرفاً ... كرماً ، عزاً ، علاءً ، مفخرا

سلم الفضل لكم لو انصفا
مستبداً بلجاج بيّن
ذاك لو اصغى لشعري انكشفا
وتلوى كتلوي المحجن

وعلى ان اسرة (آل كبّة) مشهورة بالتجارة فقد كانت توجب على معظم ابنائها تثقيفهم تثقيفاً ادبياً ، وتعلمهم الشعر واصوله وتنزلهم للسوق مهذبين، واذا علمنا بن آل كبة هم اخوال الحاج عبد الحسين الازري زال عنا التعجب في سرعة نضجه ، ونمو قابلياته الفطرية .

وكانت مدينة الكاظمين القريبة من بغداد من المراكز الدينية المهمة لدراسة الفقه والاصول ، والعلوم العربية ، وكانت تكثر في بيوتها المناقشات الادبية ، وانشاء الشعر ، والمساجلات ، كبيت آل الصدر ، وبيت الخالصي ، وبيت آل الشيخ ياسين ، وبيت الحيدري ، وآل الجلبي ، وغيرهم لذلك كان كل هذا من العوامل التي دفعت بالحاج عبد الحسين الازري الى الانكباب على الاحاطة بالعلوم العربية ومتابعة النوابغ من الشعراء المتقدمين ، والمتأخرين وهذه هي الوسيلة التي تأخذ بايدي المتعلمين الذين يحضرون الدروس عند المشايخ ويحضرون مجالسهم .

وبهذه الوسيلة نبغ انداد الازري من الادباء والشعراء الذين عاصرهم وان اختلفت اعمارهم بعض الاختلاف امثال الشيخ رضا الطالباني ، وجميل صدقي الزهاوي ، ومحمد رضا الشبيبي ، والشيخ علي الشرقي ، ومعروف الرصافي ، بل على هذه الطريقة نشأ جميع المتقدمين من رجال العلم والشعر ، والادب ، وهؤلاء الانداد الذين عرفتهم انا عن كثب ، او عرفتهم بالقراءة لم يكونوا كلهم انداداً في النزعة والاخلاق ، والسلوك، وعفة اللسان ، وعفة اليد ، وقد دلت عليهم حكاياتهم وقصصهم ثم اشعارهم ، وقد يخلو منهم مما يشين من هذه الصفات ولكنه لا يخلو من الكيد والحسد او نصب الشراك لمن يكره ، او العجرفة ، والكبرياء ، واشهد ان الازري قد خلا ذاتا وفعلا من هذه العيوب وان بدا في شعره بعض الوخزات لمن يعتقد فيهم الخيانة وممالأة القوي الغاصب ، والمتعدي على حقوق الناس ، ولا يبعد ان يكون هذا الخلق وليد البيئة التي المحنا اليها والتي خلقت منه شاعراً كبير النفس، لطيف المعشر، كثير التواضع، جريئاً لا تأخذه في كلمة الحق لومة لائم ، وهو من القلائل الذين يصلح ان يكون شعرهم دليلاً على سريرتهم فهو صادق كل الصدق حين يقول :

انني والرياء ضدان حتما وافتراق الضدين ما منه بدّ
انا كالورق حينما تتوارى ان بدا صائد، وان غاب تشدو
انا حرٌ اذا تجردت منه وتجنبته والا فعبد

ويصدق حين يرى ان اليد الواحدة لا تصفق وقد رآها بعينه يوم سجن ونفي الى الانضول اذ يقول :

ما الذي يصنع المجرد مثلي وطريق الفضيلة اليوم وعر

والذي تتبع سيرة الحاج عبد الحسين الازري واقتفى اثره في جميع احواله ، وسلوكه مع الناس ، يرى في ابياته الاتية مرآة صادقة تعكس حقيقته التي كان يتتبعها ، المتتبع في جميع اعماله اذ يقول :

عشت نقيّ الجيب لم اقترف شراً على الناس ولا ضرّا
ولم أزل من عفتي رافعاً رأسي ما بين الورى حرّا
فلو يدي اليمنى جنت مرة قطعتها في يدي اليسرى !!

وهذا الرجل الذي لا يعرف للوجود قيمة الا في شرف النفس وكرامتها والذي يقول :

انـا مـا دام سـليـماً شـرفي كـل شيء دونـه عـنـدي أمـم

هذا الرجل الذي يبلغ حسه من الرفاهة وخلقه من السمو مثل هذا المبلغ وقد ولد في وقت كان العراق يرزح فيه تحت الحكم العثماني الغاشم وكان اغلب ولاته يشترون حكم الولاية على العراق من (اسطنبول) بالمال ، ويبتز الوالي الثمن واكثر من الثمن بالرشوة الخفية والعلنية من العراقيين ، وكان الناس يشكون من المظالم ، ولا مجيب لشكواهم ، وكان رزق العاملين والكادحين شحيحاً ، والأمن في جيمع انحاء العراق مفقوداً ، والقبائل العراقية في عراك وحروب دائمة والسلب في الطرق من الأمور المألوفة فكان لا بد لشاعر جبل على تلك المجموعة من الصفات بالاضافة الى ما عرف به من الجرأة أن يتأثر بما يسمع ، وما يرى ، وكان يعمل في التجارة كما يعمل افراد اسرته في سوق بغداد ، وفجأة رأى أن الشعر وحده لن يغير شيئاً من سياسة الحكومة العثمانية وسيظل العراق البقرة الحلوب يريدون منها ان تدر عليهم كل ما في ضرعها أكلت أم لم تأكل وهناك نزل الى ميدان الصحافة ، وكان من اوائل من صرخ باسم الحق ، والعدل ، والشعب ، واللامركزية ، وكان عربي النزعة لا من حيث الأصل والنسب والنشأة فحسب وانما من حيث الفكرة التي تدعو الى وجوب اخذ العرب بنصيبهم من الحرية ، والحياة الاقتصادية ، واقبل يجرب العمل عن طريق الصحافة فاصدر (المصباح) ثم اصدر (مصباح الشرق ،) ثم(المصباح الاغر) ثم (الروضة) ومن كثرة تعلقه بالمصابيح والاضواء نفهم انه كم كان يشعر بما يكتنف العراق من الضباب والظلام بحيث اصبح في اشد الحاجة الى النور ولو ببصيص منه اذا قدرت هذه الصحف ان تأتي له بمثل هذا البصيص ، وهكذا كلما ضاقت الحكومة العثمانية ذرعاً بصحيفته وجرأته في محاسبتها اغلقت له الصحيفة فيلتجيء الى مختلف الطرق لاصدار صحيفة اخرى واخرى ، حتى صار له قراء ، ومؤيدون ، ومفكرون واصبح وجوده ودعوته الى اللامركزية خطراً لا يستهان به في نظر الاتحاديين فقبضوا عليه ونفوه الى (القيصرية) في الانضول ، ومن هناك كانت تجيش في نفسه خواطر بلاده فينفثها شعراً في قصائد رائعة من قبيل :

اذا ذكـرتـك يـا بـغـداد أرقـني ذكـري حبيباً بـروحي كنت افـديه
واوشـك الدمـع لولا الصبر يحبسـه خـوف الشمـاتـة يجـري من مـآقيـه

ومثل هذا الكثير الذي لا أضبط تاريخ نظمه لكي أوكد به شعره العميق نحو بلاده ، وكم كنت اتمنى ان اتتبع صحفه حين صار بامكاني ان اقرأ الصحف وأتتبع ، ولكني لم أقرأ له ولا صحيفة واحدة ، وانما ذكرت اسماء صحفه هذه بناء على السماع والتواتر .

ومكث في المنفى سنتين وقد افاد ممن جاورهم في القيصرية تعلم اللغة الفرنسية ، واحسب انه كان يعرف التركية من قبل ، وحين انتهت الحرب العظمى الاولى عاد الى بلاده ، وكان الانكليز قد دخلوا العراق ، وقامت الثورة العراقية الكبرى في وجوههم وجاءت بالحكومة العربية التي كان يتمناها الازري لتقضي على ذلك الفساد والاضطهاد الذي خلّفه العثمانيون ، والاستغلال الذي أراده الاستعمار الانكليزي للعراق ، فاذا بامانيه تخيب ، وتشتد اوجاعه حين يرى الماشين وراء الانكليز اكثر من المتخلفين فيقول في بعض ما يقول :

اذا اوجعتك سياط الغريب ... فعون القريب له أوجع

اقول لقد كان الازري يتوقع حين يؤول الأمر الى الحكومة الوطنية ان تزول كل آثار الفساد ولكن لم يقع شيء من هذا ولذلك خاطب الدكتور عبد الرحمن الشهبندر سنة ١٩٢٦ حين زار العراق قائلا :

والداء حيث نزلت داء واحد ... اذ كنت ادرى الناس في أسبابه
حب المظاهر في قلوب رجاله ... بيع الضمائر فيه رأس خرابه
حب المظاهر في قلوب رجاله ... وتلون الحرباء في احزابه
هذي نتائج ما جنى من سعيه ... يا خيبة الآمال في اتعابه

وفي كل فترة من الفترات ، وفي كل حادث من الحوادث له شاهد من الشعر الخالد الذي يستظهره العارفون بقدر الشعر من اخلص الوطنيين ويترنمون به ويغنونه .

ويبدع في وصف اولئك الذين وصلوا الى الحكم في العراق دون كفاية ولياقة وجدارة ، ويخص عهد بكر صدقي بذلك سنة ١٩٣٦ اذ يقول :

أضحكتنا ورب ضحك بكاء ... فترة من زماننا رعناء
فترة ضاعت المقاييس بين ... الناس فيها وسادت الاهواء
لمة من بني الشوارع عاشت ... حيث عاش الاعيار واللقطاء
حشرات طلعن من لقطات الار ... ض لما استتبت الظلماء

وغير ذلك الكثير الذي يجده القارىء واضحاً في ديوانه العامر الخالد الذي استخلصت الشيء اليسير هنا مما كتبته انا في مقدمة ديوانه عن شاعريته ومكانته الادبية .

- ٣ -

كل هذا واكثر منه وانا لم اتعرف بالحاج عبد الحسين الازري شخصياً باستثناء نظرات كنت قد اختلستها مرات قليلة في اوائل العشرينات يوم كان مديراً لشركة تراموای بغداد ـ الكاظمين ، وقد وقعت عيني عليه وانا انزل من العربة الآيبة من بغداد ، وهو واقف في بناية محطة الكاظمين الواقعة عند رأس السوق المنتهي بالصحن الشريف ، ثم لم تغب عن عيني صورة له وهو بهذه المحطة متكىء على الاريكة وعباءته وراء ظهره وحزام ظهره محلول وهو معتمر (بالكشيدة) والكشيدة عبارة عن قماش يوُتى به من الشام مطرز بالخيوط الحريرية الصفراء يلفونه عادة في سوريا والعراق حول طربوش احمر يسمونه (بالفينة) ويغلب على ظني انه منسوب (لفينه) عاصمة النمسة ، والكشيدة هذه كلمة فارسية تعني اللفّة وهي ما يعتّم بها التجار في الغالب وليس لها باهل العلم والشعر والادب اية صلة مع انها اكثر وجاهة من العقال الذي كان يعتمره الشيخ كاظم الازري .

كذلك نشر الازري بعض شعره في (الهاتف) يوم كنت اصدر الهاتف في النجف الاشرف ومن ذلك كانت قصيدة يحتاج نشرها الى شيء من الجرأة في محيط محافظ كالنجف واحسب ان الذي حثه على نشره في الهاتف وتحدي المحافظين من السكان المتحذلقين في افكارهم كان الاستاذ عبود الشالجي المحامي ، فقد كان الحاج عبد الحسين حرّ التفكير ،والنزعة ،اكثر ما يدين بالانسانية يربطه بها المنطق والعقل والايمان ، وكل ذلك يلمسه القارىء مختصراً في المقدمة التي وضعتها انا لديوانه ، ويلمسها مفصلا في شعره الذي حكى تاريخ جيل كامل من الظلم والقسوة والعذاب ، والآمال الضائعة في شعر كان فيه الازري من السباقين بين فحول شعراء جيله ، بلاغة ، ورقة ، وعذوبة ، وانسجاماً ، اذ قل ان يكون ديوان شاعر بليغ سجلاً تاريخياً لجيل كامل كديوان الازري الجديد ندّ الازري القديم .

والى هنا وهو يخص جريدتي (الهاتف) بشعره الذي قد يتعذر نشره على من

يعيش في محيط كالنجف وينحدر من أسره يؤاخذها الناس حتى على زلة ابنائها اذا ما خرجوا على التقاليد ، وهو - أي الازري - بعد لا يعرفني شخصياً ، وانا لا اعرفه بعد عن كثب ، اقول وحتى هنا ونحن بعد غير متقابلين وغير ملتقين .

وتمر سنين طويلة ، وتجيء سنة ١٩٤٨ التي يتم فيها انتقالي باهلي وبجريدتي ، ومطبعتي من النجف الاشرف الى بغداد ، وتتجدد صلاتي بالاصدقاء الذين اعرفهم من قبل ويتم لي التعرف عن كثب بالذين كنت اعرفهم عن بعد مجرد معرفة لا غير ، وبالذين عرفتهم لاول مرة ، وتصبح (دار الهاتف) ملتقى اهل الادب ، ومنتداهم صبحاً ، وعصراً ، ومساء .

وتم لي الاتصال هنا بالحاج عبد الحسين الازري وقد فكرت كثيراً لكي اعرف اين تم أول ملتقاي به ، وكيف جرى هذا الاتصال لاول مرة فلم تسعفني الذاكرة بشيء ، ويغلب على ظني ان ذلك قد جرى في بيت الشيخ علي الشرقي ، فقد كان بيت الشيخ علي الشرقي بيتاً مفتوحاً على مصراعيه لاهل الادب ، والوجهاء ، وحتى رؤساء القبائل وهو يكاد يشبه بيت آل كبّة في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين .

وبيت الشيخ علي الشرقي كان يومذاك في احدى عرصات وقف الصالحية وكان مجلس للناس عصر كل يوم فيؤمه الصديق القريب ، والمعجب بادب الشرقي وشعره ويقصده الادباء المسحورون باسلوب كلامه ، اذ كان الشرقي الى جانب كونه شاعراً من الطراز الاول فقد كان محدثا بارعاً يحسن سوق الحديث وتطعيمه بالنكتة من ادبي القريض الفصيح ، والعامي الشائع ، ثم انتقل (الشرقي) الى بيته الجديد في طريق الكرادة الشرقية (الخارج) وخصص يوماً معيناً لقبول الزيارات ابتداء من عصر كل يوم خميس الى ساعة متأخرة من الليل ، وكنت قد ذكرت من كان يلازم مجلسه في الغالب من الاصدقاء في عرضي لحياة الشيخ علي الشرقي في الجزء الثاني من (هكذا عرفتهم) وهم الذين كنت ألتقيهم في الغالب في مجلس الشيخ علي الشرقي في اليوم المعين للاستقبال بل وحتى في الايام الاعتيادية الاخرى ، ولما كان الحاج عبد الحسين الازري من الملازمين لمجلس الشرقي ومن اصدقائه الحميمين وممن وقع هو والشرقي في الشقة البعيدة عن شقة الشيخ محمد رضا الشبيبي روحاً وائتلافاً لاسباب اشرت اليها اشارة خفيفة فيما يخص الشرقي وذلك في احد الاجزاء السابقة ، ولم استسغ الاشارة هنا الى السبب فيما يخص الازري والشبيبي . ولما كنت انا من المرتادين لمجلس الشرقي في كثير

من الاوقات فلا يبعد ان يكون اول ملتقاي بالازري ، وتعرفي به عن قرب كان هنا ، وفي هذا البيت ، ثم قويت الروابط بيني وبين الازري وصار لا يكتفي بالتقائنا في بيت الشرقي أو بعض البيوت التي نلتقي فيها مصادفة وعن غير اتفاق فصار يقضي عندي بمكتب جريدة (الهاتف) وقتاً طويلاً لا يقل عن مرتين أو ثلاث مرات وربما أكثر من ذلك في كل اسبوع ، فاسعد به غاية السعادة ، وأسعى لأقلل مما هو تحت يدي من العمل لاشغل وقتي به .

وكان يقول لي ان الرابطة التي تربطه بالشرقي ليس الأدب والشعر ، وذلاقة اللسان ، وحلاوة الحديث وحدها ، وانما لهذا الوفاء الذي قل من يحمله من اصنافه اثره في تعلق المتعلقين به ، ولا انسى ان الازري قد طلب مني ذات يوم ان استعرض حضار مجلس الشرقي واحداً واحداً لكي يقوم عندي الدليل الكافي على أن معظم جلسائه ولا سيما الذين اعرفهم معرفة عميقة ليتوسمون عنده الوفاء قبل كل شيء ، اضافة الى هذه الافكار الجديدة المبتكرة التي يفرغها في رباعياته .

والحق ان (الشرقي) كان كالازري ، كثير التفقد لاصحابه ، كثير الاهتمام بهم ، فاذا زار مسقط رأسه (النجف الاشرف) لم يترك بيتاً من معارفه الا ومرّ به وسأل عن ساكنيه ، وتفقد اهله ، وكان وهو ببغداد يقضي على قدر امكانه حاجة من يقصده ، او يكتب له ، او يوسطه في أمر .

فقلت للازري وانت أفتقل وفاء عن الائمة المضروب بوفائهم المثل ؟ والكثير من شعرك وقوافيه مبتل بالدموع حزناً على من فارقت ، وذكراً لمن عاشرت ، وثناء على من احسنت الظن بهم في خدمة بلادهم دون ان يكون لك سابقة صلة أو معرفة غير حسن الظن وحسن السمعة ، أفليس هذا من الوفاء ؟ والحق ان من يستعرض شعر الازري ليجده الى جانب ما يتدفق به من الوطنية الصادقة ليقطر بل والله ليسيل بالوفاء سيلاً .

- ٤ -

ومن وفاء الشرقي لاخوانه أنه حين صدر كتاب (الحقائق الناصعة) للمرحوم فريق المزهر عن الثورة العراقية الكبرى ، ورأى مني التصدي للردّ على ما جاء فيه مما ينافي (الحقائق) وانا اجمع المعلومات والوثائق ممن كان له سهم فعال في الثورة باسم

(فراتي) مجهول كأنني منتدب من لدنه لكي يقوم بهذه المهمة واقوم انا له بنشره تباعاً في الهاتف ثم جمعه في كتاب باسم (على هامش الثورة العراقية الكبرى) قال لي الشرقي :

انت لا شك تعرف الشيخ خيون العبيد ؟ والشيخ خيون كان من اصدقاء الشيخ علي الشرقي الذي لا يفارقه حين يكون ببغداد ، وقال الشرقي وقد تدري ان الرجل قد لاكته الالسن ، ونسب الناس له الخيانه ، ونددوا باسمه ، ولا يزالون ينددون وقد مرّ على الثورة نحو ثلاثين سنة ، لأنه لم يثر في الغرّاف ولم يجار الثورة العراقية في الفرات ، والناس لا يعرفون السبب ، ولا يعرفون الوضع في الغرّاف يومذاك ، وانا اريد ان ادافع عن هذا الصديق بالحق الذي اعرفه شارحاً ما كان عليه الغرّاف، مبرئاً ساحةهذا الصديق وفاء له كصديق، وخدمة للتاريخ فهل تعدني بان تنشر ردي هذا وتخفي اسمي عن صديقك، الفراتي ؟ قلت سافعل ولكن (الفراتي) الذي أجمع هذه المعلومات باسمه ليس احداً غيري انا ؟

وطبع الكتاب ونشر في صدره عرض تاريخي يشرح ما كان عليه (الغرّاف) في أيام الثورة ، وقد قدمته انا بهذه الكلمة تمويهاً :

« هذه نقاط سجلها لنا احد الخبراء الفضلاء في الشطرة عن مقدمات الثورة العراقية ، واستعراض الاحوال بصورة مجملة، وصف ما كان عليه (المنتفك)قبيل الثورة، وفي اثنائها على وجه الاختصار، وهو ما لم يتطرق اليه مؤرخ من قبل » .

الشيخ علي الشرقي

وما كاد يخرج الكتاب الى السوق الا ونفد في أيام معدودة، وعرف الناس ان (الفراتي)أنما هو انا ولكنهم لم يعرفوا من هو الكاتب الذي كتب الفصل الاول عن الغرّاف، وبرّأ ساحة خيون العبيد من خيانة الثورة غير الحاج عبد الحسين الازري .

ففي ذات يوم والحاج عبد الحسين الازري عندي وفي مكتب(الهاتف)دخل

علينا شخص قال انه موفد من قبل الشيخ خيون العبيد ليشتري منّا مائة نسخة من (على هامش الثورة العراقية الكبرى) فقلت له ـ وانا صادق ـ ليس لدينا غير بضع نسخ وقد احتفظنا بها لمكتبتنا ، ولكن لماذا لم يشتر الشيخ خيون من السوق ما يريد ؟

قال الرسول : لقد كان قداشترى مائة نسخة من قبل وحين حاول شراء مائة اخرى الفاها نافدة ، ثم اردف قائلاً : وهو يسلم عليك ويرجو ان تخبره باسم هذا (الشطراوي) اي الشطري صاحب المقال ، فانكرت ان اكون على معرفة منه ، وكل ما في الأمر انـا تلقينا هذه الرسالة منه بدون توقيع حين نشرنا في الصحف عزمنا على اصدار بعض التصحيحات والتعليقات على كتاب فريق آل مزهر .

وحين خرج الرجل سألني الحاج عبد الحسين الازري : أبامكاني انا أن اعرف الكاتب اذا لم تجد في ذلك بأساً ؟ والازري خفيف الطبع يتحاشى ان يكون كلاًّ على أحد ولذلك تجيء اسئلته خفيفة كطبعه ، فقلت له : صحيح انه قد أخذ عليّ عهد بكتمان اسم الكاتب ، ولكني لا اعتقد ان هذا الكاتب سيؤاخذني اذا ما بحت باسمه لك ، وانا اعرف ما بينكما من مودة ، ثم أخبرته بأن الكاتب هو الشيخ علي الشرقي ، فقال لي وهذا من بعض وفائه ، ويستدل من كلام هذا الرسول الذي جاء ليشتري نسخا اخرى من الكتاب بان الشرقي قد اخفى اسمه حتى عن خيون ابتعاداً عن المنّة !! وظللت عند وعدي فلم اكشف عن اسم الشرقي الا بعد وفاته ، وظل الكثيرون ينسبون هذا المقال للكثير من الكتاب حتى تم كشفه على يد المؤرخ السيد عبد الرزاق الحسني .

أما (الفراتي) وهو أنا فقد عرفه القراء من أول يومه ولم يفد التمويه والتضليل الذي لجأت اليه لاخفائه ، وكان الشيخ فريق المزهر عضواً في حزب (الامة) حزب صالح جبر ، وكانت له دالة على الحزب فراح يستعمل صفحات احدى جريدتي الحزب للتنديد بي ومهاجمتي وسخّر لذلك قلم محرر كان يعمل يومذاك في جريدة الحزب ، وكنت اعلم أن هذا المحرر كان يحبني ومع ذلك فقد كان مضطراً لمهاجمتي تحت ستار توقيع رمزي وأنا ما زلت احبه ومن المعجبين بادبه ، وقد انهى دراسته العالية ونال درجة الدكتوراه ، ويشغل اليوم مركز استاذ بارز في احدى الجامعات العربية . واكبر الظن انه لا يدري باني كنت اعلم بانه هو الذي كان يكتب تلك المقالات عني لأني لم أبد له يوماً ما يدل على عتب او عدم رضا منه .

- ٥ -

وكثر لائمو الازري لاهماله جمع شعره وطبعه في ديوان لا سيما وقد طبع انداده دواوينهم غير مرة ، والازري ليس دونهم في الشعر بلاغة، ورقة ، وسمو غرض ، وتاريخ جهاد في ميدان الكفاح والاستقلال ، ولم اكن انا بأقل من أولئك الحاثين ، الحاضين ، الملحين عليه في الاقدام على طبع ديوانه ، وكم سرني حين علمت بأنه كان قد فكّر في مثل هذا ، وقد جمع شعره ، وعين مناسبة كل قصيدة وتاريخ انشائها وانشادها ، وانه عازم على طبع هذا الديوان ، وكان بامكان اولاده ان يطبعوا ديوان ابيهم بالذهب لو أرادوا ولكنهم لم يريدوا ولا اعرف السبب ، وكل ما اعرفه انهم ليسوا سواء عنده في الرضا ، وليسوا على درجة واحدة من قلبه ، حتى لقد صار الكثير من الناس يستشهدون بقوله اذ يقول :

ممن تحـدر من صلبي نفضت يـدي فكيف ارجـو الـوفـا ممن اصـاحبـه

وهذا البيت وارد في ديوانه ويرويه الناس على سبيل المثال .

وتوفيت زوجته ، وزوجة الازري هي شقيقة المرحوم الحاج عبد الحسين الجلبي وعمة السري الحاج عبد الهادي الجلبي فجاءه منها الارث الذي ادخره لطبع هذا الديوان ، وصمم على ذلك ،وسافر الى دمشق ليشرف بنفسه على طبع الديوان وقرّ القرار على ان يحوّل له المبلغ حين يتم الاتفاق بينه وبين المطبعة ، وكان ان تم الاتفاق مع مطبعة (ابن زيدون) وكتب من دمشق الى الشيخ علي الشرقي يطلب منه تقديم ديوانه بصفته الشاعر الذي عاشره ، وخبره ، وعرف قدره في حلبة الشعر ، وقد كتب الشيخ علي هذه المقدمة وبعث بها اليه في دمشق ثم بعث لي بنسخة منها لنشرها في (الهاتف) وقد نشرت انا (المقدمة) واشرت الى طبع الديوان وعلقت على مقدمة الشرقي بما يناسبها ،وهي نفسها المقدمة التي تتصدر ديوانه اليوم ، وظل الازري ينتظر وصول (الحوالة) في الشام ولكنها لم تصل ولم ادر لماذا ؟ ويظهر انه استبطأ وصولها فغادر دمشق عائداً الى العراق ؟

وتعطل طبع الديوان ، حتى توفي الازري والديوان لم يزل مخطوطاً ، وبعد عدة سنوات من وفاته وانا انزل من السيارة قبال مكتب (دار التعارف) الذي كنت قد اسسته بالباب الشرقي بعد اغلاق جريدة الهاتف ، اذا بعبد الكريم الازري يستوقفني ويسأل عني ، فدعوته الى مكتبي لاحتساء قدح من القهوة فأجاب وصعدنا معاً ، وفي

عرض الحديث مررت انا بذكر ديوان ابيه ، وقد وجهت له ولأخيه عبد الامير الازري اللوم لاهمال هذا الكنز الثمين . فاعتذر هو وقال لي ان بامكاني ان اكلم اخاه عبد الامير بذلك واعطاني رقم تلفونه واشترط عليّ الا اذكر شيئاً عن مواجهتي هذه له ، واتصلت بعبد الامير (أبي عصام) ولمته مثلما لمت اخاه عبد الكريم باهمال طبع هذا الديوان ، وابديت له استعداد مكتب (دار التعارف) لطبعه على نفقتي اذا كان هناك ما يحول بينهم وبين طبعه على حسابهم . فكان ان قابل لومي بالاعتذار والاستعداد لطبعه وأخبرني ان لا فضل لاحد في ذلك لأن جور طبع هذا الديوان مدخرة من قبل والده ، ولكن الديوان يحتاج الى تحقيق ، فـأبديت له استعدادي في ان اقوم انا بالقدر الذي استطيع ، وكان علي ان اسافر الى بيروت للاشراف على طبع بعض اجزاء (موسوعة العتبات المقدسة) التي كنت اقوم بتأليفها ، فاتفقنا على ان نلتقي في مكتب تلك المطبعة ببيروت ، وبعد أيام جاء السيد عبد الامير ومعه ابنه السيد عصام وانا في مكتب المطبعة ولم يكن مديرها حاضراً فقرّ قرارهما على ان يأتي السيد عصام الازري بالديوان لمواجهة المدير ومذاكرته بخصوص اجور الطبع بعد ان اكون انا قد حققت الديوان ودققت النظر فيه .

الشيخ عبد الحسين الحلي

ومرت ايام طويلة رأيت فيها(عصاماً) في بيروت غير مرة فلم أسأله ولم أسأل عن سبب تأخره وانما هو الذي قال لي حين التقاني ذات مرة بان الديوان في بغداد، وسيرسلونه الى بيروت، وسيتصل بي بشأنه فلم أردّ عليه بشيء، والسبب في اعراضي انا هو انني خشيت ـ لا سيما وكل آل الازري بعد ابيهم لا يعرفونني ـ ان يظنوا وأنا ألح عليهم واكثر اللحاح في وجوب اقدامهم على طبع ديوان ابيهم أن يكون لي غرض ماديّ، أو منفعة شخصية، ، ولو كان أبوهم على قيد الحياة لقال لهم ما كان قد قال عني مراراً وأنا اتجنب ذكره هنا من مديح لا

استحق بعضه ، وثناء لا أجدني اهلاً له .

وقد خرج الديوان اليوم بعد اكثر من ربع قرن من وفاة (الازري) في حلة قشيبة وفي تحقيق رصين لغوي أدبي رصين ، وفي صدره مقدمة الشرقي التي نشرها (الهاتف) وكان لي شرف تقديم الديوان من ناحية اخرى ، هي ناحية الفن ، والشعر عند الازري الجديد صنو الازري القديم .

- ٦ -

كنت قد قلت ان شقة الخلاف في التفاهم والمودة بين الشيخ محمد رضا الشبيبي من جهة ، والشرقي والازري من جهة ثانية واسعة ، وقد تتسع بعض الاحيان اكثر حين ينقل البعض من هذه الجهة لتلك الجهة ما يكدرها أو حين يحدث حادث يكون له من التفاسير ما يكدر الخاطر من قبيل رسوب الشيخ عبد الحسين الحلي في امتحان القضاء الشرعي ، وكان الشبيبي يسعى لتعيينه في القضاء فقيل ان الشرقي ـ وكان يومها رئيس التمييز الشرعي الجعفري ـ هو الذي وضع العراقيل في سبيل نجاحه ، فكانت حوادث كهذه تقع في بعض الاحيان فتزيد في الخلاف وتزيد الشقة اتساعاً الا ان مثل هذا كان مثله على عدم التزاور ، وعدم الملاقاة ، وعلى اشياء من الوخزات التي تجيء في بعض المناسبات ، ومن هذه القضايا التي زادت شقة التنافر اتساعاً هي المحاضرة التي ألقاها الشبيبي عن الشعر العراقي والشعراء العراقيين بمصر في دورة انتخابه عضواً في المجمع اللغوي في القاهرة .

وعن انتخاب الشبيبي عضواً في مجمع اللغة يحدثنا الدكتور بدوي طبانة المشرف على الدراسات العليا للغة العربية بجامعة الرياض اليوم بما يلي :

يقول الدكتور بدوي طبانة وهو من اخلص محبي الشبيبي والمتعلقين به ، وتعود محبته هذه الى أيام استعارة الحكومة العراقية خدماته العلمية لمعاهدها في العراق فصارت له بالشبيبي صلة وثيقة وهو ـ اي الشبيبي ـ الذي قدّم كتاب بدوي طبانة (معروف الرصافي ـ دراسة ادبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية) سنة ١٩٤٧ وهو اول كتاب يكتب عن الرصافي وقد احدث المرحوم مصطفى علي ضجة كبرى في الصحف العراقية في مهاجمته الكتاب ، وكان الدكتور طبانة كثير الاعجاب بالشبيبي وكثير التردد على بيته ، وحين انتهى عقد طبانة مع الحكومة العراقية وعاد الى القاهرة حدث هنالك

شاغر بين اعضاء مجمع اللغة فرءآها طبانة ـ كما يقول ـ فرصة ثمينة يستطيع ان يحمل بها العقاد على ترشيح الشبيبي لهذه العضوية ، ويقول طبانة ، وكنت ممن نال عند العقاد بعض الحظوة ، فجئت اعرض الأمر عليه ، وانا لا ازعم بان العقاد لم يكن يعرف الشبيبي او يجهله ولكني جازم بان العقاد لم تكن له بالشبيبي معرفة كاملة تحمله على الاندفاع بحماس في هذا الترشيح ، فرحت اشرح للعقاد كل ما اعرفه من حسنات الشبيبي ادباً ، وعلماً ، ووطنية حتى آمن بأن الذي سيقوم به انما هو مما يشبه الفروض في خدمة الادب ، فصمم على ترشيحه بدافع من الايمان والعقيدة بجدارة هذا الرجل .

وكتبت الى الشبيبي ـ يقول الدكتور طبانة ـ دون علم من العقاد اخبره بذلك وانسّب له الكتابة للعقاد بكلمة شكر من باب المجاملة او المقتضيات الادبية ، ولكن الشبيبي لم يستجب،ولم يكتب لي شيئاً بهذا الخصوص ، وكان هناك بعض المرشحين الذين تقدم باسمائهم بعض الاعضاء لانتخابهم لهذه العضوية الشاغرة ، وبين هؤلاء المرشحين من كان في مصاف اصدقاء القعاد ، ولكن العقاد ظل مصراً على انتخاب الشبيبي حتى قبل بالاجماع،فعدت اكتب للشبيبي ـ يقول طبانة ـ بوجوب الكتابة الى العقاد بكلمة شكر على ترشيحه له،ولكنه لم يفعل،ولم ادر لذلك سبباً وكل ما اعلمه علم اليقين ان ليس بين العقاد والشبيبي اي شي يستوجب مثل هذا الموقف لكي يقال عنه (لعل له عذراً وانت تلوم)وجاء الشبيبي الى القاهرة، يقول طبانة وكنت في ضمن مستقبليه ، وحين خلوت به في الفندق ، حثثته على زيارة العقاد في بيته فأبى ! وجئت الى العقاد اطلب منه ان يقوم هو بزيارة الشبيبي ولم اخبره بامتناع الشبيبي عن الكتابة له ، والاعتذار عن القيام بزيارته ، والعقاد في بيته غيره في خارج بيته ،واعني انك لا تجد

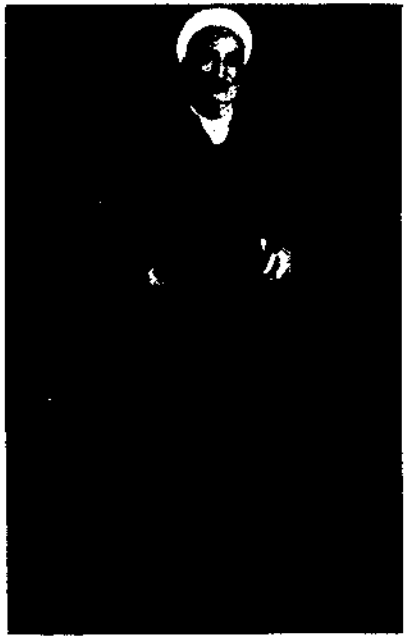

الشيخ محمد رضا الشبيبي

شخصا متواضعاً رقيق الحاشية ، كريم النفس كالعقاد وهو في بيته، ولكنك قد لا تجد شيئاً من هذا وهو بين المجتمع والناس الا ما ندر لذلك أبى العقاد ان يكون هو البادىء بهذه الزيارة ، وما زلت به حتى أخذ برأي القائلين (ان لكل قادم كرامة) وتحدد الوقت وقمنا معاً بزيارة الشبيبي في الفندق !!

هذا ما رواه لي الدكتور بدوي طبانة باختصار عن كيفية وجود الشبيبي في القاهرة ، وفي القاهرة القى الشيخ محمد رضا الشبيبي محاضرة عن الشعر والشعراء في العراق ، واورد اسماء طائفة من الشعراء ذهب رأي القراء الى أن ذكرهم كان أقرب الى الحصر منه الى ضرب المثل . ولم يذكر بين اسماء الشعراء اسماً للشيخ علي الشرقي ، ولا اسماً للحاج عبد الحسين الازري مع انهما من انداده في الشعر ، واقرانه في رتب الادب ، ونشرت مجلة (الرسالة) هذه المحاضرة ، وكانت مجلة الرسالة من اشهر المجلات الادبية الاسبوعية واروجها ، وقد كان لها في العراق بصورة خاصة مكانة جد كبيرة لا لأن احمد حسن الزيات كان صاحب رسالة مستقلة في عالم النثر والكتابة فحسب بل لان الزيات قد سبق له ان عمل في العراق وتشرف بالتعلم على يده جمهرة كبيرة من حملة الاقلام واهل الادب ، لذلك ما كاد ينتشر هذا العدد من (الرسالة) الذي اغفل الشبيبي فيه ذكر الشرقي والازري بين من ذكر من اسماء الشعراء حتى عادت شقة الخلاف تتسع بين الجهتين الشبيبي من جهة ، والشرقي والازري من جهة اخرى .

وكان ابراهيم الوائلي الاستاذ بكلية الاداب من جامعة بغداد اليوم طالباً بكلية العلوم في القاهرة يومذاك فعقب على محاضرة الشبيبي في (الرسالة) بكلمة اشار فيها الى اغفال الشبيبي ذكر شاعرين كبيرين هما في الطليعة من شعراء العراق فزادت كلمة الوائلي هذه من اتساع الخرق بتنبيه من لم ينتبه بعد الى ما تم نشره في (الرسالة) والى ما بين الشبيبي من جهة وبين الشرقي والازري من جهة اخرى من الجفاء وكان بيني وبين الشبيبي يومذاك ما يسميه البعض (بالبرودة) أتيت على ذكرها في الجزء الثاني من (هكذا عرفتهم) ولكن لا هذه (البرودة) التي كانت بيني وبين الشبيبي ، ولا تلك الصداقة التي كانت تشدني بالازري والشرقي استطاعتا ان تجعلا من جريدتي ميدان نقاش في هذا اللغط الذي سببه وقوع هذا الحادث او ما كان يسببه الجفاء بين الطرفين .

وذات يوم والشرقي ، والازري عندي بمكتب الهاتف تردد ذكر الشبيبي

ومحاضرته بمصر عن الشعر والشعراء في احاديثنا ، وللتخفيف من حدة الجفاء انكرت ان يكون الشبيبي قد ذكر اسماء الشعراء على سبيل الحصر او ما يشبه الحصر ، فردّ عليّ الازري قائلاً بما مضمونه ان للشبيبي كل الحق ان يغفل اسمينا نحن الاثنين وانا اروي لك قصة حسين الصراف والسيد عبد الرحمن النقيب وكلي رجاء ان تنقلها عن لساني الى الشيخ الشبيبي . وقد مررت انا على هذه القصة مروراً خاطفاً من حيث الشكل لا المضمون في احد الاجزاء من هذا الكتاب ، وانا اروبها هنا فاذا اختلف شكل الرواية فالمضمون هو هو بمفهومه لم انقص منه شيئاً ولم أزد عليه شيئاً ، ذلك لان القصص ليست نصوصاً مفروضة كالشعر والامثال وغيرها ، وانما هي مضامين الاصل في الحكاية ، ولو كان للشكل اهمية النصوص في الامثال لرجعت الى ما كنت قد قصصت من قبل واوردته هنا بالنص الكامل .

وحسين الصراف الذي بدأ يروي لي الازري حكايته وجيه من وجهاء الكاظمين معروف بالظرف الى جانب وقاره ، يخلق النكتة خلقاً ويأتي بها حتى على نفسه ارضاء لنفسه ليس غير، وهو محبوب عند جميع معارفه، وله مكانة محترمة بين الناس سواء في الكاظمين او في بغداد، وكانت له مودة صميمية وصداقة متينة مع السيد عبد الرحمن الكيلاني النقيب، وكثيراً ما يضمه مجلسه وينعمان بالصحبة .

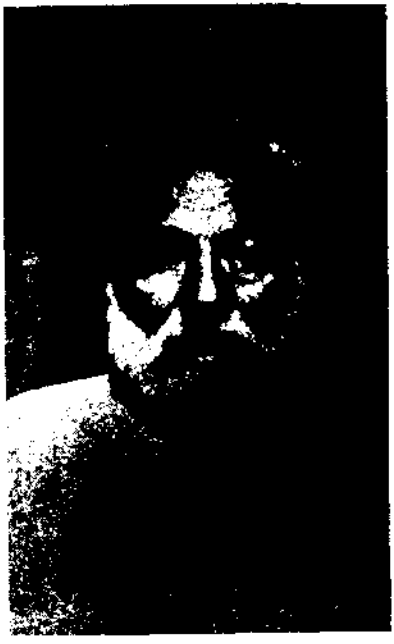

الحاج حسين الصراف

قال لي الازري والشرقي مصغ اليه: لقد كانت من عادة عبد الرحمن النقيب ان يدعو الى الافطار في كل ليلة من ليالي شهر رمضان بعض وجهاء القوم ليتناولوا طعام الافطار عنده، وقد كلف صديقه حسين الصراف ان يختار له من وجهاء الكاظمين وعلمائها عدداً يدعوهم باسمه لتناول الافطار على مائدته في الاسبوع المقبل، وهاج هنا

المجون في نفس الصراف ، وهيّأ نفسه لتمثيلية ساخرة مضحكة ومفيدة ، فحينما قارب ان يحين موعد الدعوة مرّ حسين الصراف بمخزن في الكاظمين لبيع الالبسة المستعملة ليستأجر من صاحب المخزن بعض الثياب ، والجبب ، والعبي ، والاحذية لليلة واحدة لا غير ، وجهز صاحب المخزن ماراد منه حسين الصراف وأبى أن يتقاضى عليه اجراً ، وحمل ذلك الى بيته وراح يمرّ على الاسكافي الذي يجلس عند رأس الشارع ، وبائع الطرشي القريب من بيته ، وعدد من الشحاذين الشيوخ من ذوي اللحى الذين يلازمون الجلوس عند باب صحن الامامين الكاظمين ويكدون وامثالهم وهو يدعوهم الى ان يهيئوا انفسهم قبل غروب الشمس لينقلهم الى بغداد ليتناولوا هناك افطارهم على مائدة ما كتب الله لهم مثلها زاداً وطعاماً شهياً من قبل .

وفي الوقت المعين وقد صحبه احد اقربائه جمع حسين الصراف بائع الطرشي ، والكبابي ، والاسكافي ، والبقال ، والشحاذين ، وسارا بهم الى البيت وأمرهم ان ينزعوا ألبستهم ويلبسوا ما هيّأ لهم من الألبسة المستأجرة وان يغسلوا ايديهم ووجوههم ويعتمر بعضهم (الكشابد) والاخرون من ذوي اللحى الكثة العمائم ، وقال لقريبه : ان عليك ان تسير بهم معي الى دار النقيب ببغداد حتى اذا دخلت انا الدار ودخل هؤلاء معي كنت انت على الباب في انتظارهم . فاذا تم تناولهم الافطار وخرجوا من دار النقيب فان عليك ان تعيدهم الى الكاظمين والى بيتي حيث يتم لهم خلع هذه الملابس وارتداء ملابسهم الاصلية والانصراف من البيت .

وقال لي (الازري) : وتم تنفيذ الخطة تماماً ودخل حسين الصراف وجلس الى جوار النقيب ، ودخل هؤلاء وجلسوا على مبعدة من مجلس النقيب وحسين الصراف ، وامتدت المائدة وكانت كما كانوا ينتظرونها غاصة بالحملان المشوية (القوزي) والدجاج بمختلف انواع طهوه ، واصناف لا تعد من المطبوخات والمعجنات والحلاوة ، حتى اذا امتلأت بطون القوم واخذوا نصيبهم من الشاي والقهوة ، قال لهم حسين الصراف ، اما انا فسأبقى هنا الى وقت متأخر ، وأما أنتم فلكم ملء الحرية في الانصراف .

فقام القوم ، وكل واحد حسبما لقنته بيئته صار يدعو للنقيب ، هذا يقول حفظك الله وادام نعمته عليك ، وآخر يقول كما يقول العوام : الله يسلمك ، ويريحك ، وغير ذلك مما الف كل واحد أن يقول ، والنقيب مندهش ، فما هذا المجلس مجلس الكبار من

اهل الكاظمين ، ولا هذا الاكل اكل اشرافهم ، ولا هذه لغة علمائهم وزعمائهم فمن يا ترى هؤلاء ؟

وحين تم انصرافهم يقول الازري سأل النقيب حسين الصراف ، اخشى يا حسين ان تكون هذه احدى (مقالبك) وطرفك ، فمن هؤلاء الذين جئت بهم ؟

قال حسين الصراف ـ أرأيت هذا الذي كان يخالسك النظر من بعيد والذي يرتدي تلك الجبة الفضفاضة ، ويعتمر بالكشيدة ؟ انه والله الاسكافي الذي نذهب باحذيتنا اليه كلما احتاجت الى رقعة من الجلد ، او اذا هريت كعوبها ، اما ذلك الشيخ ذو العمة الكبيرة واللحية الطويلة فهو احد الشحاذين الذين يشحذون على باب صحن الجوادين .

وراح حسين الصراف يصف له الاشخاص واحداً بعد واحد من بائع الطرشي الى البقال ، والكبابي وغير هؤلاء .

فقال النقيب وما الذي دعاك الى هذا ؟

قال يا سيدي النقيب لقد جئت لك بقوم اذا مشيت مشوا خلفي ، واذا جلست جلسوا تحت يدي وعلى مسافة من مجلسي كما رأيت، ولو كنت قد جئت لك بوجيه من آل الصدر،أو آل الخالصي ، أو آل الجلبي ، أو آل الشيخ ياسين أو آل عطيفة ، أو آل الحيدري ، لكانوا هم في المقدمة اذا مشوا ، وكنت انا في المؤخرة ، وكانوا هم في الصدر اذا جلسوا ، وكان مجلسي حيث منزع الاحذية والكنادر .

وقال الازري : ألم أقل لك أن من حق الشبيبي أن يأتي بأسماء هؤلاء الشعراء ، ويتجاهلُ مثل اسمينا ؟ انا والشرقي .

* * *

لقد عودني الحاج عبد الحسين الازري ان انتظر زيارته بكل شوق ولهفة في الاسبوع مرتين على الاقل ، والا فالغالب ثلاث مرات واكثر ، واذا ما استبطأته ومرّ أسبوع دون أن أراه اوجست خيفة على صحته ، وحين أسأل عنه يتحقق عندي الظن فاقوم بزيارته في بيته الواقع في شارع السعدون بالقرب من الجندي المجهول ، وهو بيت يخص زوجته البارة به ، والتي خصته برعايتها طوال حياتها فكانت من الزوجات المثاليات ، وكانت غرفته في الممر الايمن من مدخل البيت وطالما قال لي انه يشعر بسرور

كثير حينما اكون بقربه ، وكثيراً ما كان يتوعك في سنينه الاخيرة وكثيراً ما كنت ازوره ، وقد ادركته الشيخوخة قبل اوانها ، وأحس بغربة النفس بعد وفاة زوجته ، ولا شك ان وقع ذلك كان شديداً عليه لأنه كان شاعراً، مرهف الحس، رقيق الشعور ، وعلى رغم ما اتصف به من الصبر والجلد والايمان ، فكثيراً ما تدمع عيناه ، ولقد والله عزّ عليّ فراقه ، وطال حزني عليه ، ويمر الآن على وفاته وانا اكتب هذه السطور اكثر من ربع قرن ، نسيت فيها اشياء ثمينة كثيرة اما الحاج عبد الحسين فمن الذين لا احسبني ناسيهم مدى العمر .

رحم الله (الازري) انه من القلائل الذين يصح فيهم رثاء ابي العلاء المعري اذ يقول :

فان ينقطع منك الرجاء فانه سيبقى عليك الحزن ما بقي الدهر

ويقول كذلك :

لابارك الله في الدنيا اذا انقطعت اسباب دنياك عن اسباب دنيانا

جورج كعدي ـ وقد كتب خلف الصورة ما يلي : « هذا رسمي مثال البشاعة كأنه (بعبع) اقدمه الى اخي الرجل الانساني النبيل جعفر الخليلي عنوان اخلاص ، وقيد اختصاص » عن ٦٤ سنة .

« الكعدي »

كيف عرفت
جورج كعدي
١٩١١ ـ ١٩٧٥

ـ ١ ـ

لم أعرف جورج كعدي رؤية عن كثب ، ولم يكن لي به اتصال بالمراسلة الا منذ بضع سنوات وقبل مفارقته الحياة، اما قبل ذلك فكان يمرّ عليّ اسمه أحياناً في بعض الصحف يوقّع مقطوعة شعر، أو قصيدة قد أقرأها بعض الاحيان أو أقرأ جزءً منها، او اهمل قراءتها بالمرة حسب وقتي ومزاجي شأني مع الكثير من المقالات والقصائد التي لا يساعدني الوقت او لا يجذبني جاذب كامل من حيث الموضوع والمادة ، وكل ما كنت أعرف عن جورج كعدي انه لبناني مغترب ، وأنه من هؤلاء المغتربين الذين يستعينون بالشعر في التنفيس عن غربتهم، وتصوير مشاعرهم وأحاسيسهم نحو اوطانهم او الإعراب عن خواجلهم على قدر ما أوتوا من ملكات ومواهب ، وقد أغنى البعض منهم اللغة العربية والأدب العربي بالكثير من التشابيه والأمثلة الجديدة ، والمعاني والموضوعات المبتكرة .

ورجعت اليوم الى اضبارة رسائل جورج كعدي لأعرف كيف جرى اول اتصالي به فلم أجد شيئاً يدل على هذه الكيفية ، والسبب هو انني قلما التزمت بفتح اضبارة خاصة لمن اتعرف به اول مرة ، فأنا احتفظ بما يردني من الرسائل، وحين تتكاثر أعمد الى جمعها في اضبارة خاصة بكل من اتعرف به من الأدباء والكتاب ، والشعراء وأهل البحث والتأليف ، وقد يفوتني العثور على بعض الرسائل قبل التصدي لجمعها فتضيع ، ومع ذلك فالرسائل التي لدي عمن عرفت ، ومنهم (جورج كعدي) غير قليلة ، وأحسب ان رسائل كعدي وحدها لو نشرت كانت كافية للتعرف به كشاعر

يذوب في محبة العرب والعروبة ، ويغلي دمه أشد من غليان فدائي مخلص متحمس حين يجيء اسم فلسطين ، ثم هو بعد ذلك او قبل ذلك على الأصح انسان متشبع بروح الفضيلة ، مؤمن برسالة الأنسانية التي تدعو الى الخير والمحبة ، وهو يحب محمد بن عبد الله نبي الاسلام كما يحب المسيح بصفتهما داعيين للخير وسعادة البشرية ، ولولا ذلك لما جاء في وصف العرب قوله :

فأمة انجبت في الكون (أحمدها) يوم الكريهة لم ترهب اعاديها
وأمة ثبّت الاسلام معقلها تفنى الليالي ولا تفنى مباديها
لنا كتاب ومن آياته انبثقت انوار ربك مثل الشمس يجليها

وفي مكان آخر يقول عن نفسه :

قالوا تحبّ العرب قلت أجل هذا الذي اوصى به الربّ

وكثير هو هذا الذي قاله في العرب ، والعروبة من الشعر ، ولم تمرّ مناسبة حتى يجيء ذكر النبي ﷺ ، وذكر الاسلام .

- ٢ -

وحياة جورج كعدي حياة تكاد تكون فذّة بل هي فذة بكل هذا المعنى ، فان شابا يخرج من مسقط رأسه ولم يزد عمره عن أربع عشرة سنة ، ولم تزد معارفه عن دراسة ابتدائية لم تكتمل مراحلها بعد ، وليس في جيبه أكثر مما يستطيع ان يوصله الى البرازيل ليعمل هناك بما يسدّ له حاجته اليومية ، فيعمل نهاراً في كسب العيش ، وليلاً في الانكباب على الدرس ، لأمرٌ لا يخلو من الدهشة والأستغراب لا سيما اذا علمنا بأنه درس العربية على نفسه حتى أتقنها بكل فروعها من نحو ، وصرف ، وبلاغة ، وعروض ، حتى تولع بالشعر ، وحفظ من أشعار العرب قديما وحديثاً الشيء الكثير ، والى جانب العلوم العربية انكب على دراسة الأسبانية والبرتغالية، وهما اللغتان الشائعتان في اميركا الجنوبية حتى نظم الشعر بالأسبانية ، وطبع له ديوان شعر بها ! ولم يقف عند هذا الحد بل تعداه الى تعلم اللغة الأنكليزية ، والفرنسية ، والألمانية !! وكان يتكلم بهذه اللغات ، ويكتب بها ، ويدير اعماله مع الشركات بنفسه ، وبكل سهولة دون احتياج الى مترجم او مساعد فيما يختص باللغة !! وليس من المبالغة في شيء اذا قلنا انه كان من القلة المعروفين بين الناس من حيث الدأب على العمل بين

العرب المهاجرين وخاصة من اللبنانيين الذين بنوا للعرب في البرازيل مجداً جديداً فيما انتجوا من الشعر والنثر الذي لقحوه بالجديد من الأفكار والتشابيه والمعاني المبتكرة ، وكان في مقدمة اولئك الياس فرحات ، ورشيد سليم الخوري ، (الشاعر القروي) ونظير زيتون ، وآل معلوف ، وغيرهم الكثير .

وإذا علمنا أنه كان في مدينة (سانباولو) وحدها ثلاث عشرة صحيفة عربية ذات يوم ، وعشرات من الأندية ، والجمعيات ، والمدارس العربية ، ادركنا قيمة هذه الجالية في تاريخ العرب وادبه الحديث ، وحسبنا ما طبع لشعرائهم من الدواوين العربية ، وما ضمت هذه الدواوين من روائع الشعر وفنونه ، بل حسبنا مجلة (العصبة الأندلسية) لسان حال جمعية (العصبة) التي كانت عنوانا لأدب العرب الرفيع الحديث .

ولقد كان لهذه البيئة ، البيئة التي تعج بالأدب ؛ بجميع صنوفه وألوانه الى جانب اسواقها المزدوجة بمختلف الأعمال التجارية شأن كبير فيما كسب جورج كعدي من ثقافة ، وفيما كسب من توفيق ، ونجاح في السوق من الأعمال التجارية .

وجورج كعدي من مدينة (بسكنتا) الرابضة على سفح (صنين) ، ويبدو أن عوامل لم يعرف بعد سرّها ، او قل لم أعرف انا سرّها ، كامنة في ربوع هذه المدينة يرجع اليها هذا التكوين الأدبي ، والأثر البليغ في تدفق الشعر ، وانبثاق الفن في نفوس بعض مواليدها على رغم بعدها عن بيروت وانزواثها في هذا السفح من الجبل الذي ينتهي به طريق المستطرقين في الغالب، فقد عرفت من هؤلاء الأديب العبقري الكبيرميخائيل نعيمة ، وعرفت من كبار المحامين وحملة الاقلام الادباء كعدي فرهود كعدي وعرفت من اهل العلم والادب الدكتور جرير حيدر الاستاذ بجامعة لندن ، وعرفت من الكتاب المجيدين سليمان كتاني الذي حصل على الجائزة الاولى بين عدد كبير من الباحثين في كتابه (الامام علي نبراس ومتراس) ومن الكيميائيين عرفت جريس نعيمة ، والذين يعرفهم غير اكثر واكثر .

وكان جورج كعدي ـ كما مرت الاشارة ـ من مواليد سنة ١٩١١ وقد سافر الى البرازيل بعد ان وضعت الحرب العظمى الأولى اوزارها ببضع سنين ، وعمل هناك في ميادين مختلفة حتى بلغت ثروته المليون ذات يوم وتجاوزت ذلك .

والذين ينشأون نشأة فقيرة ثم يغتنون لا بد وان يكونوا في الغالب اما اسخياء

مسرفين في سبيل الخير وغير الخير ، او مقترين على أنفسهم وعلى غيرهم ، اما المعتدلون فهم من القلائل في تاريخ الأغنياء، وكان جورج كعدي بعد ان تشبع بالروح الانسانية ، وارهف الشعر احاسيسه ، ولطّف الأدب مزاجه، كان من المسرفين كل الأسراف في سبيل الخير ، ومن الذين كان يلذهم أن ينفقوا الكثير مما يكسبون في وجوه البر ، ومساعدة الآخرين ، لذلك بسط يده كل البسط في اعانة الجمعيات ، والمنتديات ، وإقالة عثرات العاثرين، وجبر كسر المكسورين، حتى كاد يفلس لو لم يفطن الى نفسه ويتدارك الأمر، خاصة وقد اصيب بصفقة تجارية خاسرة كانت مبعث شماتة الشامتين وحسد الحاسدين ، ومن عادة الناس منذ القديم ان يكونوا مصداقاً لقول القائل .

الناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأمّ المخفق الهبل

وعلى رغم ما عرف به جورج كعدي من جلد ، وحسن تصبّر ، وحزم يلمسه القارىء في شعره في مثل قوله :

طارديني في غربتي يا رزايا واهجمي هجمة لهذّ قوايا
فؤادي لو تعلمين حديد صهرت حسّه الرهيف البلايا
هو أقوى من الهموم واسمى من حقود تجتاح هذي البرايا
فأنا الشاعر الذي علم الطير غناء فجرّته من حشايا

انه على الرغم مما عرف به من قوة المثابرة ، والتعالي على الحاسدين واعتزازه بابائه ،وعدم مبالاته بما يقول الشامتون ، فقد شعر بالسأم ، ولربما شق عليه ان يجابه بنكران الجميل حتى من الذي أكرمهم، واحسن اليهم في ساعة الشدة، فرأى فيهم غير (بروتس) واحد .

أجل انه رغم ما عرف به من شدة البأس، والعزم ،فقد شعر بما يجرح احساسه في البرازيل فحزم امتعته ، وخرج من البرازيل الى (لاباز) من بوليفيا وهو يكرّر انشاد هذا البيت :

وزهّدني في كل خير صنعته الى الناس ما لاقيت من قلة الشكر

وفي مكان آخر يقول :

أقصر وجيبك ايها القلب هيهات يجدي النوح والندب

الدهر يخذل كل ذي أدب لا السعي ينفعه ولا الدأب
عبست له الأيام كاشرة عن نابها واغتابه الصحب
وتفننت في ذمّه فئة ابداً حُلاها السب والشلب

- ٣ -

والفرق بين (بوليفيا) و (البرازيل) كالفرق بين السماء والأرض ، فإذا كانت (سانباولو) تعج بكبار ادباء العربية ، والمطابع الحديثة ، والأندية ، والجمعيات وبالجالية السورية واللبنانية على الأخص التي جعلت من (سانباولو) سوق عكاظ عصرية حديثة في هذه الجمهورية الواسعة الأرجاء في تجارتها ، ومجتمعها العربي ، وبيئتها الأدبية ، الممتازة حتى في مناخها ودفئها المعتدل ، فإن (لاپاز) كما أعلم : مدينة تقع في السفح من جبال (الأنديز) الباردة التي لا يزيد متوسط درجة الحرارة في صيفها على ٥٠ درجة فهرنهايت ، والتي ليس فيها إلا فصلان من فصول السنة هما الربيع والشتاء ، إذ كان ارتفاعها عن سطح البحر لا يقل عن (٤٠٠٠) متر ، في حين أن نفوس سكانها تقل عن نصف المليون ومعظمهم من الهنود الحمر الأصليين ، اما الجالية العربية هناك فهي على النقيض تماماً من الجالية العربية في البرازيل لا من حيث الحالة الأقتصادية وسوق التجارة فحسب ، وانما من حيث المدارك والشعور ، والأحاسيس الأدبية ، والأجتماعية .

وقد كتب لي جورج كعدي مرة يقول : « انني شاعر مغمور، يعيش في بيئة مغمورة لا تسمع فيها للعربية ركزاً ، ولا خشفاً ، ولا ندباً » .

وفي رسالة اخرى يقول :

« إنني اعيش في هذه البيئة الوبيئة منضماً على نفسي ، منطوياً على ذاتي ، كثير التأمل والتلفت الى الأفق البعيد ، وليس هناك من جرائد عربية ، ولا منتديات أدبية ، وانا اهفو الى المطالعة، وأحب الأختلاء بكتبي ، وهي عندي أوفى الأصدقاء ، ولكن اين لي هذا وعليّ ان اسعى من الفجر الى النجر وراء اللقمة . لتأمين ضرورات الأسرة ، مع ان بلادنا العربية تعوم فوق بحار من النفط وهي نهب للعلوج » .

وتتكرر امثال هذه الشكوى حتى كتب لي بهذا المضمون غير مرة يقول :

« . . . انني اعيش في هذا البلد منضماً على نفسي ، منطوياً على ذاتي صابراً

مصابراً حتى يبلغ الكتاب أجله ، ويقضي الله امراً كان مفعولاً» ، واخيراً بلغ الكتاب اجله ، وقضى الله الأمر المفعول .

وجورج كعدي مشارك في غلب المجلات والصحف العربية ، ويدفع لبعضها أكثر من اثمان مشاركاتها على سبيل المساعدة ، ولكن هذه الصحف لم يصل إليه منها غير نسخة او نسختين في السنة !! على ما كان يقول ، بل يتقاضى منه بعض هذه الصحف احياناً ثمن أجور البريد الجوي دون ان يصل اليه عدد منها !! باستثناء مجلة (الأديب) ومجلة (العرفان) كما قال ، حتى لقد ذكر لي بان (الأديب) ما صادف ان انقطع عنه عدد واحد منه ، ولولا (الأديب) لماتت هذه البقية في نفسه من اللذة ، بل وحتى من الأحساس والمشاعر !!

وهذه حياة تشق كثيراً على جورج كعدي وأمثاله ، وليس باستطاعة الأعمال التجارية وغير الأعمال التجارية مما يشغل اوقات ارباب الحس والمشاعر الأدبية ان يسدّ الفراغ الحاصل ، ويصرف الشاعر الأديب عن اتجاهه الفكري ، وقد فتح جورج كعدي في (لاپاز) مخزناً للتجهيزات وانفق عليه كل مجهوده ، ولكن مثل هذا العمل مهما اخذ من وقته وفكره ـ لا سيما وهو في مثل هذا المحيط الذي قد تضيق فيه سبل العيش ـ فانه لن يستطيع ان يصرفه عن جبلته كشاعر مرهف الحس ، رقيق الشعور ، يقرأ كثيراً ، ويحيط بالشيء الكثير من ثقافة العصر بسبب ما يتقن من اللغات الحية ، واذا أضفنا الى ذلك قلة الأكسجين في مثل هذا الارتفاع من الأرض الذي يعود اليه توعك الجسم ، والأنحراف الصحي العام عند الأشخاص الضعفاء والنحفاء امثال جورج كعدي لمسنا هذه المضايقات في الآلام العامة والخاصة التي يتبينها القارىء في شعر هذا الشاعر جليّة واضحة ، ولذلك سماه ايليا ابو ماضي (بالشاعر المتألم) مع ان ابا ماضي احق بهذه التسمية من كعدي لكثرة شكواه من دنياه ، وبرمه بالحياة كما يصفه المقربون اليه ، وهو خلاف لظواهر شعره الدال على التفاؤ ل وهدوء البال ، وتجاهل مرارة الحياة وآلامها .

وفي تسمية أبي ماضي للكعدي (بالشاعر المتألم) كان أبو ماضي يقول : « ان النفس التي لا تتألم لا جمال فيها » في حين أن الرسائل التي كان يكتبها ابو ماضي لجورج كعدي كانت مشحونة بالشكوى ، مليئة بالتألم من الحياة واوضارها ، وحوادثها المريرة

مكتبة الجواد بن العباء
مؤسسة السيدة بنت الحسين

الشبستاني
تأسست سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م
خير الكاظمية - العراق

حتى لقد خاطب الشاعر القروي (ابا ماضي) على اثر كثرة شكواه قائلاً :

ان تكـره الشكـوى أزل اسبـابهـا لا يسكت الجـوعـان حتى يـطعـما

وكان أبو ماضي يقول :

ان الـتـأمـل في الحـيـاة يـزيـد آلام الحـيـاة

ومع ذلك فان شعر ابي ماضي يكاد يكون خالياً من الشكوى ، ومن التألم والسأم ، والآهات ، والحسرات .

ووصف الادباء جورج كعدي باوصاف كثيرة غير وصفه (بالشاعر المتألم) الذي وصفه به ابو ماضي ، ومن تلك الأوصاف وصفه (بشاعر صنين) و (الشاعر الكعدي) و (البدوي التائه) وغير ذلك من الأوصاف والنعوت .

- ٤ -

بدأجورج كعدي يتحسس آلام الحياة في (لاباز) أكثر ، لأن تأمله في الجوانب الواسعة من الحياة ، وزواياها المظلمة المجهولة هنا كان أكثر وأكبر ، فنفث هذا الشعور والتحسس في قصائده التي عبرت عن مختلف نزعاته كعربي مؤمن بالعروبة ، وكانسان مؤمن كل الأيمان بالمثل الأنسانية ، في محيط بعيد عن احساسه ، غريب في طبيعته وتقاليده،فزاد شعوره بالغربة ، وحنينه الى موطنه ، وعبر عن ذلك بمثل قوله :

وافـظع مـا القى من البـين انني اعيش بهـذا القفـر كـالقفـر نفسـه

ومثل قوله :

طـويت جناحي وانـزويت بـوحـدتي كـأني حيّ ميّت يسكن الـرمـسـا

فلا غرو ان اتخذ من الشعر متنفساً له ، ولا غرو ان أكثر من هذه القصائد التي تعبر عن أحاسيسه نحو بلاده ، ونحو فلسطين بصورة خاصة ، وصبّ الكثير من جام غضبه على الأستعمار والمستعمرين ، وقد طبع من شعره ديوانان بجزئين باسم (الكعديات) قدم لهما الأديب المحامي (كعدي فرهود كعدي) تقدمة هي من الأيجاز البديع آية من الآيات ، جاء في بعضها عن هذا الديوان قوله :

« . . . وفي الديوان ثورة على الفساد ، والظلم والأضطهاد ، والأستعمار . وهل حرّر الأمم شيء مثل ثورة الأقلام الحرة» .

«وقلّ ان تخلو قصيدة من قصائد الديوان من تنفيس عن الانسان في الله ، وعن

الله في الأنسان ، وهل الأنسان الا المحور الذي يدور عليه الادب ؟ وان الأدب الذي لا يهدي الى معرفة الله ليس بأدب .

« وتنبع من الديوان عروبة أصيلة ، ووطنية صادقة ، فالشاعر عربي في قلمه ، ولسانه ، وقلبه ، ودمه ، وروحه ، لم تقصه الخمس والأربعون سنة التي صرفها في الغربة عن حبه لاوطانه فاسمعه ما يقول عنها :

اشتاق جنات الشآم وأهلها واذوب تحناناً الى لبنان »

وقد كتبت هذه المقدمة قبل وفاة جورج كعدي بسنتين :

وفي حنين جورج الى لبنان يقول :

انا ان هجرتك مرغماً فالقلب باق في الصرود
فلكم ذرعت فضاءها ولكم هجعت على النجود
متنقلاً كالطير حراً فوق اغصان الوجود
عجباً وانت الحر ترسف بالسلاسل والقيود

وكانت فلسطين شغله الشاغل وقد كثر قوله فيها ومنه :

فإن اضعتم فلسطيناً فعيشكم طول الحياة ، مضاضات وآلام

وكان ابو شادي ، من المعجبين بشعر جورج كعدي ، كل الأعجاب بحيث طالما اشار إلى ذلك في مختلف المناسبات وتمنّى ان يتقدم جورج بطبع ديوانه ، وكان ان تقدم جورج بطبع هذا الديوان ولكن أبا شادي كان قد فارق الدنيا وانتقل الى دار الأخرة ، ولم يتأت له ان يرى الديوان ، وكان جورج قد جاء الدكتور صلاح الدين المنجد يقول له : لقد علمت عن طريق صديقي جورج صيدح لما للخليلي عندك من محبة ، وانا أريد ان استغل هذه المحبة بصفتي صديقاً حميما للخليلي فاعهد بديواني هذا اليك وكل ما ابتغيه هو اشرافك عليه ، ورعايتك له ، ولا أبالي بعد ذلك بما يكلف من نفقات ، واستجاب له المنجد ، واولى الديوان اهتمامه ، فصدر منه جزآن باتقن طبع ، واجمل إخراج ، وأغلى ورق ، والجزءآن وان لم يخلوا من بعض أغلاط مطبعية ، فإن عناية الدكتور المنجد في محاسبة المطبعة ظاهرة فيهما ، وقد خصص جورج كعدي هذين الجزئين للمنظمة الفلسطينية باستثناء بعض النسخ التي اهداها الى عدد من اصدقائه .

- ٥ -

ومن حسن حظي ، ولا أدري فقد يكون من سوء الحظ ان احلّ من نفس كعدي اسمى محل وأعزه ،فتـــرك فقده في نفسي أثراً عميقاً من الحزن، والجزع ، والأسف ، فقد كان يكتب لي كثيراً ، ويتحدث اليّ بكل هواجسه ، وكل ما يعرض له ، ويهمه امره ، وأنا أبادله الرسالة بالرسالة دون تأخير ، وكثيراً ما كان يقول لي انه يجد في رسائلي كل ما تفتقر نفسه اليه ، ولا بد ان يكون كذلك اذا لم ننس ما قلناه عن (لاپاز) وبيئتها الغريبة الموحشة لشاعر مثل كعدي ، ولعل تواضعه كان يحمله على اعتبار بعض رسائلي واقوالي بمثابة النصائح ،والمواعظ، في حين انها لم تتجاوز حدود التسلية وتهدئة الخاطر المألوفة ، وقد كتب لي مرة يقول :

« . . . وانني اشكرك على النصائح التي تقدمها لي مجاناً ، وقبل هذا وفي الأزمنة القديمة عند العرب كان ثمن النصيحة الواحدة جملاً واحداً فليت شعري بكم جمل انا مدين لك » ؟

وكثيراً ما كان ينهى رسائله بهذا القول :

« أكتب لي عندما لا يكون لديك احسن من الكتابة الي » وهذا دليل على غاية التواضع والأدب، والخلق الرفيع .

وحين صدر كتاب المحامي كعدي فرهود كعدي (ميخائيل بين قارئيه وعارفيه) - وميخائيل نعيمة هو ابن عمّة (كعدي) كما مرت الأشارة ،- كتب لي جورج كعدي - ولم أكن حينذاك قد قرأت هذا الكتاب بعد - لقد كتب لي جورج عن ميخائيل نعيمة يقول :

« ميخائيل نعيمة ، هذا الرجل نسيب لحّ لنا ، ولكنه أناني الى آخر حدود الأنانية ، يعتقد انه الكاتب الوحيد على هذه الأرض ، وان على الناس ان يحملوا المباخر والمجامر تمجيداً له ، وتعظيماً لمقامه ، وهو لا يقرّ لاحد بالألمعية ، فطه حسين عنده كاتب سطحي ، وشوقي شاعر من حقه (ان تصفعه) وهو كثير المتناقضات في كتبه ، فما يؤيده اليوم ينقضه غداً ،وهذا ليس بالتطور، فالفيلسوف والاديب يجب ان يكون صاحب رسالة ، وهدف ، ودريئة ،وان يكون ربيئة قومه في معضلاتهم ، وهو في كل كتاباته يحمل على التراث العربي ولا يعترف له بفضيلة واحدة اصلاً ، فالمتنبي ليس بشاعر ، وأبو العلاء ممخرق (رقم اول) وقد فات هذا الرجل ان الأمم لم تلد بعد

شاعراً بعبقرية المتنبي ، ولم تعط فيلسوفاً عربياً متحرراً كأبي العلاء ، والنبي العظيم محمد (ﷺ) ـ وكلمة ﷺ هذه مكتوبة بقلم جورج نفسه ـ اية أمة اعطت (للأمم) امثاله ، ولكن (النعيمي) شعوبي يكره كل ما هو عربي، وهو يعتقد عقيدة التناسخ ، وهذه عقيدته بالية مدوّدة،وهو ابشع قدوة للشباب العربي المتوثب لاعادة مجد امته القديم ، أليس ذلك كذلك ؟ وانا لا انكر ان (للنعيمي) اسلوباً ساحراً جذاباً ، ولكن هذا ليس فيه كفاية لان يكون كاتباً عبقرياً » !!

وعلى اني اخالف جورج كعدي ومن ذهب مذهبه في نفي العبقرية من ميخائيل نعيمة فإني قد افدت من رسالة جورج هذه ما زاد عقيدتي بإيمان كعدي بعروبته وتقديسه النبي محمداً (ص) بصفته العبقري الفذ المصلح ، واعتزازه بالتراث الأسلامي ، والتراث العربي ، ولما اتيح لي أن اقرأ كتاب (ميخائيل نعيمة بين قارئيه وعارفيه) آمنت برأي المحامي كعدي فرهود كعدي في ابن عمته ميخائيل نعمية فيما يختص بالفلسفة ،وسجلت رأيي هذا في مقال نشرته مجلة (العرفان) وقرأه جورج كعدي في بوليفيا ، واثنى عليه .

وكان جورج جد معجب بالأجزاء الأربعة من كتابي (هكذا عرفتهم) وكان يقول : انه طالما رجع اليه وقرأ الكتاب بأجزائه الأربعة غير مرة حين لم يجد ما يقرأ مفضلاً اياه على غيره مما لديه من الكتب؛ ويبالغ في أقواله هذه كثيراً ، وكان يتتبع اخباري فيما يقرأ احياناً في مجلة (الأديب) على الأخص ، لذلك كان لتعزيته لي بوفاة اخي (عباس الخليلي) ثم بوفاة زوجتي اثر كبير في نفسي ، وكان لمباراته لقصيدة السيدة الشاعرة (ام خلدون) عقيلة العلامة عجاج نويهض في حفلة تكريمي المنشورة في مجلة (الأديب) اثر بليغ آخر في نفسي يدعوني الى نقل هذه المباراة هنا لا على سبيل الأعتراز ـ وان لم يكن في ذلك من بأس ـ وانما انقل هذه المباراة بصفتها صفحات من أفكار جورج كعدي ،وآرائه ،وعقيدته الوطنية ، وايمانه بالعرب ، وتقديسه الأسلام ـ وهو مسيحي مؤمن بمسيحيته ـ وكقصة تربط بين كعدي وبيني انا ، وبين ابي خلدون عجاج نويهض ، وعقيلته ام خلدون احدى رائدات الشواعر اللامعة ، فقد جاء في عدد يوليو من سنة ١٩٧٤ من مجلة (الأديب) البيروتية ما يلي :

« كان الأستاذ الجليل سالم الألوسي ـ مدير الثقافة العام ـ والأمين العام لمعهد الوثائق العربية ببغداد ، قد أقام لجعفر الخليلي حفلة تكريم في بيته بمثابة يوبيل ذهبي

بمناسبة مرور أكثر من خمسين سنة على مزاولته الكتابة والتأليف، والأدب ، ثم اعقبه الاستاذ فؤاد عباس المفتش العام بوزارة التربية السابق فاقام هو الآخر للخليلي حفلة تكريم اخرى بهذه المناسبة- واعقبها الشاعر طالب الحاج فليح بحفلة اخرى - وقد ساهم الكثير في هذه الحفلات بالشعر والنثر ، وتلقى الخليلي عدداً من الرسائل والقصائد - حين نشر خبر هذا التكريم - وهذه قصيدة للسيدة الشاعرة الأديبة (ام خلدون) عقيلة العلامة المؤرخ عجاج نويهض ساهمت بها هي الأخرى في هذا التكريم ، وتطرقت الى بيت (الخليلي) الجديد الذى انتقل اليه أخيراً، والى بناته الثلاث، وحفيده (بشار) .

« والسيدة ام خلدون من الشواعر الالمعيات في الطليعة ، وعلى الرغم من انشغالها بمهمات بيتها الذي يعتبر محجاً لكثرة زواره من العلماء ، والأدباء الوافدين على لبنان - فضلاً عن اللبنانيين انفسهم - فإنها غير منسية كشاعرة من كبريات الشواعر ورائدة من رواد أدب المرأة اللبنانية المثقفة ، واننا ننشر هنا قصيدتها، وننشر ردّ الخليلي عليها » .

تقول أم خلدون : تهنئة وتحية للأديب الكبير ، الأديب والأخ الكريم جعفر الخليلي وكريماته الثلاث :

أأبا الفرائد والخرائدْ ... وابن المكارم والمحامدْ
وأخا المروءة والوفاء ... وحامل القلم المجاهد
ومصوّر الأخلاق والعادات ... في شتى المقاصد
يوبيلك الذهبي يوم ... في الورى باق وخالد
خمسون عاماً والسيراع ... يصوغ للفصحى قلائد
خمسون عاماً للكتاب ... وللبحوث وللقصائد
ولقصة الأجيال والأيام ... والمثل الأوابد
يا رافع (العتبات) ... للشرفات في فردوس عابد
تاريخ أمتنا المجيدة من ... سخائك بات رافد
بيت يجاوره الأمان ... مبارك يا خير والد
هو نفحة المأمون للعلماء ... في حرم المساجد

للأسرة المثل حتى ولزائر النادي معاهد
(للابتسام) على جوانبه ضياء (الفوز) واقد
يهنيك باللمع (الثلاث)[1] فرائد بين الفراقد
ويحوط الله العرين ودام بالأحفاد حاشد
(بشّار)[2] رائدهم الى الرحبات يا نعماه رائد
ان خلّد الله الأديب تسابقت فيه الموارد.

رأس المتن ـ لبنان أم خلدون

وتقول مجلة (الأديب) : وهذا هو ردّ الخليلي على قصيدة السيدة ام خلدون :

امّ النهى ، بنت الأماجد من طارق خضل وتالد
شمخت علاً حتى اغتدت محسودة من كل حاسد
وسمت بأجواء الفضائل أينه منها؟ عطارد؟
جمعت صفات الأكرمين من المحاسن والمحامد
وحكت (بني معروف)[3] في شرف وفي نبل المقاصد
امّ الكريمات الحسان وزوجة العلم المجاهد
طوقتني ببديع ما قد صغت من درر القلائد
بقصيدة ان انشدت تعنو لها كل القصائد
حسبي من (التكريم) منك بان لي (صلة وعائد)
ويكون (كوخي) كالخورنق لاح في عين المشاهد
وبناتي السمر الثلاث بعين عطفك كالفراقد
كرم ، وما ماز الكريم الأقربين عن الأباعد
وسجية موروثة من بيت والدها فصاعد

---

(١) تعني الشاعرة بناتي الثلاث : فريدة ، وابتسام ، وامتثال

(٢) اما بشار فهو حفيدي الوحيد .

(٣) بنو معروف هم الدروز ، والسيدة ام خلدون من اشرف بيوتات هذه الطائفة العربية الاصيلة التي جمعت كل خصال العرب الكريمة من الشجاعة ، والكرم ، وطيب المحتد .

انـا ان أكـن قـد خـانـني نـطقي ، فـما للفضـل جـاحـد
فـالخـرس تـغـنـيـنـا الإشـارة مـنـهـم ، حـداً لحـامـد
بغداد ـ كرادة مريم جعفر الخليلي

وفي الجزء المؤرخ بديسمبر سنة ١٩٧٤ من مجلة (الأديب) جاء ما يلي :
يا صاحب الفكر الشوارد

مقدمة الى أخي الذي ظللني بجناحي صداقته : مؤلف (موسوعة) (هكذا عرفتهم) الأستاذ جعفر الخليلي ، مجاراة لقصيدة الشاعرة المبدعة السيدة ام خلدون نويهض .

يـا صـاحـب الـفـكـر الـشـوارد ومـنـظم الخـرد الـفـرائـد
ومـرقص الـروض الأريض بـنـشـره الـصـافي المـوارد
وبـشـعـره فـتـن الـنـجـوم وهـزّ اعـصـاب الـفـراقـد
وبـنى عـلى مـتـن الـسـهى بـيـتـا دعائمه مـحـامـد
زحـم الـنـجـوم وصـاغ مـن انـوارهـا شـرد الـقـصـائـد
شـعـر مـن الأدب الـرفـيـع مـعـطر الأنـفـاس خـالـد
وارى الـعـروبـة سـلمـتـك لـواء صـنـديـد مجـاهـد
هـي امّـنـا أكـرم بـهـا ام المـنـاجـيـد الأمـاجـد
صـدّت حـوادث دهـرهـا فـكـأنها رصـد بجـالـد
ومـشـت عـلى هـام الخـطوات ولم تـلن يـومـاً لحـاقـد
ومـضـت تـثـبـت مجـدهـا ثـبـت الـدعـائـم والـوطـائـد
وتـنـاجـز المـسـتـعـمـريـن نـفـاقـهـم عـنـد الـشـدائـد
بـاعـوا ضـمـائـرهـم بـفـلس لـلـصـهـاينـة المـنـاكـد
ونـسـوا بـانـا أمـة رغـم المـصـائـب لا تـهـاود
ولهـا الـفـخـار تـلـيـده وطـريـفـه والـفـكـر مـارد
ولهـا مـن الأسـلام مـعـتـصـم ونـبـراس وقـائـد
فـاصـبـر سـنـرجـع مـا اسـتـبـاح الـعـلج مـن أرض الأمـاجـد

فالحق لا يعلى عليه ولا يميت الحق فاسد
هذي حقائق لا تبدل قام عنها الف شاهد
ان العروبة لن تذل وفي الحمى شعب مجاهد
لاپاز ـ بوليفيا جورج الكعدي

وقد بعث لي جورج كعدي بنسخة من هذه القصيدة وقال انه نظمها وهو طريح الفراش في المستشفى وبعث بها الى مجلة (الأديب) مجارياً قصيدة السيدة أم خلدون .

وكانت رسائل جورج لا تخلو من ذكر الأدباء وقلما كان ينسى ذكر جورج صيدح ، وذكر المحامي كعدي فرهود كعدي ، وعجاج نويهض ، وكان في اغلب رسائله يحثني على زيارة قريبه كعدي ان انا قصدت لبنان في الصيف كالعادة ، والى هذا الحث يرجع الفضل في تعرفي بالمحامي كعدي وتمتعي بصداقته ، اما عجاج العلامة المؤرخ فقد نعمت بصداقته منذ سنين طويلة ، وانا مغمور بألطافه والطاف السيدة الأخت الشاعرة عقيلته ،ولـي ذكريات عذبة تحت ظلال شجرة الصنوبر الوارفة الظل في بيته ، وطالما نعمت بالطاف الأسرة تحت هذه الشجرة وتلذذت بشرب الشاي معهم ، والأستماع الى ذكريات ابي خلدون عن أيام صباه وشبابه ومن تعرف بهم في حقل الدراسة بمدرسة سوق الغرب، ومن زاملهم بعد التخرج، وعمل معهم في فلسطين ، والأردن ، وسوريا ، والعراق ، وهي ذكريات تجمع بين التمتع بلذة القصة ،ومعرفة الرجال ، والكشف عن الحقائق التاريخية في القضية العربية التي ينفرد بها ابو خلدون لمشاركته فيها ومعرفته بأسرارها .

وتعرفت بالمحامي كعدي كعدي اول ما تعرفت فاعجبني منه تمسكه بالمثل الأنسانية ، وجرأته في حجة الدفاع عن الحق امام المحاكم ، وشاهدت مرة اندفاعه بحماس وحرارة في قضية دعوى اقامها زوج على زوجته وقد اعتذر جميع المحامين عن قبول التوكيل عن الزوج لأن الزوجة كانت بنت نقيب المحامين ، واعتذارهم عن الدفاع اما محاباة لابيها أو تهيباً منه ، او مراعاة لمصالح خاصة بهم ، اما كعدي فقد قبل التوكيل، ورفض الأنصياع لرجاء الراجين ، بترك الدعوى ، وهو يعدّ التخلّي عن التوكيل اخلالاً بواجب المحامي مادام يعرف ان صاحب الدعوى محق في دعواه .

- ٦ -

وإلى جانب عذاب جورج كعدي الروحي بسبب غربته وشعوره بالوحدة في بيئة بعيدة عن المشاعر الأدبية والوطنية كان المناخ يهدد صحته في كل موسم من مواسم الشتاء القارص ، ويزيد هذه العلل الصحية كون الأكسجين في (لاپاز) يقل عما يجب ان تستنفده حياة الأنسان والحيوان ، لذلك لا يطيق العيش هـنا الا الذين اوتوا نصيباً وافراً من تكوينهم الجسمي التام ، اما جورج فقد كان ضعيف البنية كما مرت الأشارة ، لذلك صار يعاني بصورة تكاد تكون دائمة آلاماً حادة ، وتنتابه بين فترة واخرى عوارض لا يتغلب عليها الا بدخول المستشفى وإجراء عمليات معينة ، حتى بلغ عدد ما أجريت له من عمليات في سنين اقامته (بلاپاز) ٢٨ عملية !! بينها عمليات خطيرة ما كان ينتظر النجاة منها . وكل هذا وهو صابر يغالب هذه العوارض والانفعالات الروحية بما عرف عنه من جلد ، وان امتلأ شعره بالشكوى مما يشعر به من عذاب الروح ، واعتلال الجسم ، ومع ذلك فقد يستبين القارىء من شعره جلده هذا، وتصبره ، وشجاعته في تقبل عواصف الزمن ، افليس هو القائل :

اعصفي بـالهمـوم مـا شئْـت اني ثـابت الجـأش لست أخشى وعيـدا
واثـتني بـالهمـوم فـالـقـلب مـني صقلتـه القيـون صلبـاً حـديـداً

بل كثيراً ما يقول عن امـراضه : « ان هذه الأمراض نعمة من نعم الله تذكرنا بتفاهة وجودنا على هذه الأرض، واننا ظلال عابرة » .

وفي سنة ١٩٦٩ اضطر لاجراء عملية قطع بسببها الأطباء عصب السماع من أذنيه فصكتا ، ولم يعد يسمع ،فاضيفت الى تلك المحن التي امتحن بها محنة اخرى ، فاقتصر التفاهم معه على الكتابة ومع ذلك فقد كان يسمع قليلاً اذا ما علا صراخ محدثه .

وكان يلح عليه الأقربون وعلى الأخص المحامي كعدي كعدي ، وزوجته بوجوب تصفية اعماله في (لاپاز) والعودة الى بسكنتا موطنه الذي هاجر منه ، لا سيما وان ما بقي لديه مما ملك من بضاعة ومدخر يكفي لأن يضمن له عيشاً وان لم يكن رغيداً

كل الرغد فإنه لن يدعه محتاجاً لشيء ، ولهذا زار لبنان مرتين ليختبر الحياة هناك ، ويرى عن كثب كيف يمكن ان يعيش اذا ما اراد ان يعود من غربته ، وكان قد بعث بابنته لتكمل دراستها العليا بلبنان وتتقن لغتها العربية ، وتتعرف بالبلد كما ينبغي ان تتعرف به حين يعود ابواها الى ديارهما .

وفي المرتين اللتين زار بهما لبنان اصيب بشيء غير قليل من الخيبة وذلك بسبب ما وجد من اختلاف كلّي بين طباعه التي تطبع عليها وبين هذه الطباع التي تطبعت عليها لبنان ، فرجع مصمماً على الأنصراف عن فكرة الرجوع الى لبنان نهائياً ، ولكن العوارض الصحية عادت تهدده بين فترة واخرى مما اضطر نسيبه كعدي كعدي المحامي الى ان يلح عليه باعادة النظر في امر العودة الى لبنان ، وقد كتب لي كعدي كعدي يطلب مني ان ابذل قصارى جهدي في اقناع جورج بالعودة ، فقد بلغ السيل الزبى ، وتجاوز عمر كعدي الستين ، وليس من الراجح ان يعيش بعد هذا في تلك البقعة النائية غريب الروح ، عليل المزاج ، والبدن .

وكنت مقتنعاً برأي كعدي كعدي ، فكتبت لجورج ملحاً باستجابة دعوة نسيبه كعدي ووجوب عودته الى لبنان ، فألفيته من رده على رسائلي جازعاً كل الجزع من لبنان ومما لمسه بنفسه في الزيارتين اللتين قام بهما وهو يقول : ان لبنان قد تغير ، ولم يعد لبنان السابق الذي يعرفه من قبل « وان أكثر ما ينفّر الزائر هو لؤم القوم واحتيالهم ، و (نصبهم) ، و (تبليص) الناس من أموالهم ، فهناك أناس ، يستخرجون (جوربك) من قدميك دون ان يمسّوا حذاءك !! وهذه لعمري بدعة في ابتزاز اموال الناس لم يرو لنا التاريخ لها مثيلاً ، وقد زرت لبنان مرتين فلقيت هناك عنتاً ، وارهاقاً . . » .

وعدت أحسّن له العودة ، والحّ عليه بأن يترك لزوجته أمر تصفية اعماله ويدعها تلحق به ولو بعد سنة ، في حين يمهّد هو لنفسه ولأبنته التي تدرس في بيروت البيت ، والأثاث ، وما يحتاجون اليه ان اجتمع شملهم .

ووجدت فيه بعد طول الالحاح في مراسلاتي شيئاً من الأنصياع حتى كتب لي

يقول : إنه سيجرب ولكنه « يحاذر هناك ـ اي في لبنان ـ من كل شيء ، لأن المادة قد افسدت الشعب اللبناني بعد ان كان من اشرف الشعوب ، ولكني سأستنصح برأيك ، وأعزم على السفر ان شاء الله » .

وتلقيت بعد ذلك رسالة منه يقول فيها : لقد تمّ كل شيء وسيسافر قريباً وسيمر بباريس ، وانه كتب لجورج صيدح المقيم بباريس ليساعده في دخول احدى المستشفيات لأجراء كشوف عامة ، وفحوص صحية دقيقة قبل توجهه الى بيروت .

واسرعت بالكتابة له بأن يصرف النظر عن المرور بجورج صيدح لأن(صيدح) ليس على حال جيدة من حيث ضعفه واعتلال صحته ، وزودته بوصية للأستاذ عزيز الحاج ممثل العراق في مؤسسة اليونسكو ، واخرى للشاعرة لميعة عباس عمارة الملحقة بالسفارة العراقية بباريس حينذاك ليعيناه في مهمته ، ولكنه عدل عن رأيه في المرور بباريس ، وطار رأساً الى بيروت عن طريق لندن .

وفي شهر آب من هذه السنة اعني سنة ١٩٧٥ كنت اقضي الصيف في لبنان كالعادة ، وكان لا بد لي من زيارة المحامي كعدي كعدي حين يتم لي النزول من مصيفي الى بيروت ، وفي هذه المرة ازداد المحامي كعدي في الحاحه عليّ بالخروج معه الى (بسكنتا) لقضاء بعض الأيام عنده لا سيما وانه كان قد خف عمله بسبب عطلة المحاكم ، وحين رآني احاول التخلص من الدعوة جرياً على عادتي في كل سنة ، قال لي : انك لن تستطيع التفلت مني في هذه المرة لأن هناك (ببسكنتا) صديقاً عزيزاً ينتظرك ويرغمك على استجابة دعوتي وهو جورج كعدي الذي وصل منذ عهد قريب ، وهووان كان ينزل في احد فنادق صنين فإنه لا يفارق بيتنا في جميع الأوقات .

وبشوق لا مزيد عليه استقللت سيارة المحامي كعدي من بيروت الى بسكنتا ، وكلي لهفة لرؤ ية هذا الصديق الشاعر ، والوطني الصادق ، والأنسان المتصف بكل المزايا الأنسانية ، والمسيحي الذي لا يفرق بين المسيحية والأسلام ، ما دام هدف الدينين الأصلاح والمحبة ، وهما المبدئان اللذان يلتزم بهما جورج كعدي كل الالتزام ،

وكرمني المحامي كعدي فرهود كعدي في بيته ، وعنيت بي الأخت الكريمة ربة البيت عقيلته ، واحتفى بي ابنه (انطوان) وكريماته ، واصهاره ، وأروني من المحبة ما زاد على محبة اهلي واسرتي .

وللمحامي كعدي بيت جميل ببسكنتا ، وبستان كبير يسدّ كل حاجات البيت طوال السنة من الفواكه والخضر ، والنبات ، واملاك اخرى ، وكنت كلما سألته عما كانت تقع عليه عيني من البناء والعمارة ، والبستان ، والشجر وغير ذلك فأقول له : ألك هذه الأرض أيضاً يا أبا طوني ، ؟ فيجيبني : انها لله ، ثم يزيد فيقول وكل ما يقع تحت عينيك هنا من بناء وشجر وسيارات وأثاث فانه لله تعالى وليس لي منه شيء .

وأرسل بإحدى سيارتيه الى فندق صنين الذي لا يبعد الا خمسة كيلو مترات عن بسكنتا ليبشر جورج كعدي بوجودي هنا ولينقله الينا .

وجاء جورج كعدي ، وتعانقنا طويلاً ، ولم أنس تلك الفرحة التي غمرتني واثلجت صدري ، فلقد وجدت فيه أكثر وأكثر مما كنت قد لمست في رسائله وشعره من الخصائص الأنسانية ، والطيبة والوداعة ، وطال جلوسنا على مائدة العشاء ، كما طال أمد سهرتنا التي اتسعت فيها الأحاديث الأدبية والشعر ، وشرح الأحوال ، وجاء ذكر الكثيرين من شعراء مصر ولبنان والعراق ، وقال لي انه متعطش الى قراءة اشياء اخرى للشاعر الجواهري ، واشياء من شعر الزهاوي لأنه لم يقرأ لهذين الشاعرين الا القليل لعدم وصول الصحف العراقية اليه ، فوعدته اذا ما عدت الى العراق فسأبعث له بدواوين الجواهري ، وبما اعثر عليه من مجاميع شعرية للزهاوي .

وقد قرأ علي في تلك الليلة شعراً جديداً قال انه من منظوم السنة الفائتة يعني سنة ١٩٧٤ الذي لم ينشر منه شيء بعد ، وقال انه يهم بطبع الجزء الثالث من ديوانه (الكعديات) في اول فرصة مواتية ، اما في هذه السنة وهو يعني سنة ١٩٧٥ فإنه لم ينظم فيها ولا بيتا واحداً .

-٧-

أما مسألة عودته الى لبنان فقد قال لي انه ندم كثيراً على استجابة دعوتي الملحة واصرار نسيبه كعدي كعدي ، وانه عازم على الرجوع الى (لاپاز) مفضلاً الغربة والاحساس بالوحشة والوحدة على هذه الحياة النكدة التعسة ، مع ان حالة لبنان في اوائل شهر آب كانت طبيعية او شبه طبيعية على الاقل ،ولم يكن هناك ما يكدر الخاطر كما صار الحال بعد ذلك ، وزاد جورج قائلاً انه قد حجز له مقعداً في الطائرة ليغادر لبنان غداً ، ومن حسن الحظ اننا التقينا هنا قبل مغادرتي للبنان بل انها لنعمة كبيرة ان جمعت بيننا الظروف في بيت كعدي كعدي قبل السفر ، ثم افاض في الشكوى مما جرى له هنا وما واجهه من متاعب الحياة في هذه الأيام القصيرة ، وقد وجد ابنته التي كان ينفق عليها بسخاء لتنهي تعليمها العالي كانت قد تركت الدراسة منذ زمن دون علمه والتحقت بأحدى شركات الطيران كمضيفة !! الأمر الذي زاد همومه ، وسلب راحته ، وكرّهه بلبنان اكثر ، لأن لبنان كان مصدر الفساد كما قال ، وان ما يقع اليوم في لبنان من التفلّت والخروج على الأستقامة والأخلاق لربما كان أكثر مما يقع في أكثر البلدان تحرراً وتفلتاً .

وسعيت انا على قدر الأمكان في حمله على تناسي الأمر وتجاهل امر ابنته والأعراض عنها كأن لم تكن له ابنة ، ولم يكن هو أباً ، وقضيت شطراً من تلك الليلة وانا أطيّب خاطره، واروي له ما يحضرني مما يناسب هذه الحال ، واحثه على الأهتمام بنفسه على قدر الأمكان ، وكان في صحة جيدة ، وعافية مشهودة بدت لي من اقباله على العشاء بلذة ، ومشاركتنا في تناول الأصناف التي أعدتّها عقيلة كعدي من الطعام بشهية ، ومن أحاديثه عن الأدب والأدباء والشعر والشعراء في المهاجر الأميركية وما كنا نجهله من حياة من نعرف منهم من الشؤون الخاصة ، ثم تقدم بالتماس الى نسيبه كعدي فرهود كعدي ـ وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير ـ بأن يأذن له باستصحابي الى فندقه لنقضي انا وهو بقية الليل بالسمر، لا سيما وان هذه آخر ليلة لي وله هنا واضاف قائلاً : « وقد لا نلتقي بعدها » ولكن كعدي كعدي أبى كل الأباء وصار جورج يلح وكعدي يمانع حتى اذا أحس جورج باليأس التجأ اليّ لكي أؤيّد رأيه ، واعينه في تحقيق رغبته ،

وانا ضيف كعدي ـ والضّيف مطية المضيف يقودها حيث يشاء كما يقول المثل الفارسي ـ ومع ذلك فقد أيّدت رأيه في الذهاب معه ، ورجوت من مضيفي كعدي ان يسمح لي بالذهاب معه وقضاء بقية هذه الليلية بفندق (صنين) ، ولكن مضيفي اشتد في إبائه ، وكان قاسياً، أو شبه قاس في ردّ رجائه ورجائي ، وليس من تفسير عندي لذلك غير اعتزازه بي والمبالغة في تكريمي .

واصبح الصباح وعدت انا الى بيروت ، وعاد جورج الى (لاباز) وهو جد ناقم على لبنان ، وحزين على تفلّت ابنته ، وخروجها على تقاليد الأسرة ، وانقطائعها عن الدراسة العليا .

كان هذا في شهر آب من سنة ١٩٧٥ ، وفي اواخر ايلول من نفس السنة عدت انا الى بغداد ، وتركت لبنان تعاني الأمرّين من الفتنة التي عاثت بها سالكاً الطريق الملتوية المعوجة من سوق الغرب ؛ الى شملان ، فبشيمون ثم النزول الى المطار ليلاً تجنباً للحوادث يقلني بسيارته صديق له بين الفدائيين مكانة ، ومقام .

وفي بغداد جمعت له من دواوين الجواهري ومن مجاميع شعر الزهاوي ما استطعت وبعثت به اليه في البريد المسجل ، وكتبت له رسالة ضمنتها احاسيسي وشعوري بتلك السعادة التي حظيت بها في تلك الليلة بدارة الصديق كعدي فرهود كعدي ، ودعوت له براحة البال .

- ٨ -

وبعد أيام قليلة تلقيت من عقيلته السيدة (مرغريتا) الرسالة التالية :

« . . . جعفر الخليلي

« لدي الآن تحريرك اللطيف المؤرخ ١٩/١٠/١٩٧٥ ولكن يا للأسف فعند تسلّم تحريرك كانت وطأة المرض شديدة جداً على عزيزي جورج ، ولم تمض الا ساعات حتى رزئنا بوفاته ، ولم تنفع معه مهارة أشهر الأطباء لنجاته ، فيا له من مصاب عظيم

هذا المصاب الذي ألمّ بنا ، وكانت وفاته في الثامن والعشرين من تشرين الأول جعل الله لكم من بعده طول البقاء »

لاپاز ـ پوليفيا بكل تقدير لشخصكم

مرغريتا ابزوني

ارملة جورج كعدي

ونعيت جورج كعدي الى جورج صيدح بصفته الصديق الحميم للكعدي فجاءتني من صيدح هذه المرثية والرسالة التي تليها :

نَم يا سميّ ـ لا على الأشواك ... كالأمس ـ بل في قبة الأفلاك

الأنجم الزهراء حولك أهلّت ... بالبلبل الناجي من الأشراك

انت الأصمّ سمعت من اعماقنا ... بالحسّ ما اغناك من اسلاك

عالجت معضلة التغرب عائداً ... متفائلاً للموطن الأفّاك

خاب العلاج فحدت عنه تاركاً ... شيطان شعرك للفم العلّاك

لا داء بعد الآن لا شحناء ، لا ... خوف من الجرّاح والفتّاك

أصبحت في فردوس ربّك آمناً ... مستوطناً عُلّية الأملاك

الوحي طوعك والخيال مجنّح ... فاضحك على الدنيا مع الضحاك

واغفر لقومك إن ذكرت ذنوبهم ... فعقابهم صمت الهزار الحاكي

أما انا هيهات احبس مدمعي ... ولو انني كنت الوحيد الباكي

باريس ١٩٧٥/١١/٣٠ جورج صيدح

أما الرسالة فيقول فيها جورج صيدح :

« . . . ان الخبر الوارد في رسالتك عن وفاة زميلي جورج كعدي أجهز على البقية الباقية من أناتي واحتمالي بعد ان فجعت بنعي صديق مصري ، أولا هو (اسعد حسني) ثم بنعي الأخ الدمشقي (وجيه الخوري) مؤخراً ، لطمات ثلاث متتابعة دوختني ، وبالأخص هذه الثالثة .

وسمّي (الكعدي) لم أعرفه شخصياً بل شعرياً منذ ثلاثين عاماً ، رافقته روحياً في اوجاعه ، واوضاعه المختلفة ، الى ان ابرق اليّ مرة انه عائد الى لبنان عن طريق باريس وضرب لي موعداً للاجتماع في رواق المطار ، وكنت في تلك الأثناء طريحاً في

المستشفى على اثر عملية جراحية ، فلما هتف اليّ لم يجد سميعاً ، ولما عرف عذري غفر لي ، وطارحني بقصائده مراراً ، دامت ذكراه، وليرحمه الله » .

* * * *

كم آلمني موت كعدي وكم شق علي فراقه ؟ ولكن ما الحيلة ، وهذا هو شأن الدنيا نأتي اليها بدون اختيار ، ونغادرها بدون اختيار، وكل ما نقدر عليه حين يفترق بعضنا عن بعض دون رجعة هو ان نذيب أكبادنا فنذرفها دموعاً،واقسم اني بكيت كثيراً ، وكثيراً بكيت ، اما تلك الليلة ، الليلة البهيجة الهنيئة التي احييتها في بيت الصديق ببسكنتا فقد تحولت الى حلم ما أشق مرارته عندي واشد لوعته في نفسي ، جزى الله جورج عما قدم للأدب ، والفضيلة ، والأنسانية من خدمات سيظل يذكرها عارفوها ومن كتب له التعرف بجورج كعدي عن كثب ما داموا احياء .

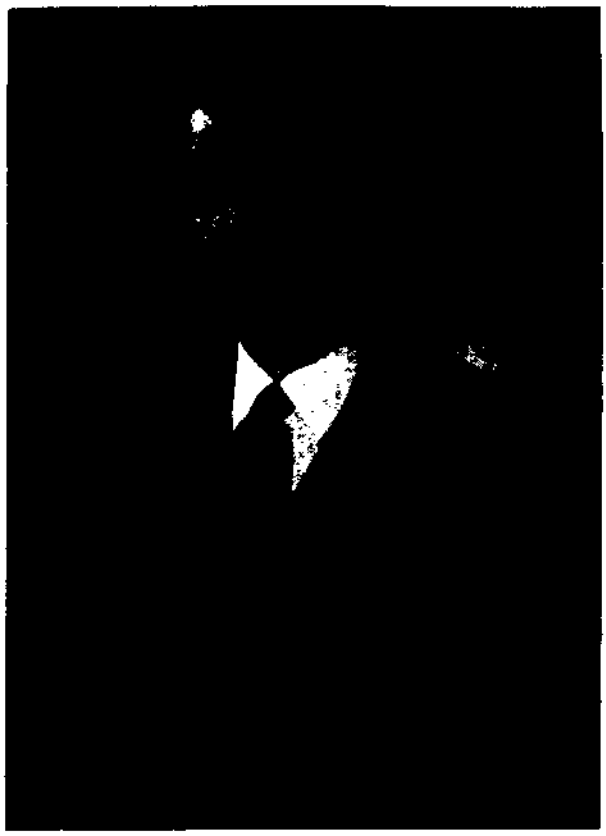

فؤاد عباس

كيف عرفت
فؤاد عباس
١٩١٠ - ١٩٧٦

فيما يقارب اواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وعلى أثر حوادث ومعارك قامت بين القبائل التي تستوطن منطقة جبل حمرين من شمال العراق هاجرت بضعة بيوت ممن ينتمي اليها من ابنائها الى وسط العراق، والى بقعة من البقاع التابعة للواء ديالى (محافظة ديالى) اليوم ، والتي تستسقي من فرع يسمى بنهر الخالص النابع من نهر ديالى، ولم تكن هذه البقعة التي استوطنتها هذه البيوت في ذلك التاريخ شراءاً او استيجاراً او استغلالاً كمزارعين غير جزء من مقاطعة كبيرة تسمى (بدلتاوة) ، وراح الذين يعنون بالبحث عن التاريخ واسباب التسمية للمواقع والبلدان يكثرون من الاحتمالات حتى قال بعضهم ان (دلتاوه) محرَّفة من اسم (دولت اباد) ولكن ذلك لا يركن اليه لفقدانه الادلة القاطعة ، ثم توسعت هذه البقعة ، وكثر سكانها ثم كثر انتاجها من حيث الفواكه ، والزراعة ، واصبحت قصبة يرأس ادارتها قائمقام يرجع في احكامه الى مدينة بعقوبة التي يسكنها المتصرف (المحافظ) اليوم ، ثم تغير اسم (دلتاوه) في السنين الاخيرة ، واطلق عليها اسم (الخالص) نسبة الى نهر الخالص ، وصار ما يتبعها من القرى والنواحي يسمى بقضاء (الخالص) .

وقيل ان للخالص ميزة امتازت بها هي وبعض المدن العراقية القليلة التي يتألف سكانها من الشيعة والسنة ، اذ تكاد الفروق والاختلافات المذهبية تنعدم لحد ما عند الكثير من سكانها ، وان مجالس العزاء التي تقام لذكرى الامام الحسين (ع) في ايام عاشوراء تغص بالسنة والشيعة معاً ، وان الضيوف الذين ينزلون في بيوت السنة يشارك في خدمتهم الشيعة من الجيران والمعارف، وينقلون قدور طعامهم من بيوتهم الى بيوت

جيرانهم السنة ، وهكذا يفعل السنة مع مواطنيهم الشيعة ان حل عندهم ضيف ، ويخفون اليهم ان المت بهم ملمة ، فهم في الفرحة والترحة شركاء واخوان في كثير من الاحيان والصحيح في كل الاحيان .

وانا اعزو السبب الاكبر في هذا الانسجام اذا صح ، الى التزاوج والمصاهرة . ذلك لان نسبة التزاوج بين الشيعة والسنة في الخالص قد تكون اكبر واوسع مما هي في أغلب المدن العراقية على ما يقال ، ولو كانت وزارة المعارف (التربية) قد خصصت في ميزانيتها السنوية منذ العشرينات مبلغا تدفعه منحة كمهر لكل سنّية من المعلمات تتزوج شيعيا من المعلمين ، او شيعية تتزوج معلما سنياً ، كان تزوج في كل سنة مائة معلم ومعلمة او اكثر ، ولو اقتدت بها (بلدية) كل مدينة في كل سنة ، وتبعتها وزارة الشؤ ون الاجتماعية فزوجت عددا من المستحقين على هذا النحو لكان لنا اليوم جيل لا يعرف الكره والحقد الى نفسه سبيلاً ، ما دام اعمام هذا من الشيعة واخوال هذا من السنة او بالعكس ، وهكذا لن يبقى من الطائفية الا العقيدة المذهبية المألوفة بين جميع المذاهب الاسلامية ، اما الحقد ، والنكاية ، والكره الذي طالما شهدناه ، ولمسناه فلن يكون له وجود او أثر في حياتنا ، ومثل هذا يكاد يكون واضحا او شبه واضح عند الكثير من الشيعة والسنّة بلبنان ، وفي بعض الدساكر والقصبات على الاخص ، اما ترك الأمر للثقافة لكي تعمل عملها وتوفق بين الطرفين قامر بطيء وغير مجد على ما اعتقد ، ولقد رأيت انا المرحوم حسين بستانه يكاد يحفظ اغلب مراثي السيد حيدر الحلي في الحسين (ع) والغريب مما رأيته منه انه كان يستظهر الازرية للشيخ كاظم الازري متفكهاً وينشد القصيدة التترية ضاحكاً مع ان حسين بستانه لم يكن من النماذج التي أعنيها .

* * *

واغلب الظن ان تلك البيوت السبعة ، او الأسر السبع الصغيرة التي هاجرت من أصقاع جبل حمرين كان يمت بعضها الى بعض بقرابة ، او شبه قرابة ، او وحدة مزاج ، او مصلحة على الاقل ، وكان فؤاد عباس سليلاً لاحد تلك البيوت السبعة ، وكان جده لابيه المدعو محمد حسن وجها من وجهاء الخالص ، وكان يملك عقاراً وافراً وبساتين مثمرة ، وكانت له ابنة صاهره فيها شخص اسمه (قدّوري) اذا لم تخني الذاكرة وكان (قدوّري) هذا يعمل (ملتزما) كان يتولى هو تحصيل رسوم الحكومة وحصصها من

الاراضي الزراعية والبساتين لقاء مبلغ يدفعه للحكومة العثمانية سلفاً ، فمثله مثل (المقاولين) و(المتعهدين) عندنا اليوم ، والمعروف انه لم يكن لمحمد حسن جد فؤاد ابنة غير هذه البنت التي تزوجها (قدّوري) وكانت جدة فؤاد لأبيه حاملاً يوم توفي زوجها ، وحين عاد المشيعون من دفنه الفوها قد ولدت في نفس ذلك اليوم ولداً سموه عباساً ، وهو والد فؤاد ، ودعي بعد ذلك بعباس حبّابه ، ولا اعرف انا من اين جاءته هذه النسبة ، وكان لا بد لقدّوري ، وهو صهر عباس وزوج اخته ان يكفل عباساً وان يكون قيّماً عليه ، وهكذا كان ، وقد وجد (قدّوري ،) فيما خلف ابو عباس من ميراث خير معين له على توسعة عمله (كملتزم) و (مقاول) و (ضامن) وصار يبيع ويتصرف بالبساتين والمزارع العائدة لعباس حبابه واخته كما لو كان الملك ملكه ، وفرّط (قدّوري) فيما تحت يده فخسر ، وتتابعت الخسارة حتى لم يبق من ميراث محمد حسن الا النزر القليل ، وكان عباس حبابه قد كبر حينذاك ورأى بعينه ، وسمع باذنه اقوال الناس في تفريط صهره بميراثه فنازعه فيما بقي من هذا النزر القليل ، وتم له عزله بمعونة اهل البلد .

ونشأ عباس حبابة نشأة صالحة يساعد عليها انتصار سكان البلد ، والممثل الروحاني الذي وقف في وجه (قدّوري)وتم عزله من(القيمومة)على يديه، فكان لابد لعباس ان يتردد على بيوت اولئك الذين نصروه ، وان يلازم مجلس الممثل الروحاني بصورة خاصة ، وكان لا بد ان تكون بعض الفضائل قد انغرست في ذهنه بسبب هذه الملازمة ولا بد ان يكون قد آمن كل الايمان بالمأثور من اقوال الحكماء القائلين بأن (الحق يعلو ولا يعلى عليه) بعد انتصاره على صهره الذي نازعه طويلاً ، ولا بد ان يكون استعداده الفطري ، وقابلياته الذهنية والادبية ،كانت تتجاوز حدود الاوساط في مدينة الخالص ،ولولا ذلك لما ألف التزام الحضور في مجالس العزاء التي كانت تقام لذكرى الامام الحسين (ع) في المحرم ، ولما حفظ الشيء الكثير من الشعر الذي كان يتلى في تلك المجالس ، وهناك علّة اخرى هي التي كونت في نفس عباس حبّابه هذا الميل للأدب والشعر ، وهو انه حينما كان يتلقى القراءة والكتابة عند أحد الكتاب في هذه القصبة وجد فيه المعلم قابلية تمتاز على قابليات الآخرين ، فراح يشحن ذهنه بطائفة من اجود الشعر والخطب حتى لقد قيل انه كان يحفظ الجزء الاكبر من المصحف الشريف ، ومن خطب نهج البلاغة ، ويحفظ المعلقات جميعها !!

وما لبث عباس حبّابة ان اشتهر بالصلاح الى جانب شهرته بحسن الحديث ، والاستشهاد بالشعر ، حتى صارت الحكومة العثمانية تنتدبه لتقدير ضريبة النخيل المسماة (بالصليان) وتعداد ما تحمل منها ، وتقدير حصة الحكومة من ضريبة الاغنام المسماة (بالكودة) وتعداد رؤوسها ، لكي تأمن به اعتراض المعترضين وشكوى الشاكين ، وتجلب بذلك رضاهم لما اشتهر به عباس حبّابة من الصلاح .

وفي الخالص (دلتاوه) ترك الممثلون الروحانيون الذين كان يوفدهم المجتهدون من الكاظمين للاقامة فيها بقصد ارشاد الناس ، والحكم في قضايا الاحوال الشخصية أثراً أجد كبير على السنة والشيعة في نشر الادب ، وبث الثقافة العربية اذ قلما تنعدم الملكات الأدبية عند هؤلاء الروحانيين ما دامت القواعد العربية هي الدعامة للتفقه في الدين الاسلامي والتوغل في فلسفته وعلله ، وعن هذا الطريق ، طريق الروحانيين ، وطريق خطباء المنابر الحسينية كان ينتشر الأدب ويزدهر في النفوس التي تمتلك القابلية الطبيعية لذلك ، وقد عرفت انا فيمن عرفت من اهل الأدب واثمته في هذه القصبة عرفت الدكتور مصطفى جواد ، وحسين بستانه ، وفؤاد عباس ، وعبد الرزاق بستانه ، وعرفت شاكر حميد ، وكان لشاكر حميد قلم سيال في الكتابة ، وقد صار بفضل قلمه ، لا بشيء آخر ، وبفضل معرفته التي تضع الشيء في موضعه ـ قائمقاماً ، ثم متصرفاً ، واكثر ما عرفت عنه انه كان كثير القراءة ولحد مفرط .

وفي تلك السنوات ـ ايام عباس حبابه والد فؤاد عباس ـ كان ابرز من حلوا في الخالص كوكلاء للمجتهدين ، ومعتمدين للعلماء ، هما الشيخ باقر ، والشيخ جعفر وقد جاء ذكر هذين العالمين الروحانيين في الجزء الثالث من (هكذا عرفتهم) وفي اثناء استعراض حياة الدكتور مصطفى جواد ، فقد جاء عن اسطه جواد والد الدكتور مصطفى جواد الذي عاش ردحا من الزمان في (دلتاوه) لا سيما بعد ان كف بصره ولم يعد يستطيع مواصلة عمله ببغداد كخياط ، لقد جاءفي (هكذا عرفتهم) عنه ما يلي :

« واكثر ما كان يرتاد اسطه جواد في المحلات في (دلتاوة) كانت المآتم الحسينية التي كان يعقدها الناس في المحرم ، وفي المواسم الأخرى ، وكان بيت الشيخ باقر وبيت الشيخ جعفر وهما من العلماء الذين يمثلون المراجع الدينية الكبرى في الكاظمين من اهم البيوت التي يقصدها الناس في كل يوم بصفتها من (الدواوين) العامة المفتوحة

للزائرين ، وكان لهذين الديوانيين شأن في فض النزاع بين الناس وحل المشكلات ، والقيام بالعظة والارشاد ، والسمر بالشعر والأدب والتاريخ ، والتندر بنوادر العرب ، لذلك كان المجلسان مقصد الطبقة المثقفة او نصف المثقفة من مفهوم ثقافة ذلك العصر الذي يقتصر معنى الثقافة فيه على شيء من معرفة الأدب ، وحفظ الشعر والامثال ، وفهم بعض النصوص من الحديث ، والفقه ، وأصول الدين ، والنصوص الادبية » .

لذلك ليس من الغريب ان يتأثر الشخص ، والشخص الذي مثل عباس حبّابة الذي منحته الطبيعة استعداداً فطرياً ، وملكة تساعد على تلقف الادب من الافواه ، ومما يقع في يده من الكتب الأدبية الشائعة في ذلك العصر ، اقول ليس من الغريب ان يأخذ عباس حبابة له مكانة في نفوس عارفيه .

والمعروف ان فؤاد عباس حين كان يعود الى الخالص في مواسم العطل المدرسية يوم كان تلميذاً بدار المعلمين ببغداد كان يقضي ابوه عباس معه او قاتاً في استعراض الملح والنوادر ، والامثال ، والاحاجي ، ويطلب منه ان يعرض ذلك على مدرسيه ان عاد الى مدرسته ويسأل مدرس اللغة العربية ان كان يفهم شيئاً من ذلك .

ولقد ظل في ذهن فؤاد عباس شيء كثير مما كان يحاوره به ابوه او يختبره ومن ذلك قال فؤاد : لقد قال لي ابي ذات مرة : ما دمت تدرس العربية وقواعدها ، وتلقن الشعر بدار المعلمين فكيف تفسر هذا البيت .

وأخجلتها بالعتب حتى تركتها تزيل الثريا بالهلال عن البدر

ومما يذكر فؤاد عباس من ابيه انه سأله ابوه مرة : ترى لماذا قال الشاعر :

أصلّي فما ادري إذا ما ذكرتها أثنتين صليت العشا ام ثمانيا

ولماذا قال الشاعر (أثنتين) ولم يقل غير ذلك ، ولماذا قال (ثمانياً) ولم يقل أقل من ذلك او اكثر ؟

* * *

ولد فؤاد عباس سنة ١٩١٠ في (المربّعة) من محلات مدينة الخالص وتأففت امه عند الولادة وقالت : ليته لم يولد ، لانها خشيت ان تكون نهايته نهاية الاولاد الذين ولدتهم من قبل ، والذين ما كادوا يبلغون الرشد حتى ينتزعهم الموت ، بل لقد عاش احدهم الى حين زواجه ومات وهو لم يزل في عمر الورود ولم يبق لها من الاولاد غير ابنة

تأثرت بروح ابيها الشاعرية فحفظت من الشعر العامي الشيء الكثير ، بل وحتى قالت الشعر العامي وبرعت فيه براعة نسبية ، وهي اخت فؤاد الكبرى ، وقد تزوجها محمد حسن الحاج رشيد فخلفت منه الدكتور فيصل الخالصي المنسوب لمدينة الخالص وليس لاسرة الخالصي الشهيرة في الكاظمين ، وقد عني فؤاد عباس بتنشئة ابن اخته وتربيته حتى تخرج اختصاصياً وباحثاً في (الذرّة) بالاضافة الى نمو قابليته الأدبية ، وكان فؤاد عباس يطلعني على الرسائل التي كانت ترد اليه من الدكتور فيصل وهو خارج العراق ، وقد قرأت له رسائل تفيض بالأدب من الدنيمارك ، والسويد ، وفنلنده ، ومن هذه الرسائل كنت افهم ان فؤاد عباس كان يعامل فيصلا معاملة الصديق الذي لا حجاب بينه وبين صديقه فلم يكن هناك من مانع يمنع الدكتور فيصل من ان يتحدث الى خاله بكل ما كان يمر عليه في ذلك اليوم من المشاهد ، والذكريات الخاصة به والتي جرت العادة عند الاكثرية ان تظل مخزونة في الصدر .

والذي اعرفه ان ليس لفؤاد عباس من الارحام اعمامٌ واخوالٌ ، اللهم الا الأصل الذي ينتمي اليه من تلك الاسر السبع التي هاجرت من حمرين وسكنت هذه البقعة من الارض ، وقد بعدت الشقة بين آباء تلك الأسر وابنائها فلم يعرف احد عن الاباء ومبلغ صلة بعضهم ببعض شيئا سوى انهم ارحام في الاصل من قريب او بعيد .

ومع ان ام فؤاد قد تمنت موت فؤاد في الصغر لتكون فجيعتها به أقل واخف من فجيعتها به لو مات وهو في عنفوان الشباب كما مات لها من الاولاد قبله ، فقد منحته من العطف ، والحنان الشيء الذي لم تمنحه لاحد من اولادها من قبل حتى لقد كانت تحمله على كتفها حين شبّ وتوصله الى المدرسة محمولاً خوفاً عليه من الطوارىء ، وعلى الرغم من ضعف حالة الأب المادية فقد اغدق ابوه عليه كل ما كان يحصل عليه من الاجور عند انتدابه مع المنتدبين الى تعيين رسوم (الصليان) ورسوم (الكودة) وهي مبالغ ضئيلة تكاد لا تفي بالحاجات الضرورية ، ولقي فؤاد من الدلال وعناية الأب به ما لم يلق طفل من اترابه ، فقد كان الابن الوحيد لابويه ، وكانا يعقدان عليه الآمال ، ويرجوان ان يعيش طويلاً ، وان لا يكون مصيره مصير اخوته الذين سبقوه في الولادة .

ودلال فؤاد عباس يبرهن على ان ليس كل دلال يفسد الأولاد ، لأن جبلة الاولاد ليست كلها موحدة او متشابهة ، ولأن الدلال ليس مما يوضع دائما في المحل غير

المناسب ، ثم لان البيت ،والبيئة،ليستا سواء وعلى نمط واحد ، لذلك شب فؤاد وفي شمائله ما ينم عن موهبة ، وحسن سيرة ، وطيب سريرة ، ثم ما لبث ان برز بين طلاب المدرسة الابتدائية في الخالص ، وصار التلميذ الوحيد الذي يقع عليه اختيار المدرسة ليرحب بزوارها من الوجهاء ورجال الدولة . والاكـابر في الخطب التي تلقنه اياها المدرسة وفي القصائد التي تطلب منه المدرسة ان ينشدها امام زوارها وكان له صوت موسيقي جذاب لا حذلقة فيه ولا نبوّاً ، وظل هذا الصوت رتيباً بعيداً عن هذا الصراخ الذي يظن بعض شعرائنا وخطبائنا انه الوسيلة التي تستلفت الانظار فيصرخون في انشادهم باقصى ما يستطيعون ، ويتشدقون بالكلمة ، ويمططون القافية لحد الازعاج ، اما فؤاد فكان في انشاده الشعر والقائه المحاضرة لا يعنيه الا الوقف حيث يجب الوقف ، والا تجلّي الاستفهام والتعجب حيث يقتضي ذلك التجلي ، لذلك كان طبيعيا اذا خطب ، وطبيعيا اذا انشد ، ولهذا كان في القائه الخطب والشعر حبيباً الى النفوس ، تتقبله الآذان بشوق ورغبة .

ومرّ جعفر العسكري بالخالص يوم كان رئيساً للوزارة العراقية ، وكان جلال بابان قائمقاماً يومذاك على الخالص ، فاحتفت مدرسة الخالص بالعسكري ، وكالعادة تقدم فؤاد عباس باسم المدرسة وانشد كلمة ترحيب كان لها وقع كبير في نفس العسكري ، وسأل العسكري عنه ؟ فقيل له انه فلان ، واضافوا على ذلك : انه على رغم ضعف حالته المالية فانه من اوائل هذه المدرسة في صفوفها ، بل هو وجه هذه المدرسة وخطيبها حين تريد المدرسة ان تبرز نشاطها الأدبي لزوارها ، فأمر له العسكري بتخصيص راتب شهري قدره خمس ربيات يتقاضاها من بلدية الخالص بصورة دائمية ، وظل فؤاد يتقاضى هذا الراتب الى ان دخل دار المعلمين ببغداد فانقطع عنه الراتب حينذاك .

* * *

قلت ان للبيئة والبيت اثرهما في تنشئة الشخص وتوجيهه ، فالولد الأمين ، والصادق ، والكريم ، والمثالي ، او العكس انما يكون كذلك فلأن أهل بيته ، ولان من يلتقيه ويجالسه ويلعب معه على ذلك الخلق الكريم أو اللئيم ، ولقد مرت على فؤاد امثلة كثيرة غرست في نفسه من النبل وطيب النفس ، وكرم السجية ما امتاز به على الكثير من

أقرانه ، ومن هذه الامثلة انه حين كان طالباً وفي الصف السادس الابتدائي كان يزامله تلميذ هو ابن أخي معروف جياووك ، وكان معروف جياووك يومها حاكم عدل بمحكمة قضاء الخالص وكان ابن أخيه يقيم معه في بيته ، وكثيراً ما كان يلتقي فؤاداً ويلعب معه في اوقات الفراغ ، وذات يوم وهما يتمرنان في اصابة الاهداف بالبندقية ، ويتخذان من الورق علامة للهدف يثبتان الورقة على النخلة ، فاذا أصابت الرصاصة الورقة وثقبتها عمدا اليها او إلى ورقة اخرى وثبتاها من جديد على جذع النخلة ثم اعادا تجربة اصابة الهدف من جديد ، وذات مرة وفؤاد عباس يحاول تثبيت الورقة وهي لم تثبت بعد دفعت العجلة زميله ابن اخي جياووك إطلاق الرصاصة فاذا بها تصيب عضد فؤاد وتكسر له العضد من غير مكان واحد ويسقط فؤاد على الارض وتنقع ثيابه في نزيف من الدماء ، ويهرب الصبي خوفاً مما قد يصيبه ، وينقل فؤاد الى البيت ، ويعجل باستدعاء الطبيب والمجبّر ، ويلازم فؤاد السرير وقد بنيت يده بالجبس من اعلى المتن الى نهاية الرسغ .

ويبلغ معروف جياووك الخبر عن ابن أخيه ، فيتصل بالشرطة طالبا منها اتخاذ جميع الاجراءات القانونية ضد ابن أخيه وسوقه للمحاكمة في محكمة اخرى غير المحكمة التي يرأسها هو ، وحين حاولت الشرطة القيام بهذه الاجراءات حال عباس حبّابة دون ذلك ، ولقّن ابنه فؤاداً بان يقول انه اي فؤاد كان هو السبب المباشر في وقوع الحادث ، وان ليس لزميله التلميذ اي دخل فيما وقع ، لان فؤاداً نفسه قد وقف في مكان لا ينبغي عليه ان يقف ، وهو نفسه الذي طلب من زميله ان يطلق الرصاص كما لو كان قد تم تثبيت الهدف في مكانه .

وحين رأى معروف جياووك اصرار عباس حبابة على الحيلولة دون اتخاذ الاجراءات واحتساب القضية من قبيل القضاء والقدر، رأى أن من الانصاف ان يتقدم اليه بمبلغ بمثابة الدية المفروضة في مثل هذه الاحوال ، وكم دهش جياووك حين قوبل من عباس حبابة باباء منقطع النظير في قبوله اي مبلغ كدية لما وقع .

وظل أثر هذه الكسور بادياً على عضد فؤاد اذا ما أسفر عن يده ، وبادياً في أصابع كفه يحسّ بها كل من يصافحه حتى طواه الموت .

وكان من آثار هذه التنشئة الصالحة أن فؤاد عباس حين انهى دراسته الجامعية ،

واشتد ساعده في الادبين واللسانين العربي والانكليزي راجعه ذات يوم طارق العسكري ابن جعفر العسكري في ترجمة كتاب من الانكليزية الى العربية ، ويبدو ان هذا الكتاب كان مما يهم طارقاً ويحمله على الحرص بأن تجيء الترجمة صحيحة سلسة بعيدة عن التعقيد الذي كثيراً ما يرافق ترجمة المترجمين ، وقد قيل له أن لا احد يضمن لك هذا غير فؤاد عباس ، وعلى أن طارقاً لم يعرف فؤاداً فقد اتصل به ، واظهر له استعداده بان يدفع له اي ثمن يعينه ان هو قام بترجمة هذا الكتاب .

وحين عرف فؤاد طارقاً قال له الكلمة المألوفة : (غالي وطلب رخيص) واردف فؤاد قائلاً : وسأقوم لك بترجمته مجاناً .

وبين ردّ وبدل ـ كما يقولون ـ فيما يجوز ولا يجوز ، وممكن وغير ممكن ، وان الكتاب كبير ، ويتطلب جهداً كبيراً ، ووقتا غير قصير كما يقول طارق ، قال فؤاد :

ـ انت لا تعرف السبب يا طارق ، ولا تعرف انني مدين لابيك جعفر العسكري بدين لا أدري باية طريقة اردّه اليه ، وقد حانت فرصة بهذه الترجمة لأقوم باداء جزء يسير من ذلك الدين ، والا فانا غير مستعد لا بثمن ولا بدون ثمن لمثل هذا العمل ، ثم قص فؤاد على طارق قضية ابيه العسكري الذي قتل سنة ١٩٣٦ ، والراتب الذي خصصه له يوم كان تلميذاً صغيراً في مدرسة الخالص الابتدائية .

* * *

وأنهى فؤاد عباس امتحان البكلوريه للصفوف السادسة الابتدائية في الخالص ، وانتقل الى بغداد ملتحقاً بدار المعلمين الابتدائية ذات الصفوف الاربعة وقد مات ابوه عباس حبابة وهو لم يزل طالباً بدار المعلمين ، وتخرج فؤاد من دار المعلمين بتفوق سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ وعمل معلماً في عدد من المدارس الابتدائية . وعند البحث عن المتفوقين من خريجي الثانوية ودار المعلمين لانضمامهم الى البعثات التي تبعث بها وزارة المعارف (التربية) كان فؤاد ضمن الاشخاص الذين اختيروا لارسالهم الى الجامعة الاميركية ببيروت .

وفي بيروت ظهرت مواهب فؤاد باجلى صورها ، وبدأ يتحدث بها زملاؤه ولا سيما فيما يخص المرأة ، ويحفظون له بعض شعره ، فقد كان شديد التعلق بالمرأة ، كثير الاعجاب والاكبار لها ، ومن الحق ان يكون كذلك فلولا المرأة لما كان هناك في قواميس

اللغة شيء اسمه الجمال ، والسحر والادب والفن .

وألفى في بيروت شيئاً لم يلفه في اي مكان آخر ، وهذا هو شأن كل من يقفز مثل هذه القفزة (من الخالص) و(العشّار) و(الناصرية) وبغداد التي هي خيار هذه المدن التي عمل فيها فؤاد معلماً ثم وجد نفسه فجأة وبدون اية سابقة ذات شأن وجد نفسه في بيروت ، وهي احدى عرائس البحر الابيض المتوسط التي يقبّل البحر اقدامها صبحاً ومساء ، وتخرج الشمس وتغيب كل يوم في هذا البحر اللازوردي الجميل ! والنساء الجميلات السافرات ، وحتى المحجبات في تلك الايام يخطرن في كل مساء على الساحل الذي يقوم عليه القصر الشامخ الى جنب البيت المتواضع يومذاك .

انه لاول مرة يرى عالما لم يكن يحلم به حتى في المنام ، وهو وان لم ينس بغداد والكرخ والنخيل ، ولم يفتر حنينه اليها فقد جددت بيروت فيه الروح الشعرية وساعدت على بروز قابلياته الادبية ، فاين كان يرى ـ لولا بيروت ـ حينذاك هذه الازهار التي توشي الطبيعة بها حتى جدران البيوت ؟ والاحراج التي تحيط ببيروت من جهاتها الثلاث وهذا البحر الهائج الصاخب حينا ، والساجي الصامت احياناً اخرى ؟ واين كان يرى الحور العين والكواعب التي تموج بها اقسامُ الجامعة ، والاسواقُ والميادين ؟ بل أين كان يشم هذه العطور المنعشة التي تبعث بها باريس لبيروت مع كل سفينة من سفن بضائع الزينة ، وكل ما كان فؤاد يعرف من العطور كان يعرف (دهن الورد) الذي يؤتى به من استانبول او الهند ، وماء الورد الذي يدخل بعض المرطبات او الذي يسكبونه قطرات في راحة الكف في اليوم الاخير من مجالس التأبين (الفاتحة) التي يقيمونها (للميت) ، فاين هذا من هذه الجنة الزاخرة بالجمال ؟ واين تلك الوقفات من الدمن التي تلذ لفؤاد قرائتها في الشعر من هذا الجمال الذي يطوّف به في عالم من الاحلام وهو واقف على رأس بيروت يستعرض هذه الاسراب من الحسناوات ، والسفن الماخرة او الراسية والشمس التي يحتضنها البحر الهائج وهي تغيب فيه عناقاً وتذوب :

كل هذا كان لا بد أن يهيج منه القريحة ما دامت الملكة الفطرية كامنة في صدره ، وما دام صدره مكتنزاً بالخيار الخيار من الشعر الذي تلّقنه وهو طفل وقرأه وهو شاب ، فكان من ذلك قصيدة رأس بيروت التي يقول فيها :

رأس بيروت

تهادين من كل الجوانب كالقفر ... على رأس بيروت الى ساحل البحر
كواعب اتراب كأن وجوهها ... يفيض بها ماء الملاحة والبشر
فمنهن من قد اسفرت وتبذلت ... وقد لاح ما بين التراثب والنحر
حصان رزان بضةٌ قسماتها ... مهفهة الاعطاف ناهدة الصدر
ومنهنّ من قد حجّبوها لأنها ... تُريش من الالحاظ سهماً من السحر
فغيّب مسوّدُ النقاب جمالها ... كما غيّبت سودُ السحاب سنى البدر

* * *

خرجن ليستروحن طيب نسائم ... ويشخصن بالابصار في مسرح الفكر
وفي جانب منهن شيدت مساكن ... قصور واكواخ لمثر وذي فقر
فثمة قصر قائم شامخ الذرى ... وثمة كوخ جاثم واطىء الجدر
وبالقرب منه دوحة قام فوقها ... حمام بوكركم شجى الناس بالهذر
وقد طرزت ايدي الربيع وغمقت ... بساطاً من الريحان والعشب والزهر
وفي جانب منهن بحر وشاطىء ... عليه من العشاق طير بلا وكر
تنهّد صدر البحر بالموج مزبداً ... يبث لعين الشمس برح الهوى العذري
فاخجلها بالعتب فاصفر لونها ... فاهدته ـ كي يهدا ـ ذوائب من تبر
ولكنها لما رأته مقطباً ... قد ازرق كالمخنوق من غصة الهجر
دنت نحوه تبغي رضاه وأقسمت ... يميناً بأن تلقاه باسطة العذر
وفي الافق من بعد العتاب تعانقا ... فقبلها عشراً وزاد على العشر
ومن بعد وهن ضمها لفؤاده ... وما يتبع التقبيل والضم، هل تدري ؟

* * *

وجارية قاد البخار زمامها ... وحيزُومها كم هيّج الماء اذ تسري
لقد سئمت طول الطواف فارسلت ... بآهاتها تترى حنيناً الى البر
تسَلسلُ في ربانها كي يريحها ... ولكن للربان قلباً من الصخر
وتنفث من غليونها بدخانها ... لتجلو هموماً قد جثمن على الصدر

* * *

فلما أجلن الطرف في كل منظر ... هتكن به ما للطبيعة من ستر
تحلبن معسول الاماني والمنى ... وكم خففت بعضُ الاماني من الضرّ
فهذي تود الشمس تاجاً وهذه ... تمنت لها عِقداً من الانجم الزهر
وتلك تريد الليل كحلا لجفنها ... وأخرى حلالُ السحر من فمها يجري
فهيجن مني ذكريات دفنتها ... وأذكرنني ما كان في سالف العصر
واطلقن مسجوناً - فؤادي - وطالما ... بخلت عليه بالفكاك من الأسر
فهبّ طروباً ثم راح مغازلاً ... وجوه الاماني وهي باسمة الثغر
وعاوده الشوق القديم مذكراً ... (عيون المها بين الرصافة والجسر)
ذكرت رياضا جمّة وبواسقاً ... كان بها شوقاً الى مطلع البدر
تراقصها ريح الشمال عشية ... فتهتز كالنشوان مال من السكر
تذكرت صوب الكرخ والكرخ مربع ... قضيت به صفو الشبيبة من عمري
فيا رأس بيروت سلاماً وعصمة ... وخُلّدت في الدنيا ألى أبد الدهر

وقرأ فؤاد هذه القصيدة بطلب مني على اخي عباس الخليلي ونحن عنده بطهران ، فاستعاد اخي الكثير من ابياتها استحساناً ، وكنجفي ولا اقول كل النجفيين أو جلهم وانما الكثير منهم من يستحسن الفن لاجل الفن، ويستعيد لاجله، ولا يمنعه ذلك من الوقوف في وجه المنشد أو الخطيب اذا ما رأى ما يستدعي الوقوف والتأمل ولو كان ذلك في مجلس عام ، لذلك وقف أخي من بعض الكلمات من قصيدة فؤاد موقف المذّكر ، ولا اذكر من ذلك الا قوله (واهدته - كي يهدا - ذوائب من تبر) قائلاً اخي ان فعل (أهدى) لا يتعدى الى مفعولين ، وان ظهور النصب بالفتحة في (كي يهدا) ضروري هنا وهو غير ظاهر في هذا الفعل فتقبل ذلك فؤاد واعتذر وشكر .

وقد قال لي (فؤاد) : انك (يعنيني) حين انتقلت الى بغداد من النجف ، رأيتك تشير الى المنشد أو الخطيب علناً في المجلس اذا ما سها خلافاً لما هو مألوف في بغداد ، ثم لما علمت بان النجف كلها أو اغلبها تجري على هذه القاعدة بانها كما تستحسن المستحسن فانها تنبّه الى ما يقتضي التنبيه ، وتشير الى خطأ الشاعر في المجلس العام بروح من التنبيه لا التحدي ، قال فؤاد : لقد استحسنت ذلك ، لا بل اني فعلت هذا من قبل ولكني لم التفت الى أن هذا الذي فعلته انا هو عين ما يفعله النجفيون ، وهو

اني كنت اكلف طلابي في دروس العربية بان يقرأوا على الصف نتاجهم علناً ، واكلف اخرين بان ينبروا اليهم وينقدوهم ، ويعينوا اخطاءهم ، فكانوا يعتادون ان يسمعوا اخطاءهم بمحضر من رفاقهم ويعدّوا ذلك من الامور الاعتيادية .

* * *

ولم تكن قصيدة (رأس بيروت) هي اول قصيدة هاجتها طبيعة بيروت واتساع آفاق الجمال فيها بكل صوره والوانه ، وإنما كانت هناك قصائد هي في ضمن الأوائل من منظومه المطبوع بطابع بيروت ومؤثراتها ، ومن هذه القصائد القصيدة التي سماها (باستقبال الزهور) .

ولاستقبال الزهور هذه قصة تتلخص في ان الجامعة الأميركية ببيروت اعتادت في موسم الربيع ، وفصل الزهور ، ان تقيم في (الوست هول) في الجامعة حفلة لطلاب وطالبات الصف الرابع الموشك على الأنتهاء ، فتزيّن القاعة بالورود ولا تترك فراغاً من الحيطان والابـواب الا وتوشيها بالورد ، حتى الأعمدة الستة التي يقوم عليها سقف القاعة كانت تلفها بالورد من اعلاها الى أسفلها ، لكي تغدو القاعة في عين الناظر اقرب الى عالم الخيال منه الى عالم الحقيقة ، عالم لم يشهده احد الا طلاب وطالبات السنة الأخيرة من الجامعة الاميركية ولمرة واحدة في العمر يتمتع بها الطلاب والطالبات ، وغير مرة واحدة للأساتذة وزوجاتهم ، لأن الجامعة كانت تبالغ كثيراً في تزيين هذه القاعدة ، وتعدّ لها العدّة قبل موعدها بايام ، وتكلف الطالبات بأن يجمعن اجمل الأزهار لها قبل يوم وأكثر ، ثم تفرض الجامعة على كل طالب وطالبة حمل زهرة يانعة عـلى صدره ، وهكذا يفعل الأساتذة وزوجاتهم ، فلا يدخل القاعة احد الا وهو يرتدي افخر وأجمل ملبوسه ، وعلى صدره اجمل ما اختار من الأزهار .

وان الطلاب الذين يقصدون غرف النوم لا بد وان يمرّوا في ممرّ يحاذي (الوست هول) ولكنهم لا يستطيعون ان يروا شيئاً الا من فجوات غاية في الضيق ، ويصعب الوقوف عندها أكثر من دقائق معدودة لارتفاع تلك الفجوات عن القامة الاعتيادية بحيث يتطلب المتفرج ان يعاني الشيء الكثير من المشقة للوقوف على أطراف اصابع القدم لينظر من شقوق الشباك ، ومن تلك الفجوات شيئاً او بعض شيء .

وكان فؤاد عباس يومذاك طالباً في الصف الاول من الجامعة وهويعلم ان ليس له

ولكل طلاب الصفوف باستثناء الصف النهائي حق في الدخول الى هذه الحفلة ، ولو كان الدخول بالبطاقات لبذل كل ما لديه من نقود ليشتري بطاقة ويدخل ، لذلك راح يبحث عن شق بين الستائر ومن وراء الشبابيك ليرى ماذا هناك ؟ وكاد فؤاد يجن بما رأت عيناه ولا سيما حين رأى في ذلك الوسط المائج بورد الفتيات وورد الحدائق ، طالبة رائعة الجمال ، حلوة الشمائل ، ساحرة اللفتات ، وهي ترتدي فستاناً ابيض من الحرير ، وقد اعتاضت عن الوردتين المتفتحتين ببرعمين الصقت كل برعم على موضع حلمة من حلمتي ثدييها ، وقد طار الصواب من رأس فؤاد ، ولكنه لم يقو ان يقف مثل هذا الموقف الشاق أكثر من هذا ليمتع عينيه .

وكما يحب النبي محمد (ص) ثلاثاً من دنياه ، هي الطيب ، والنساء ، وقرة العين الصلاة ، فقد أحب فؤاد من دنياه ثلاثاً ، ولكن اين هذه الثلاث التي أحبها فؤاد من الثلاث التي أحبها النبي ؟ وان شارك فؤاد النبي في احداها ولكن بشكل اختص به فؤاد وحده .

كان فؤاد يحب القراءة كثيراً ، ولذلك فهو يقرأ كثيراً ، ويقتني خيار الكتب النادرة الغريبة فضلاً عن المصادر من الكتب العربية ، والانكليزية ، واخيراً الفرنسية التي تعلمها قراءة بمعهد اللغة الفرنسية ببغداد وصار يواصل قراءاتها ، والفارسية التي درس بعض مبادئها واصولها لاول مرة ونحن في ايران انا واياه نبحث عن المخطوطات التي تخص تاريخ خراسان لكي نتمّ تأليف الجزء العاشر من موسوعة العتبات المقدسة فأشترى هناك فؤاد بعض القواميس الفارسية ، وانكب على قراءة هذه اللغة ، واقبل على دراسة الشعر منها لكي يتفهمه ويقارنه بالشعر العربي !! على ان المدة التي قضيناها في ايران لم تتجاوز اسبوعين ، اسبوعين فقط ، تعلم فيهما شيئاً من مبادىء الفارسية ثم راح يواصل تتبعها ببغداد ، ولا أدري فيما بعد اين وصل به الأمر منها ؟

وتمتاز مكتبة فؤاد بطائفة من الكتب التي تخص العراق من المذكرات ، ورحلات الأجانب في مختلف الأزمان ، وما جاء في (تقارير) الحكام عن العراق ، وكان فؤاد يؤمن لحد بعيد بالمثل المعروف (قد يوجد في الأسقاط ما لا يوجد في الأسفاط) ولذلك كان يفتش عن هذه الكتب وامثالها بين الكتب المعروضة في شوارع لندن وعلى ضفاف نهر السين بباريس ، وفي جميع الجهات التي كان يرتادها في كل صيف من اقصى شمال

اسكندينافيا الى اقصى الساحل الغربي من اسبانيا وكان مثله جعفر الخياط في جمع الكتب التي تعنى بالعراق ، وعندي ان مكتبة فؤاد عباس اوسع واكبر عدداً واكثر غرابة من مكتبة جعفر الخياط ، وقد بلغني ان قرينة فؤاد واخته ـ ولم أسالهما ـ ينويان وقف هذه المكتبة اليوم على احدى مكتبات الاوقاف .

وثاني الثلاثة الذي يحبه فؤاد من دنياه هو (العرق) ولا يفضل عليه اي مشروب آخر من الكحول ، ولا يهمه أكان هذا العرق لبنانياً مقطراً من العنب ، ام عراقيا مقطراً من التمر ، أم صينياً وسيامياً وسودانياً مستخرجاً من الرز ، ما دام هذا العرق جيد الطعم ، طيب الرائحة ، يفسح له المجال ليحلق في عوالم شعرية خيالية خفيفة الروح ، منعشة .

وذات ليلة وهو مدعو للعشاء عند صديق وقد طال هناك السمر فعاد فؤاد الى بيته في ساعة متأخرة ، وفي بيته (بار) فيه كل انواع الكحول على ما يقال الا العرق في تلك الليلة ، فحار ماذا يفعل والتجأ الى (الويسكي) اخيراً ، وفي الصباح حدّث صديقه عبد الرزاق بستانه بأنه قضى تلك الليلة بانكد واتعس ما تقضى به الليالي ، ويحتمل عبد الرزاق بستانه انه كان مدعواً في بيتنا في تلك الليلة لأننا لا نشرب الكحول ولا نقدمها لضيوفنا ، ومع كل ذلك فإن فؤاداً ليس من المدمنين فقد قضيت معه في السفر اياماً اشهد انه لم يذق فيها اي نوع من الخمور، ثم ان عهدي به انه يستذوق الويسكي اذا لم يكن هنالك عرق .

وثالثة الأثافي مما يحب فؤاد هي النساء ، ولا يسألني احد اي الثلاث هذه احبّ الى فؤاد ؟ فليبق هذا من اسراري .

وكان الصديق الشاعر الطيار كمال عثمان قد اعتاد السفر في كل صيف الى تركيا فيقضي نصف الصيف في (بورصة) و (استانبول) والنصف الآخر في (شتورة) من لبنان ، وينزل هو وقرينته الحاجة آمنة في فندق (قاصوف) الذي تديره الآنسة (تيريز قاصوف) وهي آنسة جميلة وسيمة تتمتع بنوع خاص من الجمال الذي تشوبه مسحة من الكآبة فتزيد روعته وقد سميتها انا(بربة الجمال الحزين)اذا جاز ان يكون الحزن جميلاً ، هذا الى جانب ما تتمتع من ثقافة عالية ، فهي تجيد اللغة الانكليزية والفرنسية تكلماً وقراءة ، وقد اعتاد كمال عثمان حين يحل بهذا الفندق ان يزورني بسوق الغرب

ويعين لي موعداً لتناول غداء عراقي بفندق (قاصوف) ثم يدعو من يعرف من المصطافين العراقيين ، ويبالغ في دعوته فلا يترك أكلة عراقية الا ويهيؤها ويجعل بذلك محنة قرينته الحاجة به وبضيوفه في السفر كما هي في الحضر .

وفي صيف ١٩٧٤ كان فؤاد عباس وعقيلته يصطافان (بعاليه) من لبنان ، وكان لا بد ان يكون فؤاد في مقدمة المدعوين ، ولكن فؤاداً كما يعرفه كمال عثمان لا تهفو نفسه الى شيء في مثل هذه الدعوة لغير(العرق)، وقد سعى كمال وقبل ان يدعو فؤاداً الى البحث عن اجود انواع العرق بلبنان حتى عثر عليه ، وحين وصلنا الى (اشتوره) ودخلنا الفندق ، بدأ فؤاد يرسل الصلوات على محمد وآل محمد مرات ومرات على سبيل المرح والدعابة كما لوكانت هنالك معجزة ،والحق انه كانت هنالك معجزة فقد وجدنا هناك فتاة جامعية هي في آخر صف من الجامعة وقد نزلت هذا الفندق لتقضي عطلتها الأسبوعية وتعود في اليوم الثاني الى بيروت ، وكانت هي الأخرى تتمتع بجمال أخاذ ومن نوع مشرق ضاحك يجوز لنا ان نسميه (بالجمال المفرح) وقد جلست الى جنب الجمال الحزين ، واستسماها فؤاد عباس فكان اسمها (هالة الخوري) وانشدها فؤاد كما انشد (تيريز) من الشعر المرتجل في وصف جمالها ما انعش فؤاديهما وما لبثنا ان افسحنا له مكاناً بينهما ، وسقاهما وشرب ، ودق كأسه بكأسيهما من اليمين والشمال مرات ومرات ، وكان فؤاد قد استطاب ذلك (العرق) الذي هاج شاعريته المرتجلة فسكرنا معه من دون عرق ، واذا كان فؤاد قد قال لعبد الرزاق بستانه عن الليلة التي لم يجد فيها ما يشرب غير (الويسكي) بانها كانت انكد ليلة واتعسها ، فقد قال لي ان هذه الظهيرة التي قضاها بين هاتين الجميلتين اللتين حكتا ضرباً خاصاً من الضروب التي ينطبق عليها قول القائل (والضد يظهر حسنه الضد) من حيث الجمال والقبح فكلتاهما في غاية الحسن والجمال وانما من حيث الفرح والحزن لا غير ، لقد قال لي انه كان نهاراً ابيض على حد تعبير المصريين وانه كان من أسعد أيامه لا سيما وهو يعب هذا العرق الذي لا يدري من اين جاء به (كمال) لكي يشتري منه (قرّابة) يعني برميلا .

ـ ثم سألني أيفعل (كمال) في كل سنة مثل هذا ؟

ـ قلت من حيث الطعام والغذاء و (العرق) اذا كنت معنا فنعم ، اما (الجمال الحزين) تيريز فليس لكمال فضل فيه ، فهي هنا في كل وقت ، ولكن هذا (الجمال الفرح) اعني به (هالة الخوري) الذي ادخلته انت في حساب الأضداد وليس هو من

الأضداد في شيء ، وانما هو شراب واحد في كأسين مختلفي الألوان، اقول اما هذا الجمال الفرح الضاحك فهو عفويّ جاءت به الصدفة .

فقال وهو يضحك ـ وعلى سبيل المزاح قال : سأسأل زوجتي عن رأيها اذا وافقت ان ننتقل من منزلنا في (عاليه) الى هذا المنزل في (اشتورة) ، فضحكت زوجته ملء فمها ، فقد كان في كل ذلك هازلاً .

ولفؤاد مزية قلما امتاز بها احد من الشاربين ، فهو مهما عبّ وشرب من الخمرة فلن يخرج عن دائرة الصواب ، ولا يتجاوز حدود الأدب ، فلا يختل له مزاج ، ولا ينطق بالهجر ، بل انه يفيض إبداعاً ويحسن ارتجال الشعر إذا ارتجل ، فيطيب معشره أكثر ، وتحلو النكتة الأدبية على فمه أكثر وأكثر ، فما رأيته والله متبذلاً في صحوه ولا في سكره ، انه هو هو ، ملء إهابه ، ادب ، وفكاهة ، وسرعة بديهة في وقار غاية في التواضع .

اعود لأتحدث عن الحفلة ، حفلة (الوست هول) التي كانت تموج بهذه الأزهار من النساء اللائي هي احدى محبوبات فؤاد الثلاث، وأقول انه كان قد تعب من تلك الوقفة على تلك الشاكلة الشاقة من وراء ذلك الشباك العالي فاضطر الى ان يصعد مقرّه لينام ، وليتمتع بالحلم الذي لم ير واقعه ، والذي لم يدر متى سيكون من حقه ان يراه ويتمتع به وهو لم يزل في الصف الأول من الجامعة .

وحاول ان ينام فلم يطق ، ولم يحس الا ويده تبحث عن قلم وورقة ، ثم اذا به يقطع الليل بوصف تلك الساعة التي شدته الى شقوق الستائر من وراء احد الشبابيك العالية ، ولم يطلّ الفجر حتى كانت حصيلته هذه القصيدة التي سماها (باستقبال الزهور) .

لن أبالي ان تبخلي او تجودي ... يا ليالي فانقصي او فزيدي
بعد ما قد شهدت ليلة انس ... خلفتني كمسلم بن الوليد
ليلة لاحت (الكومون روم) فيها ... غادةً قد تزينت صبح عيد
فالخوانات قرطقت بزهور ... والعواميد منطقت بورود
مدت البسط والزرابي بثت ... واعدت للقوم دار الخلود
ومشى في الفناء سرب حمام ... بريّاش من زاهيات البرود
فخدود تضيء والضوء سحر ... وزجاج يضيء دون وقود

وغصون تميس من غير ريح بثمار من راقصات النهود
وهناك (الفؤاد) اصبح نهباً بين زرق من العيون وسود

* * *

ايها الزاعمون ان جنان الله مخصوصة بدين وحيد
هذه جنّة حوت كل دين من نصارى ومسلمين وهود
وقفوا يشربون قلت هنيئاً كظباء الغدير حين الورود
فسقى الحسن ورد تلك الخدود وسقى الدلّ بان تلك القدود
والعذارى خطون كالطير مثنى وثلاثاً من مزوج وفريد

* * *

وفتى لم يكن لديه جواز ودّ لو يشترى ببذل النقود
حام حول الشباك يشبه جاسوساً يروم العبور خلف الحدود
ما الذي ضرّ لو منحتم جوازاً (لفؤاد) من الهوى مفؤود

* * *

وفتاة لا اقصد الشمس لا بل فضلتها بقامة وبجيد
أرأيت الغزال يبدي نفوراً أرأيت انعطافة الأملود؟
ما ائتلاق الياقوت من شفتيها ما الثنايا بلؤلؤ منضود
تلك احياء هذه جامدات أفحيّ كميّت ملحود؟
لبست مثل طهرها حلة بيضاء تزري بناصع من جليد
كشكشتها بمنتهى كتفيها وانتهى الكم بانتهاء الزنود
وبدت والدلال يعبث فيها كجناح الملاك عند الصعود
يثب النهد تحتها أسجين باذل جهده لكسر القيود
ام كقلبي لما دنت وتدلت بعد حرّ الجوى ومرّ الصدود
ام كفرخ في البيض ينقر قشراً يبتغي مخرجاً لهذا الوجود
مدّ منقاره يريد غذاء وهواء لذا الوليد الجديد
فانالته وردة قلت مهلا هل طعام الطيور حمر الورود
فاجابت : لا ليس ذاك طعاماً بل حجاباً من شرّ عين الحسود

وفي الجامعة الأميركية يومذاك جمعية باسم (العروة الوثقى) ولها مجلة بهذا الأسم يشرف عليها الطلاب والاساتذة كانت تنشر خيار النثر والشعر لطلابها، والمنتسبين لها، واغلب ظني ان قصيدة (استقلال الزهور) قد نشرت ـ اول ما نشرت ـ في مجلة (العروة الوثقى) ببيروت ، كما نشرت في جريدتي الهاتف في النجف ، فكانت هذه القصيدة بمثابة الكوة لاول تعرفي بفؤاد عباس ، وليس تحت يدي مجلدات (الهاتف) العشرون التي اشتراها الدكتور صلاح الدين المنجد لمكتبة جامعة شيكاغو ـ على ما اظن ـ لكي ارجع اليها للتثبت مما اذا كانت هذه هي القصيدة التي نشرت لفؤاد لاول مرة في الهاتف ام كان غيرها .

ومن المؤكد هو ان فؤاد عباس ، وسالم الالوسي الأمين العام لمعهد الوثائق العربية، واللذين قلما افترقا لا سيما على شاشة التلفزيون التي كان فؤاد عباس والدكتور مصطفى جواد فيها الوجهين المشرقين علماً وادباً وظرفاً ، لم تظفر هذه الشاشة بعدهما بمن يسد الفراغ الذي احدثه بُعدهما عنها ، ويحاكيهما فيها اطلاعاً وخبرة ، وذلاقة لسان ، كلاً في عالمه الخاص وبمقتضى موهبته .

ولم يكن فؤاد عباس معروفاً عند العامة قبل ظهوره على شاشة التلفزيون كما هو معروف في اوساط اهل الأدب والفضيلة ، واول من تقدم بتعريفه للجمهور وسلط عليه الأضواء، وفتح هذا الكنز النفيس لكل العيون والاسماع كان الدكتور حسين امين ، الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب اليوم الذي اخرجه في التلفزيون لاول مرة سنة ١٩٥٩ ، ولم يكن فؤاد عباس اول من اخرجه الدكتور حسين امين وعرف المجتمع به وحده وانما كان للدكتور حسين امين فضل آخر في تعريف الجمهور بالدكتور مصطفى جواد عن طريق التلفزيون ، والا فقد كانت معرفتهما مقتصرة على اهل العلم والأدب والمثقفين ، ,

وحين كان الدكتور حسين امين يدير البرنامج الثقافي في التلفزيون كان فؤاد في الغالب ثالـــث ثلاثة هم الدكتور مصطفى جواد وسالم الألوسي وفؤاد عباس .

ولقد وجد الذين لم يتعرفوا به من قبل ، وجهاً من وجوه الثقافة العربية الأصيلة ، وأنسوا بالبهجة التي كانت تلوح على هذه الوجه ، وما كان يتدفق به لسانه من حلاوة تبهر المشاهدين في التلفزيون ، والسامعين للأذاعة .

وحين تغير برنامج الدكتور حسين أمين وعهد امر ادارة الندوة الثقافية في التلفزيون لسالم الألوسي شدّت فؤاد هذه المشاركة الى سالم شداً محكماً حتى كادا لا يفترقان، وعلى الأخص في الندوات والمحاضرات التي كان يديرها سالم الألوسي ووفّى الدكتور حسين امين ، وسالم الألوسي ، لفؤاد في اربعينه حقه من طيب الذكر فكانا من خيار الأصدقاء له في حياته ومماته .

والذي اعلمه هو ان فؤاد عباس وسالم الألوسي كانا ذات ليلة يسمران في بيت السيدة مسكوني حرم يوسف مسكوني ، التي كثيراً ما ضم بيتها نخبة من اهل الفضل ، وجاء حديث الشعر والغزل والنسب عند فؤاد عباس فرجعت به الذكرى الى (استقبال الزهور) وطلبت منه السيدة مسكوني ان يسجلها بصوته ، ويحكي لهم حكايتها ففعل ، وهي اليوم مسجلة على شريط يحتفظ به المهندس نصير مسكوني واخوه المهندس نزار مسكوني في بيت السيدة امهما ، ويعتبر هذا الشريط من انفس ما خلف فؤاد من ذكريات ، ومثل هذا الكثير الكثير المسجل بصوت فؤاد في اذاعة بغداد ، والمصور على شاشة التلفزيون بصورته وصوته .

صحيح ان فؤاد عباس شاعر مقل ، ولكنه شاعر مجود ، ولعل له فلتات تصلح ان تكون شواهد للأبتكار ، ولذلك لا يستغرب ان يكون معروفاً ـ على قلة ما كان ينشر ـ عند البعض من غير العراقيين ، وعلى الأخص اساتذة الجامعة الأميركية وزملاءه من الطلاب الذين زاملوه في الجامعة ، ومن كان يجتمع بهم من الأدباء ببيروت ، وحسبنا ان نعرف ان شاعرنا العبقري المجدد جورج صيدح المقيم اليوم بباريس يكاد يعتقد بأن هذا الأسم ـ اسم فؤاد عباس ـ لم يكن غريباً عليه كشاعر ، ولندع صيدح يشرح لنا هو ذلك كما جاء في رسالته عندما نعيت انا اليه فؤاد عباس ، ولنضرب بهذه الرسالة ثلاثة عصافير ، بحجر واحد ، فنمر على ذكرى الشاعر الكبير امين نخلة ـ ولو بمجرد الذكر ـ الشاعر الذي توفي ولبنان مشتعل بهذا الأتون من النيران التي احرقت الحرث والنسل ، والذي توفي ولا يعلم احد بوفاته ، ودفن ولا يدري احد كيف دفن ؟ واين صار رمسه ؟ فمات كأنه ما كان ذلك الشاعر الفريد الذي رفع اسم العروبة بشعره ولا ذلك الخطيب المصقع ذو اللسان الذرب الذي عمرت الدواوين في وقت ما بسرعة بديهته ، فمات كما يموت الخرسان والبكم ، لم يسمع به احد الا القليل، ولم ينتفع بآثاره أحد .

ثم لنستعيد بهذه الرسالة ذكرى المجاهد الوطني الكبير محمد علي الطاهر الذي مرّ ذكره في عرض مسهب ضافٍ اعدّ لينشر في الجزء الخامس او السادس من (هكذا عرفتهم) الجزئين اللذين لم يكتب لهما الخروج الى حيز الطبع بسبب غلاء الورق والطبع لولا تصدي السري الكبير الحاج عبد الهادي الجلبي ادامه الله ذخراً للفضيلة والادب .

يقول شاعرنا جورج صيدح في رسالته التي يعزيني فيها بوفاة فؤاد عباس بتاريخ ١٩٧٦/٦/١ .

« إلى اخي العلم ، محج اهل القلم ، جعفر الخليلي الأشم .

رسالتك الضاحكة الباكية ، اخذت بلبي ، وشغلت قلبي ، ولن يهدأ روعي قبل ان اردّ عليها كي تصل اليك قبل سفرك الى القاهرة في ١٥ حزيران ، فلا تلهيك عنها حفلات الاستقبال ، ومهمات الجامعات والمستشارين، وندوات ابناء الحلال ، دعني أشفِ غليلي بحديث مع الخليلي .

النعوة التي آلمتك في الصميم ، هبطت عليّ مثيلتها تماماً منذ يومين ، كأن القدر شاء ان نتساوى حظوظاً ، ونردّد ذات الزفرات في بغداد كما في باريس ، متحسّرين على من مات ، فاخونا الشاعر المغرد امين نخلة أصبح في ذمة الله ، خارجاً من ذمة اهله وناسه بلا ضجة ولا تأبين في الصحف، ولا مأتم في الأندية، مغموراً بين جثث القتلى ، والأبرياء ، شهداء الفتنة الدهياء في بيروت ، هذا الوضع قد عمّق جُرْحي، وضاعف فجيعتي ، وحال بيني وبين العزاء المفروض على الأحياء ، هذا بينما انت تبكي الراحل في بغداد في جمع من الأحباب والأنداد ، وتستعد لمشاركة اهل العلم والأدب في تخليد ذكراه كما يقضي الوفاء في تقدير كل موهوب ، وكل محبوب من معاصرينا الأمجاد .

فؤاد عباس اسم غير غريب عن ذهني ، بل منقوش في ذاكرتي، ومخطوط في دفتري فمنذ عشرين عاماً كنت في بيروت أعنى بتسجيل انطباعاتي اليومية، في مفكرة لا تفارق عيني ولا مكتبي ، وفيها احفظ مختارات شعرية من مطالعاتي وانا على يقين ان شعر فؤاد عباس وارد فيها غير مرة ، ويا للأسف فإن المفكرة بقيت في بيروت بين محفوظات مكتبتي القديمة منذ عام ١٩٦٠ ولا وصول اليها الآن .

اما أمين نخلة فعرفته عام ١٩٥١ حين اشترك في حفلة تكريم أقامها الحبيب الخالد الذكر كامل مروة (صاحب جريدة الحياة وشهيد السياسات) فغمرني بلطفه ، وسحرني بشعره ، وائتلفت اذواقنا فتوطدت صداقتنا ، وكان آخر اجتماع لنا في منزلي

هنا ، جاء مع اسرته سائحاً ، وخصني بزيارة ، وسلمني رسالة توصية من المرحوم محمد علي الطاهر مشترطاً اخذ جواب عليها يحمله الى الطاهر في بيروت واذكر اني سلمته بطاقة جوابية شعرية قلت فيها :

ولقد ذكرتك و(الأمين) منادمي ... وانا طروب النفس مسلوب النهى
بدأ الحبيب عن الحبيب حديثه ... وانا اعيد واستعيد متى انتهى
قبّلت مخموراً حروف كلامه ... ان الحروف لها شفاه تشتهى

هذا هو الشاعر الذي ابكيه بدموع القلب ، كما بكيت انت بقلبك الكبير صديقك العزيز فؤاد عباس الشاعر ، إنه توارد في الحظوظ وفي المشاعر :

لي الله كم صحب تولوا ولم أزل ... - على الرغم مني - لا اولي مع الصحب
وقفت بازهاري على دربهم عسى ... اشاهدهم يوماً وقوفاً على دربي
اذاكرهم قبل الفراق لعلني ... اعيش على الذكرى الى ساعة النحب
هنيئاً لمن مثواه في الشرق ناطر ... ويا حسرتي، مثواي في قبضة الغرب
تبعثر اقدام العلوج ترابه ... ولا يسمع الأنات منه سوى ربي»

باريس جورج صيدح

وزاد فؤاد عباس حرصه على حضور المحاضرات التي كانت تقيمها الجامعة الأميركية وغيرها من المؤسسات الثقافية ببيروت ، وقلما فاته حضور مناقشة ادبية ، او محاضرة بالعربية او الانكليزية ، ويوم اعلنت الجامعة الأميركية بان مي زيادة ستلقي محاضرة تتناول فيها فلسفة الأدب واتجاهاته ، واثره في المجتمع ، والآراء الاجتماعية الحديثة ، كان فؤاد يهم بمغادرة بيروت الى الشام لامر مستعجل يخصه في ذلك اليوم دون سواه ، فترك السفر ، وخسر شيئاً غالياً ذا اهمية كبرى على ما قال لي لكي يحضر محاضرة مي زيادة !! ولم يكن تركه السفر لاجل الافادة من المحاضرة فحسب ، وانما كانت هناك امور تخص مي زيادة التي كانت قد خرجت توّاً من العصفورية (مستشفى الأمراض العصبية والعقلية ببيروت) فكان فؤاد يريد ان يرى بعينه كما كان يريد اغلب رجال العلم والأدب ، ومن كان يعرف مي زيادة ويقرأ كتبها ، ان يروا بعيونهم هذه الأديبة العبقرية التي كثرت الأقاويل والمناقشات حولها ، ولم تبق صحيفة عربية حينذاك الا وتناولت قضيتها مؤيدة معاناتها لبعض الأمراض العصبية وان كانت خفيفة ، او مدافعة عنها ونافية عنها اية شائبة من شوائب الأختلال ، ناسبة كل هذا الذي

جرى لها بادخالها العصفورية الى طبيب قريب لها ليستحوذ على ما كانت تملك من مال وان لم يكن وفيراً ، وحتى اليوم وحديث اصابة مي زيادة بالاختلال العصبي ونفيه من اساسه لا يزال يدور على الأفواه ان جاء ذكر مي زيادة ، وان احسن من كتب عن مي وعالج ظروفها ، وعزا كل ذلك الصمت والسكون والأنكماش على النفس الذي ادّى الى سدّ بابها في وجوه زوارها الذين كان صالونها يموج بهم امثال لطفي السيد، واحمد شوقي ، والعقاد ، وخليل مطران، وانطوان الجميل، والرافعي وغيرهم والذي اتخذه قريبها الطبيب حجة لادخالها العصفورية قسراً ، اقول ان احسن من عالج هذه الأمور وعزاها في الغالب الى ما ساورها من الحزن الذي اعتراها بسبب فجيعتها بوفاة امها ، وفشلها في حبها حتى صيّر منها سيدة كئيبة مهمومة ، مغمومة، ساعد على عدّها مريضة بالعصب ، وما هذا المرض العصبي الذي يستوجب دخول مستشفى الأمراض العصبية وهو ان شذ عن طبيعة الناس العامة ، ولكنه غير شاذ في مثل تلك الظروف التي حدثت لمي زيادة .

فؤاد عباس وقرينته الست نزهة بين جمع من السيدات والاوانس

ان أحسن من عالج هذه الظروف ممن كتب عن مي زيادة كانت السيدة الالمعية الفاضلة (وداد سكاكيني) في كتابها عن مي الذي خرج منذ عهد قريب ، وباختصار : وعلى اثر الضجة القائمة في الصحف والمجالس خرجت مي زيادة من العصفورية ، وفي هذه الاثناء كلفت بان تلقي محاضرة اجتماعية عامة ، فهرع الناس ليروا هذه الاديبة ، المتهمة بالاختلال العصبي ليروها ماذا تقول ؟ وكيف تحاضر ؟

وقال لي فؤاد : لقد كنت اول المبكرين في الحضور ، ولو لم اكن مبكراً وقبل موعد المحاضرة بوقت كبير لما حصلت على المكان المناسب ، فقد غصت القاعة بالواقفين على ارجلهم فضلاً عن الجالسين ـ واشهد اني ـ يقول فؤاد ـ ما سمعت محاضرة ـ في كل ما حضرت من ندوات المحاضرين ـ تشبه ما القت مي زيادة من عمق ادب ، وقواعد فلسفة ، وتصوير للمجتمع الانساني ، في نبرات ذات وقع ، ووقار جذاب يستلفت النظر ، وكانت هذه المحاضرة وحدها تثبت ان ما اتهمت به مي زيادة لم يكن له أصل ، ولا يمكن لاحد ان يقول فيه شيئا لا سيما وقد القت محاضرتها وعلى وجهها مسحة من الانطلاق والانشراح الذي يجتذب العيون ، والاذان ، والقلوب .

* * *

وتخرج فؤاد عباس في الجامعة الاميركية بدرجة امتياز سنة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ وعاد الى العراق ليتنقل في الوظائف التعليمية بوزارة المعارف مدرساً ، ومديراً للمدارس الاعدادية ، ومحاضراً ، حتى لمع نجمه في أوساط المدارس والمعاهد ، فتعين في سنة ١٩٦٠ مفتشاً اختصاصياً للغة العربية وآدابها في الوزارة .

وظهرت له في تدريس اللغة العربية اساليب جديدة كان يعتمدها في تفتيش المدارس الثانوية ، فقد كان قليل الاعتماد على الكتب المخصصة للدراسة من قبل وزارة التربية ، لذلك كان يحاضر المدرسين والاساتذة فيما ينبغي ان يكون اسلوب تدريس اللغة العربية ،وكثيراً ما كان يطيل البقاء في المدن في اثناء التفتيش حتى يطمئن الى نجاح هذا الاسلوب وكيفية تلقين الدروس ، والافادة من النصوص الادبية ، والقصص ، والامثال ، والنوادر التي تصلح ان تكون شواهد للقواعد ولا سيما للبلاغة والبديع ، بل انه كثيراً ما كان يأخذ من الامثلة العامية الشائعة مثلاً يقرب به القواعد الى الاذهان ، وعبثاً كانت رياسة التفتيش العامة تلومه على بطء المكث في المدن التي يقوم

بتفتيش مدارسها ، فقد كان يعتقد ان الكثير ممن تولوا رياسة التفتيش العام غير صالحين لهذه المهمة ، وقد حدثني غير مرة بهذا الخصوص ، وقال لي انه لا يعبأ بلومهم ، ولا يتبع آراءهم، لانهم غير صالحين لفهم مهمة التفتيش ، وكونه وسيلة للتوجيه ، والتثقيف ، واصلاح الاخطاء .

وكان يحثني على أن أروي له ما كنت أحفظ من الاهازيج التي يسميها العوام (بالهوسة) ويعتبرها ضرباً من ضروب الايجاز الذي قد يتفوق على ايجاز القريض في كثير من المواطن ، وكان يتخذ من هذه (الهوسات) امثلة يُسند بها امثلة القريض في درس البلاغة ، وبقي في التفتيش حتى سنة ١٩٧٣ التي احيل فيها على المعاش ، وقد قال لي يوم تلقى أمر الاحالة ، لقد قال لي : أتدري انني ما دفعت لفّراش في أية مؤسسة عملت فيها مدرساً ، أو مديراً ، او محاضراً ، ومفتشاً اي مبلغ من النقود على سبيل الهدية ، ولكنني حين تناولت كتاب احالتي على التقاعد من يد الفراش ، وفضضته ، وعلمت بما فيه ناديت الفراش وهو على وشك الخروج من الغرفة ، ودفعت له مبلغاً اثلج صدره كما اثلج صدري كتاب الاحالة على التقاعد .

* * *

وابتدأت علاقتي بفؤاد عن كثب من يوم انتقالي من النجف الى بغداد ، وألف احدنا الآخر في المزاج وفي الكثير من العادات ، وسرني منه انه من الاصدقاء القليلين ومثله كان مصطفى جواد من الذين يخجلون اذا سمعوا اطراءهم بآذانهم ، بل ليضيع طريق الكلام عليهم ، وهم من أرباب البلاغة والفصاحة المعروفين بسرعة البديهة ، وحضور الذهن ، ولا سيما فؤاد المعروف بذلاقة اللسان ، وحلاوة البيان ، المبدع بالوصف اذا وصف ، والحبيب الى القلوب اذا علّق او انتقد ، لما يصاحب نقده من لين وتواضع .

اقول لقد سرني من فؤاد كما سرني من مصطفى جواد تجنب المباهاة ، والمفاخرة ، والادعاء وما سمعتهما والله يتحدثان عن انفسهما ولا مرة واحدة بما يشم منه رائحة الانانية والاعجاب والفخر .

وقد جمع بيننا الادب ، وانا شديد الكره لعلي بن الجهم الشاعر لان هذا الشاعر شديد الكره لامير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) مجاراة للمتوكل العباسي الذي كان

يكره علياً ويكره الحسين (ع) ولكني لا اتناسي قول ابن الجهم في قيمة الادب واهميته عند من يعرف قدره اذ يقول :

لو قيل لي تملك الدنيا باجمعها ... ولا تكون أديباً يحسن الادبا
لقلت لا ابتغي هذا بذاك ولا ... ارى الى غيره مستجمعاً إربا
لجلسة مع اديب في مذاكرة ... انفي بها الهم او استجلب الطربا
أشهى اليّ من الدنيا وزخرفها ... وملؤها فضة أو مثلها ذهبا

ثم جمعت بيننا جريدة (الهاتف) و(يومها الادبي) الذي كان يحضره رهط من الاصدقاء الادباء ، والذي انتقل هذا اليوم الى (دار التعارف) المؤسسة التي اسستها انا بعد أن أغلقت الحكومة جريدة الهاتف بموجب مرسوم في سنة ١٩٥٤ وقد مرت الاشارة اليه في بعض الاجزاء من (هكذا عرفتهم) وصارت مهمة (دار التعارف) القيام بنشر الاعلانات التجارية في الصحف والتلفزيون ، وابتكار وسائل جديدة للاعلان التجاري ولفت الانظار بأساليب حديثة لمزايا البضائع التي تعلن عنها دار التعارف ، وكانت (دار التعارف) تقيم الى جانب هذه الاساليب مسابقات مختلفة الالوان تخص تلك البضائع ، وكان فؤاد عباس هو والدكتور مصطفى جواد من المحكمين الدائمين في تعيين الفائزين في المسابقات الشعرية ، والقصصية ، والاحجيات والالغاز التي تضعها (دار التعارف) باسم (التجارة في ركاب الادب) وطالما تنضم الى المحكمين عناصر من النساء ، وكثيراً ما يدخل الشاعر محمود الحبوبي ، وكمال عثمان ، والدكتور علي الوردي ضمن هيئة التحكيم .

وتمنح الشركات التجارية الفائزين الذين يتفوقون على الاخرين باسلوب الاعلان عن بضائعها شعراً أو نثراً ونشر النتائج في الصحف او التلفزيون ـ جوائز قد يكون لبعضها شأن أو بعض شأن ، ولم تنس الشركات ان تخص المحكمين ببعض الهدايا المناسبة وقد تقيم بعض الشركات التجارية وليمة غداء او عشاء في احد الفنادق للمحكمين بعد انتهاء الحكم .

وعلم احد المشاركين في المسابقة باهتمام المحكمين بمثل هذه الولائم والدعوات فضّمن مقطوعته الشعرية في مسابقة ساعة (فلكا) وعداً خيالياً بان يقيم في قصره الذي سيرصفه بساعات (فلكا) اذا فاز في المسابقة وليمة يكون من بعض صنوفها(السمك المسقوف) وهي الأكلة البغدادية الشهيرة ، وخص من اولئك المحكمين الدكتور

مصطفى جواد ، وفؤاد عباس ، اذ جاء في ضمن ابياته قوله :

لا سيما ان يكن (الجوادُ) - صدر الندي - هو (الفؤاد)

وظهر بعد ذلك ان هذه المقطوعة الشعرية التي فازت باحدى الجوائز لم تكن من نظم هذا الفائز ، وانما هي مدسوسة اتهمت بها (دار التعارف) ليفيد منها هذا المشارك اذا كتب لها ان تفوز ، كما ان دعوة هذا الفائز للمحكمين كانت دعوة وهمية خيالية لا يمكن أن تؤدي الى نتيجة ، فحتم فؤاد عباس ان يقع الغرم على (دار التعارف) وان كان الغنم قد ظفر به شخص آخر ، واقترح فؤاد ، بل ألزم (دار التعارف) باعتبارها المتهمة بهذا الدس غير الرخيص - وهذه عبارته - بان تفرض على كل فائز بالجائزة ، او على كل شركة تجارية يخصّها الاعلان والمسابقة اقامة جلسة أدبية للمحكمين تنتهي بالعشاء او الغداء ، واذا ما تعذر ذلك فعلى دار التعارف ان تقيم هي هذه الدعوة على حسابها وفي بيت صاحبها .

والحقيقة ان ذلك لم يكن يضيرنا ولا سيما وان زوجتي كانت يومذاك على قيد الحياة، وطالما تلطف الاخوان من زمرة(فؤاد)وامثاله فلبوا دعوتنا حين تكون هنالك مناسبة تقضي بان ندعو زائراً ماراً ببغداد ، او نولم لصديق وليمة لسبب من الاسباب ، وكان مثل هذا مما يسرّ اصدقاءنا ويسرنا نحن ايضاً ، فليكن الأمر تحقيقاً للمثل العامي القائل (هالستة فوق الستين) اي اضف هذا العدد الصغير وهو الستة فوق العدد الكبير وهو الستون فلن تجده يحدث لك خللاً .

واتسعت دائرة الادب في بيتنا ، وصار البعض يتناقل بعض ما كان يدور بين الجمع من نكات ، ونوادر ، وطرف ، وشعر ، واذكر ان مجلسنا ذات ليلة كاد يسوده التوتر بسبب اختلاف جرى بين اثنين من المدعوين ، فلكيلا يتسع الخرق اقترحت انا بان يبدأ احدنا بنظم بيت مرتجل سريع وبدون تأمل كأن يترك نفسه على سجيتها لتقول ما تشاء ان تقول ، حتى اذا انتهى من القول لفقه الذي على يمينه وارتجل هو الاخر وانشد بسرعة ما هو جاريا على لسانه دون تفكير في المعنى، وكل ما يطلب منه ان يكون بيت شعره مقفى وموزونا ، وهكذا يفعل الثالث والرابع فاذا انتهت الحلقة شرع بها من جديد ، وفي هذه اللعبة كانت تقع أمور جدّ مضحكة لأن هذه العجلة في الارتجال الذي يحتم على الناظم ان ينطلق بدون تفكير كثيراً ما تأتي بما يضحك الثكلى خصوصاً إن جاء لهامعنى بدون قصد ، او وقعت في وسط البيت كلمة نابية تثير الضحك ، وكثيرا ما

عملنا مثل هذا ونحن في مجالسنا الخاصة في مدينة (النجف) وقد يستمر لهونا بهذا اللون من الارتجال المؤنس المضحك طويلاً ، ومن الحق ان اقول ان فؤاد عباس كان المجلّي في مثل هذه اللعبة متى لعبناها ببغداد .

اقول ، وظل بيتنا عامراً بهذه الدعوات الى أن توفيت زوجتي واغلق مكتب (دار التعارف) فاقتصرت دعواتنا على المناسبات التي لا مناص منها ، من قبيل ورود احد الاصدقاء الادباء من الخارج زائراً للعراق او عابراً .

ولا بأس ان أورد هنا المقطوعة الشعرية التي فازت باحدى جوائز ساعة (فلكا) والتي اتخذ منها فؤاد عباس حجة لانعقاد (يوم أدبي) آخر في بيتنا على غرار (يوم الهاتف الادبي) الذي انتقل الى (دار التعارف) بعد اغلاق جريدة الهاتف ، وبفرق بسيط : هو ان تلك الايام الأدبية كانت بدون أكل في دار التعارف ، وفي مكتب جريدة الهاتف ، اما هذه التي كنا نقيمها في بيتنا بناء على اقتراح فؤاد عباس فقد كانت ادباً مغموساً بالمأكل ، وهذه هي المقطوعة الفائزة

ساعة فلكا

إقتنِ (فلكا) ساعة عصريه ... فهي بكل مقتنى حريّه
وطِر بها إن شئت للسماء ... او إن تشأ فاغمر عباب الماء
دحرج بها من قمم الجبال ... او فارمِها صعداً الى الاعالي
فسترى (فلكا) كما تريد ... قوية كأنها الحديد
أما الجمال فالصلاة (عالنبي) ... في معصم البنت ومعصم الصبي
ومعصم الفتاة في الليالي ... يشع مثل كومة اللئالي
يا ليتني كنت وكيل (فلكا) ... ما كنت اقتني سواها ملكاً
أشيد منها أبدع القصور ... حيطانها زجاجها البلوري
ترصع الابهاء منها والغرف ... احجارها ـ فيمتلى القصر تحف
أما بلاط سائر القاعات ... فرصفه يكون (بالساعات)
فلن ترى في ذلك القصر البهي ... شيئاً بغير ذكر (فلكا) ينتهي
هناك تحلو دعوة الاخوان ... من المحكمين في الاعلان
لا سيما ان يكن (الجواد) ... ـ صدر النديّ ـ هو و(الفؤاد)
لأكلة في قصري المنيف ... مزدانة (بالسمك المسقوف)

في احتفال الدكتور عبد المجيد القصاب بتوفيق بن عرفه ، ومحمد كرو في بيته يرى فؤاد عباس الثالث من اليسار بين توفيق بن عرفه ومحمد كرو .

أعـيّ المـيـعـاد (بـالـشـواني) مـن دعـوتي ولا بـشـيء ثـان
فـيحـضـر الجميـع في الميـقـات بفضـل (فلكا) أتقن الـسـاعـات

* * *

وفؤاد بعد هذا واسع الافاق له في كل قدر من المعارف مغرفة ، وهو وان لم يكتب القصة فانه لكثرة قرائته القصص الانكليزية يفهم القصة اكثر مما يفهمها الكثير من ائمة القصة ومشاهير كتابها ، وقد ظهرت هذه الموهبة في المناقشة التي جرت في مسابقة القصة التي أقامها ناجي جواد الساعاتي بدار التعارف .

وناجي جواد الساعاتي حقوقي ، واديب ، وقصاص ، وتاجر ، عرف الى جانب أدبه بمساعدة الادباء الذين تحول عدم (الامكانية) دون طبع نتاجهم ، وكثيراً ما ساعد المؤلفين في شراء عدد من كتبهم واهدائها الى الاخرين ، ولما كان ناجي جواد وكيلا لساعة (اولما) فقد وضع تحت تصرف (دار التعارف) مائتي دينار للفائزين بكتابة قصة

قصيرة كان الحكم المجلي فيها فؤاد عباس الذي ناقش المحكمين من القصاصين مناقشة عالم بأصول القصة وقواعدها حتى فوض له الدكتور مصطفى جواد الذي كانت تسند له رياسة التحكيم في جميع المسابقات ، البت في تعيين الفائز اعترافاً من القصاصين بعلو كعبه في ميدان القصة .

ولما كان ناجي جواد من اكثر من ينتهز الفرص لجعل (التجارة في ركاب الادب) فقد كان يصنع الكثير من الجوائز لبضائعه ، فتدع (دار التعارف) التحكيم لفؤاد وحده بعض الاحيان لتعيين الفائز ، ثقة بمقدرته ومواهبه المتعددة .

وكثيرة هي الحوافز التي كانت تتجلى فيها مواهب فؤاد وملكاته الادبية والفنية لا سيما في التلفزيون والاذاعة والاندية كما مرت الاشارة اليها ، وقد ابتكر فؤاد مرة برنامجاً تلفزيونياً ظل يديره مدة طويلة وهو (هل تريد أن تعرف معنى اسمك) فتكتب له آنسة أو سيدة تقول له ان اسمي (تماضر) مثلا ، فما تعني (تماضر) ؟ هذه ؟ ويكتب له شاب أو رجل ويقول له لماذا سموني (حسوناً) فكان فؤاد يظهر على الشاشة ويفيض في شرح هذه الاسماء ومعانيها ، ويأتي بالشواهد اللغوية والشعرية وقصص الامثال ، وهكذا كان يعمل مع الاسماء غير العربية فيجعل الاجابة فضلاً عن فائدتها جذابة حلوة مسلية لما تتضمن من الحكايات والشواهد الشعرية .

وقد يداعب البعضُ فؤاد عباس ويسألونه اسئلة مضحكة كأن يسألوه لماذا سمي البغل (بغلا) والسخل(سخـلاً) فتكثر هنا في ضمن إجاباته الصحيحة النكات منه وردّ الدعابة بمثلها، وهكذا كان حينما يخرج في الندوات التلفزيونية مع الدكتور حسين امين ، وسالم الالوسي ، والدكتور مصطفى جواد ، والدكتور صفاء خلوصي ، وجمال الدين الالوسي والدكتور عناد غزوان وغيرهم الذي ظل التلفزيون مشغولاً باحاديثهم وتعليقاتهم العلمية والادبية مدة طويلة .

ولا انكر ان كثيراً ما كانت هذه الندوات التلفزيونية تجمعني واياهم على الشاشة وكثيراً ما كان يقال لي ، وقد يكون هذا القول على سبيل المجاملة انه كان يلذّ للمشاهدين اذا رأونا انا وإياه في ندوة تلفزيونية واحدة .

وحين صممت على عدم استجابة دعوة الاذاعة والتلفزيون بالظهور في ندواتها استعان التلفزيون بالدكتور مصطفى جواد لاقناعي بالعودة فاعتذرت ، وجاءني فؤاد عباس قائلا انه موفد لحملي على العودة وبأية طريقة كانت ، وبأي شرط من الشروط ،

فأبيت ، وبعد مدة لم تكن طويلة ترك فؤاد عباس هو الآخر الاذاعة والتلفزيون لنفس السبب الذي حملني على الابتعاد عنهما ، وليس هذا مجال شرح الاسباب ، ثم رجع فؤاد للاذاعة والتلفزيون ولم أرجع انا ، لان رجوعه كان اسهل من رجوعي ، وان رجوع الدكتور مصطفى جواد اسهل وأيسر اكثر من رجوع فؤاد .

ولم تكن الاذاعة والتلفزيون هما الحافزان وحدهما لظهور ملكات فؤاد كما مرت الاشارة ، وانما كانت هنالك اندية كنادي المنصور ، ونادي الهندية ، والجمعية البغدادية ،وجمعية الهلال الاحمر النسوية ، والنادي الثقافي الأثوري ببغداد وغيرها من الاندية التي كانت تعهد لسالم الالوسي عقد ندوة فيها فيحاضر فيها فؤاد اما منفرداً مع سالم الالوسي او مشاركاً مع غيره امثال حافظ جميل ، والدكتور صفاء خلوصي والدكتور علي الوردي وكمال عثمان احياناً .

وهنالك البيوت التي تستدعي المناسبة ان يترك فيها فؤاد أثره في مسجلاتها بحيث لو جمعت هذه الاشرطة لمحاضرات فؤاد ، واحاديثه الادبية لتألفت منها عشرات المجلدات من الكتب النافعة المفيدة ، والجامعة للنكات الادبية والطرائف المتنوعة ،

فؤاد عباس يخطب في الحفلة التكريمية التي اقامها الدكتور عبد المجيد القصاب في داره للوفد الثقافي التونسي والى جانبه الدكتور بيان القصاب .

وقد يتفق لي انا مشاركته في عدد من المناسبات ، وقد نتبادل أنا واياه التحرش لبعضنا متعمدين بقصد التندر .

ومن ذلك اني انشدت مرة ارجوزة طويلة في بيت سالم الالوسي وفي مجمع من الادباء ، وكان فؤاد من ضمن الحاضرين في هذا المجمع ، وقد قلت اني نظمت هذه الارجوزة في مشيتين على قدمي بين بيتي ومكتبي ، لأني لا أملك سيارة أولاً ، ولان مكتبي ليس بالبعد الذي لا يمكن الوصول اليه الا بالواسطة ثانياً ، وحين انتهيت من انشاد الارجوزة ، قام فؤاد ودعا لي الله من اعماق قلبه ـ كما قال ـ بان أظل محروما من ركوب السيارة مدى العمر ليرغمني المشي على القدمين على نظم الشعر بين حين وآخر وعلى غرار هذه الارجوزة .

وبعد يومين عاودني (النقرس) والزمني السرير في البيت ، وانقطعت عن المكتب راكباً او ماشياً ، وفي جلسة شعرية ادبية ذات يوم في بيت الدكتور عبد المجيد القصاب وبعد ابلالي ، طلب مني ان انشد شيئاً فيما يخص تلك المناسبة ، فقمت الى الميكروفون وقلت : يستبان ان بين فؤاد عباس ومسيلمة الكذاب بعض الشبه لا من حيث الكذب ـ والعياذ بالله ـ وانما من حيث المعجزات ، فقد قيل لمسيلمة الكذاب ان النبي محمداً (ﷺ) يمسح بيده على رؤوس اليتامى فتحل بهم البركة ، فافعل انت الاخر مثله فجعل مسيلمة يضع يده على رأس اليتيم فيتساقط شعر رأسه، ويغدو اقرع مفصّص الجلدة، وحين سئل مسيلمة عن ذلك ؟ قال قولوا لي ما هو معنى المعجزة غير خرق العادة ، وهذا هو من خرق العادة ، وقلت :

ودعا لي فؤاد عباس بان أظلّ ماشياً على قدمي طول دهري ، فعاودني النقرس ، وأقعدني عن المشي أياماً ، فاذا لم أشارك في هذه المناسبة فعلى فؤاد تقع التبعة في ذلك ، ومع هذا فقد انشدت ما كنت قد اعددت لذلك اليوم .

وبيت عبد المجيد القصاب من البيوت البغدادية التي اشرت اليها في محل آخر من (هكذا عرفتهم) والدكتور عبد المجيد يجمع بين براعة الطب وبراعة الادب ، وان باب بيته مفتوح لطائفة من اهل الادب والوجوه في كل يوم جمعة مساء ، وهو البيت الوحيد الذي تكثر فيه المناسبات من دعوة اهل الادب عشاء بقصد التكريم او الضيافة للزائرين من الاقطار العربية ليتحول هذا البيت الى ناد يشارك فيه الكثير من الادباء اللامعين امثال الشيخ جلال الحنفي ، وسالم الالوسي ، وخالد الشواف ، والعميد المتقاعد عبد

الرحمن التكريتي ، وجمال الالوسي ، والدكتور عبد الرزاق محي الدين ، ونعمان ماهر الكنعاني ، وطالب الحاج فليح ، وعبد الرزاق الهلالي وعبد الرزاق بستانه ، وفؤاد عباس وسليم طه التكريتي والرسام المتفنن حميد المحل والاديب علاء فؤاد وغيرهم من الادباء ووجوه البلد ، وقلما ينتهي هذا المجلس دون ان يترك فؤاد عباس طابعه الادبي فيه .

وعلى سبيل المثل اروي لفؤاد هنا قصيدة من اواخر نظمه تلاها في بيت الدكتور عبد المجيد القصاب بمناسبة تكريم الدكتور عبد الهادي التازي الذي كان قد شغل سفارة المغرب ببغداد مرتين ، واحبه العراقيون كثيراً ، وقد مرّ بالعراق عابراً فاقام له الدكتور القصاب حفلة تكريم في دارته مساء الجمعة من ١٩٧٦/١/٢٣ اي قبل وفاة فؤاد بنحو ثلاثة شهور ، وانني مدرج هنا قصيدته كطابع ابهام لهذا الشاعر المبدع ، والجامع لمختلف المواهب .

يقول فؤاد موجهاً الخطاب للقصاب :

أبا (المثنى) وأبا (البيان) ... ويا ابن بيت شامخ البنيان[1]
ذلك بيت ثابت الاركان ... ركناه في المجد دعامتان
في الفضل كانا فرسي رهان ... ولم يقصّر سائر الاخوان
عمكّم (عباس) ذو التبيان ... في الفقه والحديث والقرآن[2]
مجتهداً في طاعة الرحمن ... منقطعاً للدين والديان
في البيت ، والمسجد والايوان ... وناشراً لراية الايمان
في (سرّ من رأى) وفي (بغداد)
وعمّنا عبد العزيز الشان ... زينة دست الحكم في الديوان[3]
وفخر كرسيّ ببرلمان ... في مجلس النواب والاعيان

---

(١) مثنى ، وبيان ، ولدا الدكتور عبد المجيد القصاب ولهما ستة اخوة آخرين اشار اليهم فؤاد في البيت الثالث بالاطراء .

(٢) الشيخ عباس القصاب هو عم الدكتور عبد المجيد القصاب ، وكان من علماء الدين اللامعين ، وقد اقام بسامراء، وكان اسمها القديم (سرّ من رأى) .

(٣)هو عبد العزيز القصاب والد الدكتور عبد المجيد القصاب ، وكان رئيسا لمجلس النواب ، كما صار عينا في مجلس الاعيان .

ومن (بذكرياته) حباني وأنني من ذاك ذو امتنان[١]

* * *

وانت انت زينة الاقران وغرة في جبهة الزمان[٢]
ومجمع الاصحاب والخلان وجوهر الوفاء للاخوان
ما غيّرتك رفعة المكان وعزّة الوزير في الاوان[٣]
على الاقاصي او على الاداني بل كنت وقفاً لبني الانسان
فمن مكان والى مكان تسرع للخير بلا توان
تطبّب الجميع بالمجان حتى الدواء للفقير العاني
تصرفه له بلا اثمان اما من النموذج الاعلاني
أو بعلامات لصيدلاني[٤]
لا لن اقول صحبة الركبان بل صحبة الصحة للابدان
وصحبة العطر للاقحوان بل كالنسيم هبّ في البستان
ينقل طيب الورد للاغصان ذكركم قد سار في البلدان
من الخليجين الى (فزّان) او (تونس) الخضراء (او تطوان)[٥]
أو (تازة التازي) أخي البيان والباحث الثبت لدى البرهان[٦]

---

(١) الذكريات ، هي كتاب (مذكرات عبد العزيز القصاب) التي طبعت ببيروت وهو لا يزال على قيد الحياة وذلك سنة ١٩٦٢ واهدى لفؤاد عباس نسخة منها .

(٢) الخطاب هنا موجه لعبد المجيد القصاب .

(٣) لقد سبق لعبد المجيد ان استوزر ثلاث مرات للصحة ، وللمعارف .

(٤) كانت بعض النماذج من الادوية التي ترسل للاطباء مجانا يدخرها الدكتور القصاب للفقراء ، وان نفدت كان يؤشر على الورقة المحولة لصيدلي معين باشارة متفق عليها بان يصرف لحاملها الدواء مجانا ويدخل الثمن في حساب الدكتور ، وقليل من يفعل مثل هذا ، ومن هذا القليل عرفت الدكتور كاظم شبّر ، وعرفت الدكتور رشيد معتوق الذي كان يزيد على دفع ثمن الدواء للفقراء بان يزودهم بالثياب ، او الازر ، واللحف اذا كان الفصل شتاء وعلم ان هذا الفقير المريض معدم .

(٥) المقصود بالخليجين ، خليج البصرة ، وخليج عمان (مسقط)

(٦) تازه ، احدى مدن المغرب العربي التي ينتسب اليها الدكتور عبد الهادي التازي الذي اقيمت له حفلة التكريم ، وقد شرع فؤاد ينوه باسمه .

فؤاد عباس والدكتور عبد المجيد القصاب يتناجيان في الحفلة التكريمية التي اقامها الدكتور القصاب للدكتور عبد الهادي التازي .

والـعـالم الـمُـعَـلم في الـمـيـدان نـكـاد مـن اخـلاقـه الحـسـان
نـسـكـر لـكـن لا ببنـت الحـان ولا بـانـغـام مـن المـثـاني
مـن رنـة الاوتـار في الـعـيـدان ولا بـمـارق مـن الاغـاني
بل بصفاء النفس والوجدان
يـا طـاهـر السيـرة والـوجـدان مـهـمـا تـنـأئيت فـانـت الـداني
كـنـا نمني الـنـفس مـن زمـان ونـحـسـب الـسـاعـات والـثـواني
كيـما نـراك اليـوم في (بـغـدان) في منـزل رحب عـلى الـضيـفـان
تحاط بالاحباب والخلصان

وهناك بيت آخر أرتاده انا ويرتاده فؤاد عباس على رغم بعده من وسط بغداد لانه هو الاخر من بيوت السلف الصالحين الذي يجمع بين الادباء والوجوه في كل يوم ثلاثاء مساء ، وهو بعد ذلك يجمع بين حملة الاقلام والسيوف ، ذلك هو بيت العميد المتقاعد

عبد الرحمن التكريتي ، فهو فضلاً عن كونه عسكرياً لامعاً فانه من ارباب الفضل في ميدان البحث والتأليف ، وقد خرجت له مؤلفات في دنيا الامثال فكان لها فضل السبق في هذا النحو من التأليف .

وبيت العميد عبد الرحمن يقع في (بغداد الجديدة) ومع ذلك فاننا نقصده على بعده متمتعين بما يجري فيه من سمرٍ يدور حول كل شيء باستثناء السياسة وشأن فؤاد هنا في البيوت شأنه في الاندية : محدث بارع ، ومعلق ساحر ، وفكهي غاية في سبك النادرة ، واذا تحدث ينصت اليه الجميع .

وفي بيتنا كثيراً ما يجّر الحديث الى المناقشات والمباريات الشعرية ، وآخرها كان قبل وفاة فؤاد بايام . فقد كانت الجمعية التاريخية ببغداد قد دعت الباحث المؤلف (عبد الفتاح عبد المقصود)لزيارة العراق،وقد رأيت أنا من المناسب دعوته لتناول العشاء في بيتي ، ولأنه كان يصحب معه زوجته وابنته الجامعية ، فكان لا بد من دعوة الادباء وزوجاتهم لهذا العشاء وقبل القيام الى المائدة انشدت عبد الفتاح عبد المقصود الابيات التالية على سبيل المعذرة وقلت :

كل ما في الوجود مما ترى ... العين وما لا ترى من الاجرام
ان تأملت كنهه لم تجده ... غير مجموعة من الاوهام
تشرق الشمس كل يوم نهاراً ... ويعم الضياء كل الانام
وكما أشرقت تغيب كأن الارض طراً تعممت بالظلام
وتمرّ الايام ترزح همّا ... كمرور الافراح في الايام
اين ولّى من كان بالامس يقظاناً وفي الليل حالماً بالمنام
كل هذا وهمٌ أصدقت كلامي ام لم تصدق كلامي
فالذي مرّ من حياتك من حلو ... ومرّ سيستوي في الختام

* * *

يا ابن (عبد المقصود) إن أنا ... أطعمتك خبزاً جشباً بدون إدام
فتوهّمه وجبة من طعام ... هي اشهى ما تشتهي من طعام
وتخيلّه ما تشاء لحوماً ... من فراخ مشوية وحمام
كل شي يلذ بالوهم حتى ... الماء لو خلته الحمّيا بجام

واغتفر لي المغموس بالوهم خبزاً ثم اقصر في معتبي وملامي
فاغتفار الذنوب والصفح طبع هو من شيمة الرجال الكرام

وهنا رويت لهم عن شاعر اديب في القرون الاسلامية السالفة وقد أبى أن يتكسب بالشعر كما كان يفعل امثاله ، فعمل ناسخاً عند احد الوراقين ، ولما لم يكن خطه جيداً فقد كانت اجوره اليومية زهيدة تكاد لا تكفي للخبز والملح الذي يتطلبه بيته وعياله ، وجزع الاولاد من تكرار الخبز والملح في كل يوم ، وطالبوا الأب بشيء من الأدام الشهي ولو لوجبة واحدة في الاسبوع ، وما زالوا يلحون في طلبهم حتى ضاق بهم ابوهم ذرعاً ، وهناك أجلسهم وأمهم معهم وقال لهم : كونوا واقعيين منطقيين ، واجعلوا العقل رائدكم في الحياة ، واذا فعلتم هذا فستجدون ان كل الحياة ومن فيها انما هي اوهام واخيلة ، فاذا جلستم في الصباح للفطور فليتناول كل منكم لقمة من الخبز ، وليتوهم انها مغموسة بالزبدة والعسل ، ثم يمضغها كأنها زبد وعسل ، ثم ليتناول لقمة اخرى وليتخيل انها محشوة بالبيض والزيتون ، وليُوح لنفسه بانه انما يأكل بيضاً وزيتوناً ، وهكذا فليكن غداؤكم وعشاؤكم ، توهموا انكم تأكلون دجاجاً وسمكاً ولحم ضأن ، فانتم والذين اكلوا الدجاج والسمك ولحم الضان حقا ، ستكونون سواء في النهاية ، أليس كذلك يا زوجتي ويا اولادي ؟ الم تكونوا سواء في النهاية كما لو كنتم قد اكلتم كل ذلك .

ثم قلت لعبد الفتاح عبد المقصود : ليكن هذا الوهم سبيلك اذا قمت الى مائدتنا ولم تجد غير الخبز الجشب ، أما هؤلاء الادباء المدعوون بقصد تكريمك وزوجاتهم فما عليك منهم لأنهم قد الفوا ذلك في هذا البيت فلا حاجة لتعريفهم بالوهم وفعله في الحياة .

وهنا انبرى فؤاد عباس معقباً وقال :

لقد سئل اديب معدم عما يتناول في فطوره ؟ فقال : اتناول قدح ماء فاتخيله كوب حليب مشبع بالدسم ، ثم اتناول كسرة خبز فاغمسها بالماء ، واتوهم اني قد غمستها بالسمن والعسل ، ولم اكتف بهذا بل أبدأ بالتجشؤ كتجشؤ المتخوم باطيب المأكل ، فقيل له والغداء ؟ وماذا يكون غداؤك ؟ قال اتخيل ان أمامي رأس خروف هو المعروف (بالباجة) واكرعة مسلوقة ، وثريداً بحساء الكراع متبّلاً بالتوابل ، ومزعفراً بالزعفران . . .

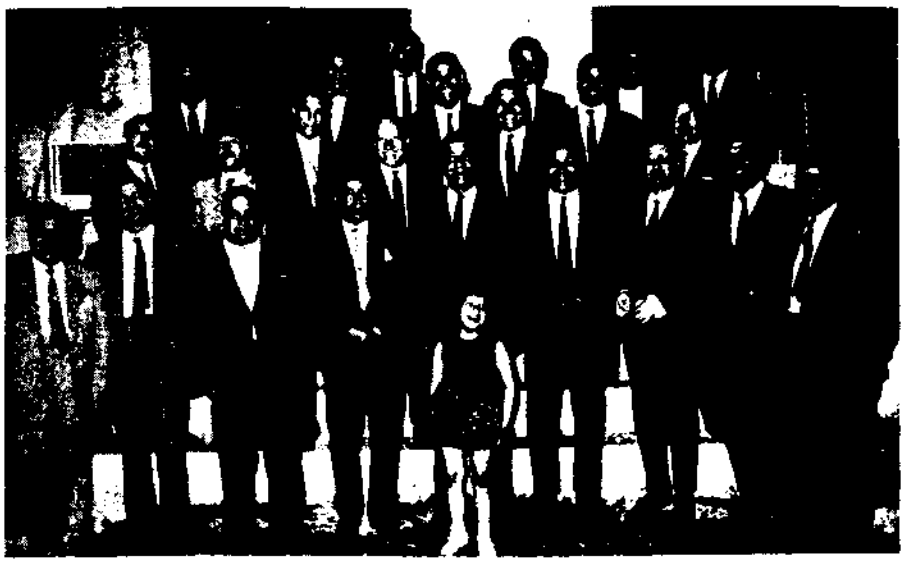

في حفلة عشاء ادبية ببيت ناجي جواد ـ من اليسار الدكتور علي الوردي ، مير بصري ، الدكتور مصطفى جواد ، جعفر الخليلي (المحتفى به) فؤاد عباس ، محمد حمد النجار ، الدكتور اكرم الوتري ، عبد الرزاق الهلالي ، فخري جواد .

الصف الثاني من اليسار ، عدنان حبه ، خضر عباس الصالحي ، الدكتور حسين امين ، ناجي جواد الداعي للاحتفال ، حارث الراوي ، عبد الحميد المحاري ، وحيد الدين بهاء الدين ، انور شاؤول ،

الصف الثالث ـ عبد المنعم الجادر ، سلمان شكر ، مشكور الاسدي ، صادق القاموسي ، عبدالغني الخليلي ، واخرون .

فقيل له :والعشاء ، فما عسى ان يكون عشاؤك ؟

قال ـ غفر الله لكم ، ما أشد غباءكم !! فهل الذي يكون غداؤه على هذه الشاكلة وهذا الصنف من الطعام أيكون قادراً على ان يتناول شيئاً في العشاء ؟

وعند انتهائنا من تناول العشاء كان فؤاد قد حضرته أبيات مرتجلة بارى فيها مقطوعتي المتقدمة ، وقرأها على الحاضرين ، وفي اليوم الثاني كان قد هذبها وبيضها وصحبني الى الفندق الذي يقيم فيه عبد الفتاح عبد المقصود لكي نودعه ورافقنا في السيارة الصديق الشاعر محمد صادق القاموسي ، وقدم هناك فؤاد لعبد الفتاح مقطوعته وفي صدرها هذه الكلمة :

« نظمت والقيت في دارة » جعفر الخليلي في حفلة عشاء خاصة اقيمت مساء

الاربعاء ٧/٤/٩٧٦ ترحيباً بالاستاذ الكبير عبد الفتاح عبد المقصود بمناسبة تشريفه بغداد ، وقد بدأ مقطوعته بتوجيه الخطاب لي قائلا :

يا كريما ويا ابن آل كرام ... اريحي الاخوال والاعمام
كعبة القاصدين بيتك هذا ... فهو للوافدين خير مقام
قد سرينا اليه من كل صوب ... وحللناه مع حلول الظلام
فالتقانا يفيض نوراً وبشراً ... أشرقا من (فريدة) و(ابتسام)[1]
واغتبقنا منك الزلال المصفى ... من حديث يفوق صفو المدام
واصبنا من كل صنف ولون ... من طعام يفوق كل طعام
لا كما قلت: شهوة الاوهام ... أنقتها امنّية الاحلام[2]
وحمدنا لقاء ضيف هو (المقصود) بالتهنئات والاكرام
أجزل الله أجره من (امام) ... كرّم الله وجهه من امام[3]
وشكرنا مضيفا سوف يبقى ... شكره دأبنا على الايام

وتحت هذه القطعة كعادته في كل ما يكتب ـ سجلّ توقيعه وعنوانه والتاريخ بغداد ـ المنصور ـ الدار ٩/٣٥/تلفون ٥١٤٢٩٣ او ٥١٤٢٩٤ ـ فؤاد عباس، وقد اعتاد فؤاد في الغالب ان يضع رقم تلفونه الذي زيد على اوله رقم خمسة وفيما بعد ورقم تلفون شقيقة زوجته المتصل بيتها ببيته حتى اذا لم يتم الاتصال به عن طريق تلفونه تم الاتصال به وبقرينته عن طريق تلفون شقيقتها ، وقليلاً ما صادف ان يكون وزوجته في بيتهما في الاوقات الاعتيادية من النهار لذلك كنت اجرب الاتصال به وبقرينته ، برقم بيت الشقيقة ، فاجدهما معاً او أجد احدهما ، ولكثرة ما كان يجري اتصالي عن طريق بيت شقيقة السيدة نزهت خشيت مازحاً ان يبيع هؤلاء بيتهم ويهربوا الى محلة اخرى بسبب الازعاج بل لقد بلغت دعابتي ان سألت فؤاداً كما لو كنت جاداً ، لقد سألته : وهل تتناولان انت وقرينتك غداءكما وعشاءكما في بيت الشقيقة؟ فقال : وما يدريك ان لا نفعل ذلك ، قلت اذن لن تمر أيام حتى ويبيع هؤلاء بيتهم ويهربوا منكما : وهنا قصصت

---

(١) فريدة وابتسام كريمتا . . . الخليلي (فؤاد) .

(٢) اشارة الى ما ورد حول أتوهم في قصيدة الخليلي (فؤاد) .

(٣) اشارة الى كتاب الاستاذ عبد الفتاح عبد المقصود عن الامام علي (ع) (فؤاد) .

عليه قصة حبيب الحار .

حبيب الحار هذا كان احد شيوخ(النجف) الذي يترأس طائفة من حملة البنادق في أيام معارك (الزكرت والشمرت) وكان يجلس للناس في كل ليلة في بيته فيزوره اصدقاؤه ومعارفه متخذين من بيته ندوة عامة . وكان الى جواره يسكن حطّاب يبكر في الخروج من المدينة الى الصحراء فيحتطب ، واذا ما باع حطبه عاد بحميره وربطها في الشارع أمام بيته ، وكثيراً ما كانت هذه الحمير تسدّ الطريق على المارة وتجعل مرورهم صعباً ، وبخاصة اولئك الذين يؤمون ديوان حبيب الحار ، وماذا يستطيع حبيب ان يعمل مع هذا الجار غير ان يعرض عليه شراء بيته وباي ثمن يريد ، ولكن الحطاب كان يرى في بيته اثراً من آثار أبيه فلا ينبغي ان يفرط به لا سيما وقد ولد فيه وربما ولد ابوه وجده كذلك في هذا البيت .

وكان باستطاعة (حبيب الحار) ان يخرج الحطاب بالقوة ويطرده من البيت حتى بدون ثمن لما كان له من نفوذ وقوة في تلك الايام ، ولكن شهامته ، ثم استنكاره ان يستعمل القوة مع رجل حطاب ضعيف حالت دون ذلك فجاء اليه من طريق آخر .

لقد نادى حبيب جاره الحطاب ذات ليلة الى ديوانه وقال له: ان أهل المحلّة يشكون من انقطاع رزقهم في هذه الايام ويعزون ذلك الى احجام احد سكان المحلة عن اداء فريضة الصلاة ، وقد ساء بعضهم الظن بك ، وقالوا اذا كان هناك من يستهين بهذه الفريضة ويعزف عن ادائها فهو هذا الحطاب لا غيره ، فاقسم الحطاب انه لم ينقطع والله عن اداء الصلاة ولا مرة في عمره ، وان ما يقولونه مجرد سوء ظن لا غير .

قال حبيب ولكي نبرهن لهؤلاء السكان على خطئهم وسوء ظنهم فما عليك الا ان تصحبني في كل غروب شمس لنصلي في الصحن الشريف مؤتمين (.بالشيخ علي رفيش) والشيخ علي رفيش ، شيخ زاهد ، عابد ، اذا ركع او سجد في الصلاة يطيل الركوع والسجود اطالة لا يقوى عليها الا اصحاء الابدان والاقوياء من الناس .

وحاول الحطاب التخلص من حبيب الحار فلم يفلح ، وقال له حبيب الحار : بهذا تستطيع ايها الجار ان ترد السهم الى نحور هؤلاء السكان ، قال ولكني حين اعود في مثل هذه الوقت الى البيت اعود وانا منهك الاعصاب ، خائر القوى ، فكيف تريد ان اصلي خلف امام كالشيخ (علي رفيش) ؟ قال حبيب ولكني انا لم اسلم بعدل أحد غيره

لكي أصحبك الى أمام آخر، وانت تعلم ان صفة العدل عند الامام شرط أساسي عند الشيعة .

وصحب الحطاب حبيب الحار الى صلاة الجماعة خلف الشيخ علي رفيش ، ونوى وأقام وقرأ الشيخ الأمام في الاقامة سورة الفاتحة واعقبها بصورة ياسين ، وحمد الحطاب ربه ان لم يعقب الشيخ الفاتحة بسورة البقرة ، وركع المؤتمون خلفه ، وراح يقرأ (سبحان ربي العظيم وبحمده ، ويكرر سبحان ربي العظيم وبحمده) عشراً ، وعشرين ، وثلاثين ، واذا بالحطاب يلّك حبيبا في خاصرته ويقول له بالعامية (حبيب بيش تشتري الحوش) اي بكم يا حبيب تدفع بالبيت ثمناً ؟

وهنا سمعت فؤاداً ينادي زوجته الست نزهت ويقول لها على سبيل المزاح : اخاف ان يبيع اهلك بيتهم وان تكون قصتهم كقصة الحطاب .

وعلى الرغم من سقوط الكلفة بيني وبين فؤاد ثم على الرغم من قربي له وقربه لي ، فقد كان يأبى الا ان يظل مغالياً في اظهار محبته لي، ويبالغ في تكريمي حتى في مخاطبتي ومحاورتي ومصاحبتي ، وهكذا يفعل معي الدكتور احمد سوسه ، وهكذا كان يعمل معي الدكتور مصطفى جواد كما لو كنت غريباً عنهم ، على ان سلوكي لم يكن ليستوجب ذلك ليستدعي الامر الى مجاملتي بهذه الصورة ، فانا كثير الدعابة كثير المزاح ، كثير التحرش بالاصدقاء في المجالس الخاصة وان كان هذا التحرش لم يخرج عن حدود الادب كما يقولون ، ثم انني نجفي ، وازعم ان النجفيين يتقبلون النكتة حتى على انفسهم ، والكثير منهم اذا اشتدت الالفة بينهم وبين اصدقائهم سقطت الكلفة بينهم فليس هنالك شي من مجاملة ، او مقتضيات تستدعي ان يعامل بعضهم بعضاً معاملة الدبلوماسيين للاخرين ، وانا اعزو ذلك الى سمو الاخلاق عند هذه الطائفة من الناس والاّ فهم مثلي في تندرهم ،وتفكههم ،وتبذلهم في مجالس اصدقائهم الخاصة ، وهذه رسالة صغيرة ترك فؤاد مثلها العشرات في بيتي أو في مكتبي ، او ارسلها اليّ مع احد اصدقائي ، وهي رسالة اجدر بأن ترسل لمن لم تزل الكلفة قائمة بينهم لولا الخلق الكريم الذي يتحلى به فؤاد وامثاله ، فلقد مرّ بي فؤاد ذات يوم في المكتب فلم يلقني فترك لي هذه الرسالة :

« سيدي الاستاذ أبا فريدة

تحية ومودة ، وبعد : فان سوء الحظ كثيراً ما يلازمني ـ خلافاً لظن بعض الناس ـ

وهذه احدى المرات التي لم يسعفني الحظ بالحظوة في حضرتكم (كذا) وهذا عقاب من يأتي على غير ميعاد ، ولو كنت حظيظاً (كذا) لانطبق علي المثل : « رب صدفة خير من ألف ميعاد » وخيرها في غيرها ان شاء الله .

هل استطيع ان اغنم لقاءكم (كذا) غداً الخميس ـ صباحاً بعد العاشرة مثلا ؟ إن حصل هذا فهو امنية » (كذا) .

اربعاء ٩٧٤/٩/٢٨ فؤاد عباس

أليس في هذا من الادلة على سمو الخلق ما يكفي الذين لم يعرفوا فؤاداً ، إذ ما هي الحاجة لمثل هذا التكريم والتبجلة والتواضع بين صديقين حميمين انطبق عليهم المثل المعروف (رب اخ لم تلده امك) كل الانطباق ؟

ويوم اقامت السفارة المغربية ببغداد حفلة تكريم للدكتور احمد سوسة ، بمناسبة تسلمه وسام (الكفاية الفكرية) الذي تفضل به عليه جلالة الحسن الثاني ملك المغرب العربي وذلك مساء الاربعاء المصادف ٩٧٦/٣/٢٤ كنت انا في الكويت تلبية لدعوة تلقيتها ولو كنت ببغداد لكان المفروض ان اكون من ضمن الذين يشاركون في هذا التكريم اذا لم اكن في الطليعة منهم ، وذلك لقربي من الدكتور سوسة ومحبتي له ، ولكن لنسمع هذا الذي جاء في ضمن خطاب فؤاد عباس عني ، وسنعجب من هذه الدماثة ومن هذا الخلق العالي عند من سقطت الكلفة بينه وبيني ، فلم يعد هناك ما يستدعي كل هذا (الاتيكيت) الذي يجري عادة بين الدبلوماسيين المهذبين فقط .

ففي الكلمة التي القاها فؤاد في احتفاء السفارة المغربية بالدكتور احمد سوسة جاء ذكر كتاب الدكتور سوسة (العرب واليهود في التاريخ) فقال فؤاد :

« . . . ولو قيل ان كتاباً يعدل كتيبة لكان ذلك كتاب الدكتور سوسة (العرب واليهود في التاريخ) ولو قيل ان رأيا اقوى من قنبلة ، لكان ذلك رأي الدكتور سوسة في ان الذين عبروا مع موسى من مصر الى سيناء ثم الى فلسطين لم يكونوا اسرائيلين ، ولم يكونوا من نسل ابراهيم او يعقوب ، بل كانوا مصريين هربوا مع موسى لايمانهم بالتوحيد ايماناً يخالف ايمان فرعون مصر آنذاك ، وعليه فلا علاقة تاريخية للاسرائيليين بفلسطين . هذا الرأي الذي ارتفع صداه خارج البلاد العربية في مجلات وصحف اجنبية عديدة ، والذي فصّله في كتابه (العرب واليهود في التاريخ) كان المحتفى به قد أجمله قبل ذلك في قسم القدس من (موسوعة العتبات المقدسة) التي يصدرها الاستاذ

في بيت طالب الحاج فليح المحتفي بالخليلي بعض مودعي جعفر الخليلي بعد انتهاء حفلة اليوبيل الذهبي بمناسبة مرور خمسين سنة على مزاولة الأدب ،ويرى فؤاد عباس في مقدمة الصورة من اليسار، وبين الواقفين الدكتور سوسة والدكتور محمد صالح عبد المنعم ، وعبد الرزاق الهلالي وهو يصافح الخليلي .

الاديب الكبير جعفر الخليلي (كذا) هذا الصديق الوفي الذي كنت اتمنى لو كان حاضراً ليشاركنا هذا الابتهاج بهذا التكريم ، ولكنه اضطر الى السفر الى الكويت تلبية لدعوة كريمة لم يسعه رفضها ، كما لم يسعه تأجيلها ، فذهب والاسف الشديد يعتصره لانه لم يستطع ان يحضر فيسهم في اداء ما يراه فرضاً،واجب الاداء نحو صديق يحبه اعمق الحب ، ويحمل له اخلص التقدير والاعزاز ، فرجاني ان انوب عنه في الاعتذار ، وان انوب عنه في القاء كلمة ، وهيهات فلن يبلغ الظالع شأو الضليع ، و(يا ليت شعري هل قلت الذي يجب) » .

وانا اقسم وبدون اي تواضع ومجاملة لذكرى المرحوم فؤاد عباس ، اني لو كنت حاضراً لما اسطعت ان اقول في الدكتور سوسة ، وعلمه ، وما اسداه من افضال مثل الذي قاله فؤاد عنه في خطبته ، ثم اني متأكد بأني لم أستنبه ، ولم أطلب منه ان يشير اليّ ، ولكن فؤاداً وقد اعتاد ان يحضني المحبة والمودة والذي أبى ان يسقط الكلفة بيننا ونحن في مثل ذلك الصفاء والقرب ، لم يكتف بالاسف لغيابي عن حفلة تكريم هذا

الصديق ، وانما راح يضفي علي من الصفات والافضال ويبالغ في التواضع بنفسه حتى قال : (وهيهات فلن يبلغ الظالع شأو الضليع) وانا احاشيه ان يكون ظالعاً في هذا الميدان ، وانا اعلم بنفسي من غيري بأني لست من الضلّع الذين يعنيهم فؤاد ولكن محبته لي وقد لمست الكثير الكثير منها ، وسمو اخلاقه ، ولطف شمائله ، هي التي تأبى الا ان تجعل بيني وبينه ما يشبه الحجاب الذي طالما اخجلني .

ولست انسى حسن مواساته لي في وفاة زوجتي التي عبّر عنها في مقطوعة شعرية دفع بها الى الخطيب المعروف الشيخ موسى اليعقوبي لينشدها بالطريقة النجفية ، في اليوم الثالث من مجلس التأبين(الفاتحة) ، والنجفيون يرتلون الشعر وينغمونه ترتيلاً وتنغيماً يزيد الشعر جاذبية وسحراً ، وقد مّر حديث انشاد الشعر عند النجفيين في غير هذا المحل من كتابي (هكذا عرفتهم) وهذه المقطوعة هي احدى واجهات فؤاد العاطفية ومحبته الخالصة نحوي قال فؤاد في تعزيتي :

اخي جعفراً

عهدتك من جزع اكبرا ... ومن جلّ من صبروا أصبرا
فكم قد اغارت عليك الهموم ... وكم رجعت ظلّعاً حسّرا
بلى صادفت منك جلد الرجال ... ولاقت بك الليث ليث الشرى
فيا علماً قد اغار الثريا ... ويا جعفراً قد اغاث الثرى
اليك بمن قد مضى اسوة ... نبيّ الهدى ووصي الورى
خديجة فارقت المصطفى ... وفاطمة فارقت حيدراً
واخرى (ابو حسن) قالها ... الى اشعث يوم قد ذكّرا
اعيذك بالله مستعبراً ... وارجو لك الله ان تؤجرا

بغداد ـ المنصور ـ الثلاثاء ١٢/٩/١٩٧٢ فؤاد عباس

وفي ربيع سنة ١٩٧٤ جرى في ذهن سالم الالوسي الامين العام لمعهد الوثائق العربية ـ وكان قد مرّ على مزاولتي الادب والتأليف والصحافة اكثر من خمسين سنة ـ لقد جرى في ذهن سالم الالوسي ان يقيم لي في بيته حفلة تكريم بمثابة يوبيل ذهبي ، وبوغت والله بالسبب والمناسبة ، وكل ما كنت قد علمت به هو ان هنالك دعوة سيقيمها الالوسي في بيته ، وقد اطلعني على اسماء المدعوين ، وقد غصّ بيته بالمدعوين من رجال الفضل والادب ، ولم أعرف المناسبة الا حين وقف صاحب الدعوة يفتتح الحفلة ويذكر

السبب والمناسبة ، فاذا بها حفلة تكريم بمناسبة مرور اكثر من خمسين سنة على مزاولتي الادب ، وهناك قام كل واحد من الحاضرين وبدون استثناء ، ووقف خلف الميكروفون يطريني ويعدّد لي مناقب لا أجدني أهلاً لها ، وكانت للشيخ جلال الحنفي قصيدة في مائة بيت وأربعة أبيات انتزع فيها كل فضائله واضفاها عليّ ، ثم كانت هناك خطبة ضافية وفي غاية من البلاغة للشاعر الدبلوماسي الكبير خليل الله الخليلي سفير الافغان في الدول العربية وعميد السفراء ببغداد ، وجاء دور فؤاد عباس ، فقال فيّ الذي اعتاد ان يقوله ، وكانت حصيلة هذا الحفل الزاخر باهل الادب شريطاً مسجلاً باصوات رهط من خيرة ادبائنا وفحولهم ، ثم كان هناك عشاء من افخم الاعشية ، تتصدر المائدة كعكة التكريم كان عليّ ان اتولى شقها بالسكين فخجلت والله واحجمت عن التقدم اليها ، وقد عدّ اهل الادب هذا التكريم باباً من أبواب تكريم الادباء في حياتهم انفرد بفتحه سالم الالوسي ، ورجوا أن يقتدي به الاخرون في انتهاز الفرص ، والمناسبات ليكرم الادباء الاحياء الذين اعتاد الناس الا يذكروهم الا بعد موتهم .

جانب من الاحتفال الذي اقامه طالب الحاج فليح لجعفر الخليلي بمناسبة يوبيله الذهبي في مزاولة الأدب ، ويرى من اليسار فؤاد عباس ، كمال عثمان ، الدكتور علي الوردي ، جعفر الخليلي (المحتفى به) الدكتور احمد سوسه ، مشكور الاسدي ، الدكتور محمد صالح عبد المنعم .

وعزّ على فؤاد ان لا يكون هو الاول في هذه اللفتة ومع ذلك فقد قبل أن يسبقه الى ذلك صديق مثل سالم الالوسي ، وجاء فؤاد يعرض عليّ فكرة قيامه هو أيضاً بالتكريم وقد والله اصررت وألححت على أن أحول بينه وبين القيام بمثل هذا لا سيما وانا اعلم ان المبتلى في كل ذلك ستكون عقيلته الكريمة ، اذ ليس لفؤاد غيرها ، ولكن فؤاداً الذي لم يعرف العناد طوال عمره كان عنيداً كل العناد في هذه المرة .

وكانت حفلة يوبيل ثالثة أقامها فؤاد بدارته العامرة المجاورة لميدان سباق الخيل في (المنصور) ببغداد ، وقد حضرها رهط من مشاهير الأدباء الذين سماهم فؤاد بالخلان ، وكان السفير الشاعر الكبير خليل الله الخليلي في طليعة هؤلاء الخلان ، وكان هذا السفير الذي يعتبر من العلماء في العلوم العربية كثيراً ما كان يقول من باب التواضع منه طبعاً ، ويكرر قوله بأنني لست أنا وجعفر الخليلي متفقين في النسبة وحسب ، وانما نحن متفقان في كل شيء .

وكانت على مائدة فؤاد العامرة باطايب الطعام من مختلف الأغذية واشهاها كعكة ترمز الى التكريم ، وقد طلب مني القيام بشطرها ، وفي هذه المرة كانت لي الجرأة التي أضعتها في بيت الصديق الغالي سالم الألوسي فقمت بتقطيع الكعكة كما ينبغي .

واحب فؤاد ان يعارض قول الشاعر السيد جعفر الحلي الذي سئل عن اي المحمدين محمد القزويني أم محمد الطباطبائي ـ وكلاهما من كبار العلماء ـ افضل واعلم ، واجل من الثاني فقال :

شتان بين محمد ومحمد ذا طبطبائي وذا قزويني
انا اعرف الرجل المفضل منهما بالله لا تسأل عن التعيين

اقول لقد احب هنا فؤاد ـ ونحن في مجلس ادب ، ومرح ، وفكاهة ، وحديث تكريم ـ ان يعارض قول السيد جعفر الحلي المشهور ولو بشكل آخر فتلا علينا ابياتاً تضمن البيتان الأوليان المقارنة بيني وبين الخليلي السفير فقال فؤاد :

لا فرق بين خليلنا وخليلنا هذا عراقي وذا افغاني
وكلاهما عند التفاضل واحد مهما بحثت فما له من ثان
كل خليل منكم يا سادتي وبه تنور مجمع الخلان
انتم ، وان كان السباق جوارنا اجواد فضل لا جياد رهان

صورة تذكارية

جانب من الحفلة التكريمية التي اقامها الاستاذ سالم الالوسي الامين العام للمركز الوطني للوثائق بوزارة الثقافة والاعلام لجعفر الخليلي بمناسبة يوبيله الذهبي في مزاولة الأدب والصحافة والتأليف ، وذلك في مساء ٩٧٤/١/١٣ .

والجالسون من اليمين ـ كمال عثمان ، فؤاد عباس ، جعفر الخليلي (المحتفى به) ، خليل الله خليلي سفير الافغان وعميد السفراء في العراق ، الدكتور احمد سوسه ، مشكور الاسدي ، خالد الشواف .

والواقفون من اليمين ـ الدكتور عبد الله الجبوري ، نافع قاسم رئيس ديوان الاوقاف العام ، فاضل مهدي ، مير بصري ، الدكتور محمد صالح عبد المنعم ، الدكتور عبد المجيد القصاب ، الشيخ جلال الحنفي ، غادة سالم الالوسي ، القائم بالتكريم في بيته العامر الاستاذ سالم الالوسي الامين العام للمركز الوطني للوثائق .

وأعقبت هذه الحفلة التكريمية حفلة تكريمية كبرى باسم (اليوبيل الذهبي) في دارة الشاعر المعروف الحاج طالب الحاج فليح كانت هي الأخرى عامرة بما لذ من الطعام وطاب وبما القي في هذه الحفلة من الكلمات والقصائد الشعرية ، كان فؤاد

فيها من الخطباء المجلين في البلاغة ، ومن المبالغين في الأطراء ، ولهذه الحفلة التكريمية الكبيرة مكان آخر لذكر ما تخللها من ادب ، وشعر ، وخطب لا يسمح تاريخ الأدب بالتغاضي عنها واهمالها اذا حان الوقت المناسب .

ولم تكن عواطف فؤاد نحوي ، والمجاملات التي لا ينبغي ان تكون الا مع الغرباء محدودة ، فقد اولاني فؤاد الشيء الكثير من تلك العواطف والمحبة والمجاملة ، وحين جعلني الدكتور توماس هامل الأميركي موضوع اطروحته متفضلاً ونال بها الدكتوراه من جامعة (مشيغن) باسم (جعفر الخليلي والقصة العراقية الحديثة) وطبعت الأطروحة بالأنكليزية وقام وديع فلسطين والدكتور صفاء خلوصي بترجمتها الى العربية كان فؤاد عباس اول من فكّر في انتداب بعض الأخوان من رجال الثقافة والأدب لطبعها ، ولقد توفي وفي جيبه صك بمأتين وخمسين ديناراً تسلمه من الدكتور علي الصافي كمشاركة في هذا الموضوع الذي اسهم فيه الدكتور عبد المجيد القصاب ، والعميد المتقاعد عبد الرحمن التكريتي ، والدكتور احمد سوسة ،وسامي خوندة ، وناجي جواد الذي اختاره فؤاد ليكون المتولي والمشرف على طبع الأطروحة ، وغيرها الكثير من العواطف والمحبة ، وكثير من المجاملات التي لا لزوم لها بين الأحباب .

* * *

وقد لا يخلو الانسان من تطرف او ما يعتبر شذوذاً في النزعات والميول ، والأفكار وحتى في الأفعال ، وقد كان فؤاد كذلك لا يخلو من التطرف ولكنه تطرف له من يشاركه فيه الكثير في دنيانا هذه ، فلقد كان على رغم حبه المرأة ـ كما سبق ـ عازفاً عن الزواج ، وكثيراً ما جرت بيني وبينه مناقشات حول هذا الموضوع ، ولم يكن يخيفني من عزوفه عن الزواج الا غربته ، وضياعه اذا ما توفيت اخته التي يعيش واياها في بيتها في الأعظمية وحيدين ، وان اخته هذه ـ وهي ام الدكتور فيصل الخالصي الذي ربّاه فؤاد واشرف على تعليمه ـ تعتبر بمثابة امه ، فهي التي ربت فؤاداً ، وتولت شؤونه بعد وفاة امه ، وهي تكبره بعدة سنين ، فما هو مصيره بعد هذه الأخت ؟

ان العازفين عن الزواج لا بد وان تكون لهم من الوسائل ما تضمن لهم الحياة رتيبة او شبه رتيبة في دور العجز والشيخوخة ، ولا سيما الذين يعيشون في الغرب والذين لهم من المال ما يقيم اودهم الى نهاية العمر بالكيفية التي يتمنونها او ببعض الكيفية ، اما فؤاد فما الذي سيفعل اذا ما اقتضت ارادة الله ان ترحل اخته من الدنيا ؟ أفيحسب انه ـ

يستطيع بما له من راتب ـ وان كان يزيد عن حاجته ـ ان يسدّ خلّة هذه الغربة ؟ غربة النفس ، ويحول دون الضياع ، ضياع نفسه ؟

ولكن فؤاداً كان يخاف الأنجاب ، يخاف ان يكون له اولاد ، ولم يكن يكره الأولاد، وانما كان يعتقد انهم سيكونـون وبالاً عليه ، وسينغصون له عيشه ، فلا يدعونه يقرأ ، ولا يدعونه يسافر ، ولا يدعونه يتمتع بالحرية التي تمتعه بها العزوبة .

وللذي اتيح لهم ان يشهدوا الفلم المصري (من اجل حفنة اولاد) ببطولة رشدي اباظة ، وعبد المنعم مدبولي ، وسهير المرشدي ، سيكون لهم كل الحق او بعضه اذا اتخذوه ذريعة للعزوبة ، او اذا تخوفوا من انجاب الاولاد ، واتخذوا لانفسهم الحيطة بأية طريقة يرتؤونها .

وكنت انا ارى رأي فؤاد في الأولاد ولكن لحد ما وليس لذلك الحد الذي يصل فؤاد اليه ، وكنت احاججه ، وآتيه بالدليل تلو الدليل بأن بإمكانه ان يحدّد انجاب

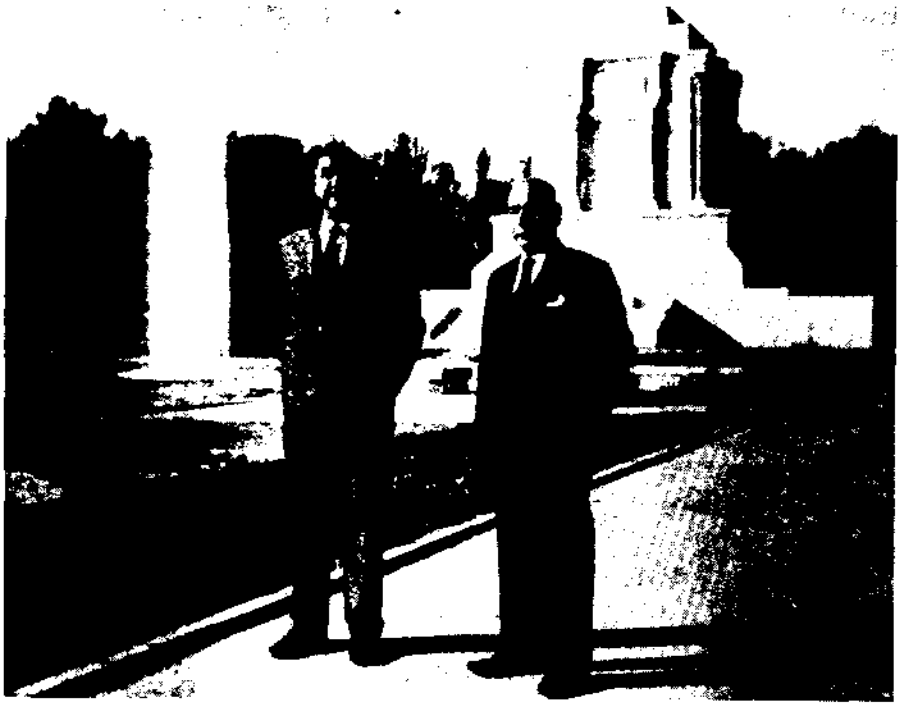

امام ضريح الفردوسي بطوس

الأطفال بالوسائل الطبيعية التي تكاد تكون مضمونة ، ولم أزل به حتى الآن ، وصارت حججه بعد ذلك : اين هي تلك المرأة المقبولة ، ذات الوجه الصبيح ، والبسمة المشرقة التي تعنيني اكثر من كل شيء ؟ واين هي المرأة ذات المزاج الهادىء الملائم لمزاجي ؟ والذي يتحمل تطرفي في بعض ميولي، هذا التطرف الذي، تسميه انت (بالتفلت) اين هي ؟ اين ؟

ولست ادري كم مرّ على تلك المناسبات التي كان يجري فيها مثل هذا الحوار حين جاءني فؤاد ليقول لي ما قاله (ارخميدس) ، واخيراً وجدتها .

وانا اعرف جيداً انه وجد في السيدة نزهت الوسواسي المرأة التي كان يظن انه لن يجدها، وانها بحق كانت السيدة التي تملأ النفس، فملأت نفسه، وكانت شريكته الأثيرة ، وظلت ملء قلبه حتى مات ، واني اعتقد انه سيظل هو ملء قلبها الى الأبد .

ومن تطرفه ، او من شذوذه، او ما شئت فسمّه ، انه على غزارة معرفته ، وكثرة قراءته فإنه يحجم عن البحث والكتابة ولو بصفة واحدة ، لأنه يرى ان الخلود بعد الموت وهمٌ من الأوهام، وان هذا الوقت الذي يقضيه بالبحث والكتابة جدير بأن يقضيه بالقراءة والمطالعة ليمتع نفسه بها اضعاف ما يمتعها بالكتابة، واذا كانت هنالك متعة حبيبة الى النفس يقول فؤاد فلماذا تقتصر هذه المتعة على القلم وهو - اي القلم - يكلف الباحث من الجهد والعناء مالا تكلفه القراءة والمطالعة لذلك حين قمت انا بتأليف (موسوعة العتبات المقدسة) لم أنط به فيما نطت بالأخرين من البحوث التي يشاركوني فيها بالتأليف كلا حسب اختصاصه، غير اختيار الشعر المناسب لموضوع كل جزء من الأجزاء التي لم يصدر منها غير ثلاثة عشر جزء ، لعلمي بصفته، هذه الصفة التي كنت

فؤاد عباس والمؤلف امام ضريح الخيام بنيسابور

أسميها (بالتفلت) ويسميها غيري (بالكسل) او التكاسل ، وليس والله ذلك بالكسل او التكاسل ، وانما هو هذا الضرب من التطرف او الشذوذ .

وحين قمت بزيارة مكتبات ايران بحثاً عن المخطوطات والمصادر التي تخص جانبا من تاريخ خراسان لأخراج الجزء العاشر من (موسوعة العتبات المقدسة) كان معي فؤاد يجول بين هذه المخطوطات ويسجل منها في مذاكراته ما يهمه ويعنيه ، دون ان يكون لجزء خراسان من (الموسوعة) نصيب منه ، وإذا لم تكسب (الموسوعة) نفعاً منه في هذه السفرة فقد كسبت انا من المتعة في صحبته ما تتجاوز حدود الوصف ، خصوصاً وقد طالت سفرتنا ، وامتدت الى جهات بعيدة، ووقفنا على اضرحة الجهابذة من ائمة المعرفة وزرنا قبر الخيام ، وابي حامد الغزالي .

يقول الدكتور صفاء خلوصي عن فؤاد : والحق فيما قال الدكتور خلوصي ، يقول الخلوصي : « كان فؤاد أميل إلى الحديث والخطابة الارتجالية البليغة منه الى الكتابة والتأليف . اذ كان مذوده يراعه ، ولعلى لسحر صوته الذي لا يمكن ان يدوّن على قرطاس أثراً في هذا المنحى الذي انتحاه » .

وتنقلني ذكرى سفرنا الى ايران الى الطيارة التي اقلتنا من طهران الى خراسان ، وكانت طائرة رفيهة كبيرة ، ولم تكن مزدحمة بالركاب ، فقد كانت اغلب مقاعدها فارغة ، ولم ادر كيف جرّنا الحديث الى الزواج عند الشعوب ، وكان فؤاد يقرأ كثيراً كما قلت من قبل وتلذه قراءة غرائب السكان في الكتب الأنجليزية ، وعلى الأخص كان يواصل متابعة مجلة « جكّرافيك مكّزن) الأميركية فتناول حديث الزواج عند القبائل الأفريقية؛ والزواج عند (الأسكيمو)، وجرنا الحديث الى الزواج عند العرب في الجاهلية ، ثم الزواج في الأسلام ، ومرّ في هذه الأثناء حديث (المتعة) واحسب ان هذا الحديث ـ حديث المتعة وشيوعها في السنين السابقة على الأكثر في ايران دون انتشارها في الأقطار الاسلامية الأخرى ـ هو الذي ساقنا الى التوسع في حديث الزواج والعقود والمهور والطلاق ، وقد طال الحديث في هذا الموضوع ، ولم يبق في ذهني الا القليل منه فقال فؤاد عباس .

انني التزم بالنصوص القرآنية ومفاهيمها الصريحة أكثر مما التزم بالروايات ، والأخبار ، والأحاديث ، فلندع جانباً ان المتعة كانت ماضية في عهد رسول الله (ص) وفي عهد الخليفة ابي بكر(ض)ثم لندع جانباً قراءةالبعض من القراء(وما استمتعم به

لأجل مسمى) ولنعدّه من المزيدات غير الجائزة ، ثم لندع ما قيل بأن الهدف من تشريع المتعة هو الحدّ من التطاول على الأعراض ، ولا سيما تطاول الجنود في الحرب ، والمسافرون في السفر ، ثم لندع ما يروي الرواة ولا سيما ابن عباس في المتعة ، وكون ان المتعة وهي المقيدة بزمن معين لا تختلف عن الزوجة الدائمة ، فهي في العقد ، والمهر ، والعدّة التي تلتزم بها المطلقة ، وما تلد من الأولاد سواء مع الزوجة الدائمة باستثناء المدة المحددة، لا غير، ولنـدعْ كون ان زواج المتعة يلائـم اليوم طبيعة العصر الحاضر ما دام بمثابة زواج تجربة فضلاً عن ان هذه المتعة كثيراً ما تحول دون هذه المشكلات التي لا يعرفها الا قضاة الأحوال الشخصية ، وما خفي عنهم اعظم .

قال فؤاد : لنضرب عن كل هذا وغيره صفحاً ، فانني افهم من نص الآية الكريمة القائلة﴿ وما استمتعتم به منهن فآتوهن اجورهن فريضة، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ، ان الله كان عليماً حكيماً ﴾ انني افهم ان التراضي من بعد الفريضة معناه تجديد العقد، ولو كانت هذه الآية تخص الزواج الدائم لما احتاج الأمر الى التراضي بعد الطلاق ولتم رجوع الزوج الى زوجته دون عقد ثان ودون تراضي آخر بخلاف المتعة التي اذا انتهى عقدها اي اذا انتهت المدة المعينة حرمت على الرجل الا بتراض آخر وعقد ثانٍ .

امام ضريح محمد المحروق بخراسان يرى فؤاد عباس والمؤلف

واستدرك فؤاد قائلاً : وانا اعترف بان اكثر المفسرين باستثناء الشيعة يذهبون في تفسير هذه الآية مذاهب اخرى لا تتفق وهذا الذي اقوله انا، ولكن أليس لكل عربي اللسان مفهومه ، من الكلم ، فهذا هو مفهومي انا من هذه الآية، وكما اني لا افـرض مفهومي عـلى الاخرين ، بل احتكره لنفسي ، فاني لا أريد ان يفرض احد مفهومه علي ، وقد وافقته

انا بالطبع على ما قال :

وفي اثناء احاديثنا التي طالت في قضية الزواج وتشعبت قال فؤاد : لقد سألني سائل ذات يوم : لماذا يجوز للمسلم أن يتزوج من غير المسلمة ، ولا يجوز للمسلمة ان تتزوج من غير المسلم ، قال فؤاد : لقد قلت له لان الاسلام يعترف بانبياء الديانات الاخرى ، لذلك يجوز للمسلم ان يتزوج من اتباعها ، اما هؤلاء فلا يعترفون بنبي الاسلام لذلك لا يجوز للمسلمة ان تتزوج منهم ، وقد استحسنت انا منه هذا التفسير والتعليل المبتكر الذي لم يسبق لهؤلاء الفقهاء الالتفات اليه على ما اظن ، وقلت له : ولكن لي تعليقاً عليه ، ودعني الان اقوم الى مقدمة الطائرة حيث تلك (الطاولة) المكدسة عليها انواع الصحف والمجلات بمختلف اللغات لانتقي لي واحدة منها واعود .

وهكذا سرت الى مقدمة الطائرة حيث (الطاولة) والطائرة كبيرة وكان ركابها قليلين ومعظم مقاعدها فارغة كما قد قلت من قبل ، واخترت منها مجلة فارسية مصورة بالالوان ، وبهرتني منها صورة وانا اقلبها وقد حوت تعليقات تشد القارىء اليها ، ورحت احدق الى الصورة واقرأ التعليق وانا عائد الى مكاني ، ويبدو انني تجاوزت مقعدي بثلاثة صفوف او اربعة ، وجلست في احد المقاعد الذي ظننته مقعدي المجاور لمقعد فؤاد ، وعيناي لا تبارحان سطور المجلة ، وقلت للجالس بجانبي وقد حسبته فؤاداً وانا لا ازال منكباً على المجلة ، قلت له وما هو تعليلك عن بعض الطوائف الاسلامية التي لا تجوز تبادل الازدواج مع غير طائفتها شرعاً مع اعترافها باسلام الطوائف الاخرى واعتراف الطوائف الاخرى باسلامها (كالبهرة) من الاسماعيلية مثلا ؟

ولعلي قبل أن اتّم قولي هذا قاطعني الجالس الى جانبي بلغة عربية ولهجة فراتية أو قبلية وقال لي بالعامية (ذاك ارفيجك) اي ان هناك رفيقك ، وان كلمة (ارفيجك) لا تستعملها الا القبائل العراقية وسكان مدن الفرات ، فدهشت وتبادلت واياه الحديث ، فعلمت انه محام ايراني وهو يسافر الى مدينة مشهد لحضور محاكمة تخص موكّلا له وحين تعمقنا في الحديث زادت شهقتي بل اضعت طريق الكلام فلم أدر ماذا اقول حين علمت ان الرجل هو المرزا حسن الشيرازي ابن آية الله الميرزا محمد تقي الشيرازي زعيم الثورة العراقية الكبرى ، لقد شهقت لأنه كان قد مرّ على فراقنا اكثر من اربعين سنة

كانت كافية لتغير من معالم وجهي ومعالم وجهه وتجعل من غير الميسور تعرف بعضنا الى بعض بسهولة ، ولم تكن صلتي به صلة عابرة ، فقد كان صديقاً حميماً لاخي عباس الخليلي ، وكنت انا الاخر صديقه ووكيلا له في بيع (خان) له يدعى (بالسيف) بالسوق الكبير في النجف الاشرف .

وناديت فؤاد عباس فشغل المقعد الثالث الى جوارنا ، وقمت بالتعريف بينهما ، ورحنا نخوض مواضيع متشعبة حتى وصلنا الى (مشهد) وفؤاد في غاية الانشراح من هذا اللقاء بابن الامام الشيرازي ، وطول باعه فيما خصنا به من المواضيع .

قلت ان (فؤاداً) يتطرف في ميوله ورغباته بعض الاحيان ، ومن هذه الميول التي يشذ فيها بعض الشذوذ عن ميولنا العامة هو انه يأخذ بمشتهيات قبائل العراق في شرب الشاي الذين لا يعجبهم من الشاي الا ان يكون على حد تعبيرهم (أخبن ، وحار ، وحلو) ، والاخبن بفتح الهمزة ، وفتح الخاء ، وفتح الباء ،و سكون النون ،تعني الشاي المائل للسواد في لونه بسبب كثرة مؤونته ، وان شذوذ فؤاد في شرب الشاي اكثر ما يظهر ففي كثرة السكر في الشاي ، كثرة تثير الدهشة ، ذلك لانه يريد أن يتجاوز السكر نصف القدح وليس دونه ، وقد رأيت السيد حميد الياسري على هذا النحو تماماً ، ويردّد فؤاد هذا القول حين يجيء ذكر الشاي فيقول اريد الشاي : (أخبن ، وحار ، وحلو) تقليداً للريف ، وعلى سبيل الدعابة .

فؤاد عباس والمؤلف امام ضريح ابي حامد الغزالي بطوس

وفي ايران يقدمون السكر بمعزل عن الشاي ليتناول الشخص الكمية التي يريدها من السكر في قدحه ، وقد قال لي فؤاد بما مضمونه : ان ليس في الدنيا من يعرف قيمة الشاي ورسومه وخواص شربه مثل الايرانيين ومثلك انت يا أبا فريدة ، ذلك لاننا كنا نقدم له الشاي في بيتنا والسكر قد يصل الى ثلاثة ارباع القدح(الاستكان) وما تناول عندنا الشاي الا وقال هذا هو (الأخبن ، والحار ، والحلو) تماماً .

وفي دعوة العشاء التي أقامتها لنا السفارة العراقية بطهران ، قدم القائم بخدمة المدعوين الشاي للضيوف على الطريقة العراقية ، اي لم يقدم السكر معزولا على الطريقة الايرانية ليتناول فؤاد منه ما يريد ، وكان هذا الخادم ايرانياً ، فقال لي فؤاد بما يشبه هذا القول قال بالعامية (شوف ذوله ربعنة علموا حتى هذا المسكين ان ينسه طبيعته) اي انظر هؤلاء ـ يعني اعضاء السفارة من العراقيين ـ لقد غيروا من هذا المسكين ـ اي الخادم ـ حتى طبيعته ولم يدعوه يقدم السكر معزولاً حسب طبيعة الايرانيين .

* * *

والظرف طبيعة اصيلة عند فؤاد ، ولو فتشت محاضراته ، ومجالسه لما وجدت فيها ما يخلو من هذا الظرف الذي يطعّم به الحديث أو يعلق عليه على أساس (الشيء بالشيء يذكر) وعلى أساس (ولا على المعرضات الترك) او على اساس (لا مناقشة في الامثال) وغير ذلك من الاسس .

وقبل دخوله المستشفى في العارض الذي توفي فيه بيوم واحد اتصل بي من بيته بالتلفون ليكلمني في قضية تخص شخصا حليًا من مدينة (الحلة) ، وان بين مدينة الحلة ومدينة النجف الاشرف منافسة تدع النجفيين يلفقون القصص المضحكة ، وينسجون الاكاذيب وينمقونها وينسبونها لمدينة الحلة ، وقلدتهم بعض المدن او ان بعض المدن كانت تتناقل تلك الملح والنوادر دون ان تعرف انها صادرة عن النجف ، ومن هذه الاكاذيب انهم ينسبون للحلة البله والبلادة ويعزون ذلك لكثرة ما تأكل الحلة من الفول (الباقلاء) التي يزعمون انها ـ اي الباقلاء ـ هي مبعث هذا البله ، وان معاوية بن سفيان قد حثّ اهل الشام على أكل الفول حتى شاعت البلادة بينهم فسهل عليه التصرف بعقولهم !! ومن التلفيقات والاكاذيب المنسوبة للحلة ، بان الذين يقبلون على شرائها يتحلقون حول قدور الباعة ومع كل واحد رغيف فيعطي البائع كل واحد من اولئك المتحلقين خيطاً بلون غير اللون الذي يعطيه للاخر ، فيشد المشتري رغيفه بخيطه ويلقي به في قدر البائع المملوء بالفول، وحين يطمئن البائع بأن الرغيف قد شبع نقعاً يسأل المشتري عن لون خيطه فيقول احمر مثلا فيقول له اسحبه من القدر ويسأل الاخر

عن لون خيطه فيقول اخضر مثلا فيقول له انتظر دقيقة ، وحين يسحب المشتري رغيفه من القدر ويضعه في الآنية يضع هناك البائع له المقدار المطلوب من الفول فوق رغيفه ، وكل هذا كذب وافتراء ، وصار الحليون ينزعجون اذا قيل لهم : خيطك ؟! واذا تعرض احد لهم بذكر الفول ، او جاء باسمه امامهم على سبيل التعريض .

وفيما اذكر ان الشيخ علي البازي وهو من خطباء المنابر الحسينية ومن المؤرخين الذين يحسنون حساب التاريخ في الشعر ، وقد كان ظريفاً ومن حفظة النكت ، وقد حمله هذا الظرف مرة وهو ينزل ضيفاً على آل القزويني في الحلة على ان ينظم سبحة كبيرة من حبّات الباقلاء ويجلس في مقهى عام يسبّح بها ، وما مرت دقيقة حتى فطن له احد السوقة من الحليين الجالسين في المقهى وأحسّ بان الشيخ البازي انما يعرّض باهل الحلة فقام اليه واخذ بتلابيبه ، واشبعه ضرباً وانتهى الامر بهما الى مركز الشرطة .

واذا رجعنا للواقع وجدنا ان اكل الفول في المدن العراقية وعلى الاخص في بغداد قد تزيد نسبته على اكله في الحلة ، هذا فضلاً عن انه ليس للباقلاء اي دخل في البله والبلادة ، فهي من الاطعمة المليئة بالبروتين والمعروفة بجودة الطعم ، ولا يبعد ان يكون سبب منافسة النجف للحلة بحيث تستدعي كل هذه التلفيقات والنكت والنوادر التي ينسجها وينمقها النجفيون بصورة خاصة عن الحلة ناشئاً عن انتقال الزعامة الدينية من النجف الى الحلة بعد الشيخ الطوسي ، وظهور اعلام اخذوا الصدراة من النجف نحو ثلاثة قرون كابن ادريس ، والمحقق الحلي ، والعلامة الحلي ، والشهيد الاول ، وابن طاووس وغيرهم من ائمة الفقه والعلوم العربية ، وهي بعد ذلك وان عادت المرجعية والمركز الديني الى النجف ، ولكن النجفيين ـ على ما ارى ـ ظلوا يحبكون القصص المثيرة للضحك عن الحلة والحليين، لأن الحلة ظلت تنافس النجف في الشعر والادب عشرات السنين ، وكان منهم في السنين الاخيرة امثال رائعة كالسيد حيدر الحلي ، والسيد جعفر الحلي وغيرهما ممن لا يشق لهم غبار في عالم الشعر والادب ومن مشاهيرهم الشيخ عبد الحسين الحلي .

ولقد روى لي مرة حقي الشبلي عن هذه الروايات الملفقة عن الحلة رواية فحواها ان رجلاً من اهل الحلة قد سكر ، وحين فعلت الخمرة فعلها في رأسه ، صار

يصخب ، ويشتم ، ويحتج قائلاً : لماذا يكون لمدينة (كركوك) ثلاثة (كافات) في الاول ، والوسط ، والآخر ، ولا يكون (للحلة) كاف واحدة ، كاف واحدة على الاقل يا مسلمين . . . .

وكيفما كان الأمر فقد اتصل بي فؤاد عباس قبيل وفاته ليكلمني في أمر شخص حليّ كان يهمه امره ، وعلى أساس من تلك الاسس التي اشرت اليها من قبل ، وقبل ان افهم القضية التي يريد ان يكلمني عنها ساقنا الحديث الى الحلة ، وكان لا بد ان نمرّ على بعض تلك القصص المنسوبة للحلة فقلت له : احسب اني قد حدثتك من قبل عن زعل الزعيم الروحاني الكبير السيد محمد القزويني ؟

فقال ابدا . . . قلت لقد اغتاض السيد محمد القزويني ذات مرة من اهل الحلة فخرج منها الى كربلا . . والسيد محمد من حيث العلم والادب والظرف ممن يضرب بهم المثل ، وكان يكيل الصاع صاعين للنجفيين ، ويردّ على نكتهم باضعاف من نظائرها اذا ما تعرضوا في نكتهم للحليين ، فيتهيبه النجفيون ، ومن الحق ان نقول ان آل القزويني قد نشأوا في النجف ، وتعلموا فيها ، ولهم فيها بيوت ومقابر ، وان سكن بعضهم الحلة والهندية (طويريج) .

قلت لفؤاد : لقد اغتاض السيد محمد ، وخرج الى كربلا فتبعه وجوه اهل الحلة وزعماؤها وهووا على قدميه يقبلونها ، ويسترضونه ، وما زالوا به حتى رضي ، فقالوا له ، وازاء رضاك هذا لنحملنك والله في تخت على الرؤوس ، ونمشي بك على اقدامنا من مدينة (كربلا) الى (الحلة) ولا احسب ان المسافة تقل عن خمسين كيلومتراً وعبثا راح يحاول السيد محمد اقناعهم بان مثل هذا العمل سيعد ضربا من ضروب الحماقة والصقاعة ، وانه سيكون حجة للنجفيين اذا ما أرادوا ان يسخروا منهم ، فلم يفد شيء من هذا معهم ، وانما تقدم اليه احد الحليين ، وباللغة العامية الدارجة قال له : (سيدنا ، يا ما انجس منك احنه شايليهم على روسنه) اي لماذا كل هذا الاحجام والامتناع منك فلطالما حملنا على رؤوسنا من هم أنجس منك ، فلماذا تستكثر علينا مثل هذا الصنيع ؟

فردّ عليّ فؤاد قائلا : ولربما قصصت عليك قصة السيد قاسم من قبل ؟ قلت : أبداً ، قال ان السيد قاسم اديب شاعر ، وله دكان عطارة في الحلة ، قلت اعرفه ، ولكن لا اعرف قصته ، وكان لي صديقاً حميماً ، واذا لم تخني الذاكرة فانا اعرف انه هيتي ومن مدينة (هيت) وللهيتيين الذين يسمونهم(بالهيتاويين) محلة باسمهم في الحلة ، ولست أدري كيف رحلوا الى الحلة وسكنوا فيها .

قال فؤاد : لقد التهبت مرة ساق السيد قاسم على أثر ظهور دمّلة حملته على الاستعانة بالعصا في مشيته ، والتقاه في الطريق احد معارفه من الحليين وهو يعرج ، وعلم منه السبب فقال له الحلّي: ان الأمر في غاية البساطة والسهولة ، فخذ قليلاً من دقيق الشعير واعجنه مع قليل من التمر والسمن ، وضع العجين على الدّملة ولفّها بخرقة او منديل فلن يمرّ اسبوع الا وتغدو كالحصان ، فلقد كان لنا بغل عرض له نفس العارض فعالجناه بهذه العجينة ، فلم يشف في اسبوع وحسب ، وانما كان يحمل على ظهره قبل هذا (وزنة) من الحبوب ـ والوزنة هي مائة كيلو ـ فصار يحمل وزنتين .

قلت لفؤاد ، وهذا عود على بدء ، فهناك قصة اخرى تروى عن السيد محمد القزويني الزعيم ، الكبير نفسه ، فقد قيل ان احد الفقراء المغمورين من الحليين دعا السيد القزويني لتناول العشاء في بيته ، وكان لا بد للسيد محمد ان يستجيب ، وكان المطر في ذلك اليوم قد استحدث ما يشبه البحيرة امام بيت الرجل الداعي ، فجاء السيد محمد وبعض اتباعه معه ووقف حائراً في كيفية عبوره هذا المستنقع الى بيت الرجل ، وأحس الرجل بقدوم الزعيم القزويني فخرج من البيت وقد رأى بعينه الحيرة التي تكتنف الزعيم واتباعه فأنّ أنّة طويلة ، وبآهة وحسرة صاح بلغته العامية ، وبما يجري عادة على ألسنة الناس عند حصول الحيرة لقد صاح (تعال يا من يطلّع الحمار من هذي الوحلة) اي من لي بمن يخرج هذا الحمار من هذا الوحل ؟

ومما يلفقونه على اهل الحلة ، هو ان رجلاً رأى فلاحاً حلياً يحرث الارض على ثورين احدهما اسود اللون والاخر اصفر ، وكان الثور الاصفر يزوغ مرة في الحرث ، ويحرن اخرى ، فكان هذا الفلاح يعاف الثور الاصفر الزائغ ويلهب ظهر الثور الاسود

غير الزائغ بالسوط ، فاعترضه الرجل وقال له أتؤاخذ من لم يذنب وتترك المذنب ؟ فأجاب الفلاح الحلي ـ على ما يزعمون ـ لقد اجاب بالعامية قائلاً(هذا يغمزلوُ) اي ان هذا الثور الاسود هو الذي يشير للاصفر بان يزوغ ؟

ولقد قضينا وقتاً طويلاً في مثل هذا الحديث بالتلفون ، حتى دخل عليّ زائر اضطرني الى الاعتذار طالبا من فؤاد تأجيل قضية الشخص الحلي الذي كان يريد ان يكلمني عنه الى وقت آخر ، ولكن هذا الوقت لم يحن لان فؤاداً قد مات ، وكان هذا آخر ملتقاي إيّاه .

* * *

كان فؤاد يتمتع بصحة جيدة ، واذا استثنينا العملية التي اجريت له في الخمسينات ببيروت بسبب التصاق في رئتيه كان يشكو من آثارها ، فقد كان في اتم صحة وعافية ، فما رأيته طوال مصاحبتي له شاكياً، فقد كان يأكل ، ويشرب بشهية ، وكان يسمر ، ويسهر ، ويحاضر بمرح ودون اي شعور بالمضايقة ، وقد يطيل احياناً في محاضرته بشكل طبيعي وبحضور ذهن ، ودون اي ملل .

وفي يوم الاثنين المصادف لليوم العاشر من شهر مايس من سنة ١٩٧٦ دق جرس التلفون في بيتي ظهراً ، وقيل لي ان سيدة تستدعيك الى التلفون ، واول شيء قالته هذه السيدة التي لم اعرفها ، قالت :

ـ اعطاك فؤاد عمره ، وهي كلمة اعتاد العراقيون ان يقولوها حين يريدون ان ينعوا بها للاصدقاء او للاحباب، اصدقاءهم ، واحباءهم .

فلم احس الا وانا اصرخ قائلا : ماذا تقولين ؟ ورأيتني اكرر هذا القول على غير ادراك ، وها انا ذا قد علمت بالذي قالت ، فما معنى هذا السؤال مني وتكراره اذن ؟ اما هي اعني الناعية فقد ذهبت ، واما السماعة ، سماعة التلفون فقد سقطت من يدي ، ولم احس الا وانا انكفىء على الطاولة كما لو كنت بدون وعي ، ومن قبل قد جربت كيف يكون الواعي بدون وعي ، ولكن هذا الحال قد طال معي هنا ، وها انا ذا اتنفس ، وارى ، واسمع ، ولكن كل هذا كان يجرى كما لو كنت في عالم ثان لا قدرة لي على وصفه وتحديده ، هو عالم اللاوعي مع وجود الوعي !!

ولست ادري كم ظللت على هذه الحال منكفئا على طاولة التلفون وكم مكثت واعياً دون وعي ؟ واين سرت بي افكاري ؟ ولماذا لم أبك ؟ وكنت قد بكيت اغلب الذين فارقتهم ساعة نعاهم الناعي الي ؟

وبعد قليل حاولت ان انهض فما استطعت ، لاني احسست بكل اعضائي ترتعش ، واذا بكفي لا تقدر ان تمسك بكأس الماء ، وما كدت اصل الى سريري ، والقي بنفسي عليه حتى انفجرت بالبكاء .

ثم وعيت بعض الوعي ، وعيت لأوجّه لنفس السؤال تلو السؤال : لماذا مات فؤاد؟ولماذا لا يموت غيره؟ ثم لماذا يولد الانسان ويموت؟ومن أين جاء هذا الانسان ليت شعري والى اين يروح ؟ انها اسئلة سبقتني الملايين في توجيهها لانفسهم دون طائل ، ومع ذلك فهم يرددونها ، ويكثرون من ترديدها ، وقد كثرت مني هذه الاسئلة وكثر بكائي هنا .

وفي اليوم الثاني ونحن نشيع جنازة فؤاد من بيته وقد ذابت كبدي الا اقلها ، خرجت اخت فؤاد (ام فيصل) لتشيعه بما يحضرها مما تحفظ من الشعر الدارج وبما ترتجل هي من هذا الشعر فذاب من كبدي ما كان قد بقي منه ، وتحول بكائي عند ذاك الى نحيب ، وكان من مضامين شعرها : من لي بعدك يا فؤاد ، فقد كنت أبي ، وكنت اميّ وكنت اخي ، وكنت بقية عشيرتي ، ولم تدر انها بقولها هذا كانت لسان حال الكثيرين من اخوانه ومحبيه المخلصين ، وان كان لهم آباء، وكانت لهم امهات ، واخوان .

وحالت صحتي ـ بسبب ضغط الدم العالي الذي اشكو من آثاره منذ سنين ـ دون مشايعته الى النجف الاشرف ليوارى في قبره ، وكما وقف فؤاد بداعي الشهامة والمحبة في تكريم الصديق الدكتور احمد سوسة بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عني لغيابي عن العراق يومذاك دون ان استنيبه ، فقد وقف الدكتور عبد المجيد القصاب على قبر فؤاد مؤبّناً بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عني بداعي تلك الشهامة دون ان استنيبه انا .

وفي حفلة الاربعين التأبينية التي أقامها لفؤاد رهط من أصدقائه الادباء برياسة الدكتور عبد المجيد القصاب وذلك في اليوم الرابع عشر من حزيران ١٩٧٦ افتتحت انا كلمة رثائي بهذين البيتين :

نم يـا فؤاد فقـد والله عـزّ عـلى نفسي منامك لكـن ما الذي بيدي ؟
ان ضاق صدري ولم تسكن لواعجه لان كـل صـديـق راح لم يـعـد

ولقد كنت اتمنى ان اسبقه أنا الى الموت لذلك ختمت كلمة رثائي بالبيتين التاليين :

فؤاد ، هـذي هي الـدنيـا وسنتهـا كـأنما النـاس ما جـاؤوا وما ذهبـوا
اذا مضيت من الـدنيـا فـلا عجب ان تمض انت ولا امضي انا العجب

والعجب بعد هذا من الصحف العراقية التي مرت على ذكرى فؤاد كما لو كان شخصاً مجهولاً ، وكما مات الشاعر العبقري الكبير الشيخ علي الشرقي دون ان تؤبنه الصحف بكلمة واحدة ، وكما مات أمين نخله ، مات فؤاد ولم تذكره غير سلام خياط ، ويوسف العاني بكلمتين عابرتين وفي هامش من هوامش الجريدة ، وقد نسي الناسون ان لفؤاد في مكتبة تسجيلات الاذاعة والتلفزيون ، وفي اشرطة الاندية ما يؤلف خمسين مجلداً واكثر لو اردنا ان ننقله على الورق ، وقد مرت الاشارة الى ذلك من قبل .

حفلة ذكرى لفؤاد عباس اقامها الدكتور عبد المجيد القصاب في بيته بمناسبة مرور سنة على وفاته ،

واليوم وقبل ان يندرس قبر فؤاد سيجزم القارىء بان الشاعر الذي مرّ على القبور الدوارس مسلماً ومنشداً فانه لم يعن بذلك الا فؤاداً حين قال :

سلام على اهل القبور الدوارس كأنهم لم يجلسوا في المجالس

واعترف اني تطاولت على بيت لشاعر من الشعراء ، وسرقته ، وتصرفت فيه لاجعله اكثر تعبيراً عن شعوري وشعور الاصدقاء بفقد فؤاد حين قلت :

فما وحقك ما طابت مجالسنا من يوم فارقتنا يا بيضة البلد

طاب الله ثراه ، وتغمده برحماته الواسعة ، وجزاه عن الادب العربي والوفاء وطيب المعشر خير الجزاء .

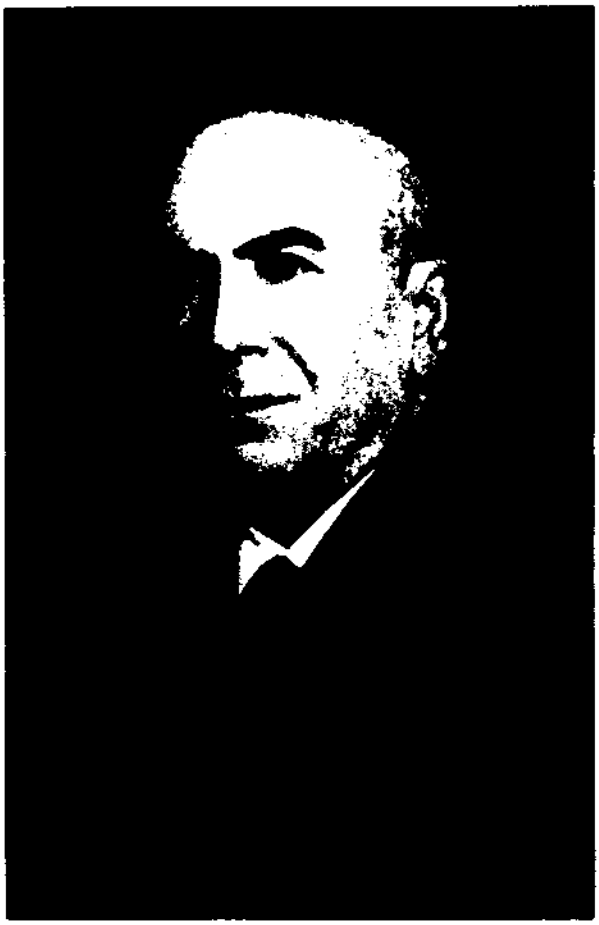

الياس فرحات

كيف عرفت

الشاعر الياس فرحات

١٨٩٣ - ١٩٧٦

« انا انعم اليوم بمطالعة مؤلفك الجديد (هكذا عرفتهم) وأحسد الذين عرفتهم وعرفوك متمنيا لو اني واحد منهم لأظفر بما ظفروا . . . »

فرحات

- ١ -

عرّفني (بفرحات) وغيره ما كان يرد الى أخي عباس الخليلي من صحف ومجلات من مختلف الجهات وهو لم يزل بعد في النجف وقبل ان يفرّ الى ايران هرباً من المحكمة العسكرية الأنجليزية التي كانت تبحث عنه، وفي هذه الصحف التي ظلت تصل الى البيت بعد فراره مدة غير قصيرة عرفت ان بين هؤلاء الشعراء طائفة من الذين هاجروا الى اميركا الشمالية والجنوبية حين ضاقت بهم الواسعة في لبنان وسوريا وفلسطين سواء من حيث الضغط وفقدان الحرية او من حيث الحالة الأقتصادية والجوع المتفشي بلبنان في ايام الحرب العظمى الأولى بصورة خاصة، ولكن معرفتي لم تكن في مثل هذا الوقت قوية وذلك لقلة ما كنت اقرأ له وقلة ما كان يمر اسمه تحت عيني حتى صدرت الطبعة الاولى من (بلاغة العرب في القرن العشرين) وتلتها الطبعة الثانية ثم انتشار بعض الصحف التي كانت تعنى بادب المهجر، وصدور بعض المجاميع والكتب امثال (ما وراء البحار) استطعت ان اعرف الياس فرحات من حيث ادبه السلس وشاعريته الفياضة معرفة كاملة، وفي زمن قد لا يكون طويلاً شدني اليه هذا الشعر، وجذبتني اليه قصة حبه لأنيسة، التي كانت سبب هجرته الى البرازيل لعله يوفق في جمع مبلغ يعود بعده

الى بلده (كفرشيما) القريبة من بيروت والواقعة تحت اطلالة من (سوق الغرب) الذي اعتدت الأصطياف فيه في السنوات الأخيرة ، بعد ان تركت (ضهور الشوير) التي كنت قد اتخذتها منتجعا لي في كل صيف منذ أكثر من عشرين سنة .

وكنت قد سمعت (بكفر شيما) بصفتها بلد (شبلي شميل) الذي ترجم نظرية (داروين) في اصل الانسان فهاج رجال الدين ومن لف لفهم ضد (شبلي شميل) وتوجهت لعناتهم اليه وكفروه ، ونسبوا له الالحاد مع انه مات مؤمناً ، واحدثت ترجمته هذه لنظرية (داروين) ضجة كبرى عمت جميع الأقطار العربية وليس هذا وقت عرضها ووصفها ، ثم كنت اعرف ان (كفرشيما) هذه بلد (اليازجيين) ناصيف اليازجي ، وابراهيم اليازجي ، وسليم تقلا ، وبشارة تقلا صاحب جريدة الأهرام الشهيرة ، .

اقول لقد جذبتني قصة حب فرحات اول ما جذبتني اليه ، وانيسة هذه ابنة خال الياس فرحات واقرب أرحامه اليه في الروح، وقد عشقها فرحات، وتغلغل عشقها في دمه وهو بعد صبي، وان عشقه هذا لأنيسة حين ترجع به الذكرى الى عهد الطفولة ظاهر في شعره اذ يقول :

عشقت والعشق ضلال يهدي صغيرة رافقتها في المهد
وعدتها ولم أحل عن وعدي لكنها خانت اخيراً عهدي
ولو وفت حافظت حتى اللحد

كنت ارى خيالها امامي يمنعني عن رؤية الأنام
يحول بين الجفن والمنام يحول بين الفم والطعام
يحول بين القلب والسلام

وصرت ان سرت الى الكنيسة فكل قصدي ان ارى (انيسة)
لأنها جوهرتي النفيسة ووردتي الناضرة المغروسة
في مهجتي الشقية التعيسة

واشتهرت قصيدة (خصلة الشعر) بين الناس وحفظها الكثير عن ظهر قلب ، وترددت ولا تزال تتردد على الألسن حين تجيء المناسبة وقد مرّ على نظمها اليوم اكثر من ستين سنة، والقصيدة هذه تشير الى ان أنيسة قد اعطت (فرحات)خصلة من شعرها يوم همّ بالرحيل الى البرازيل كميثاق عهد بان تظل وفية له حتى يعود فيتزوجها، وكان ذلك سنة ١٩١٠ وهو ابن ١٧ سنة على ما اعلم ولكن رحلة (فرحات) قد طالت،

ومرت عليها عشر سنوات وهو لم يوفق في عمله ليعود الى حبيبته ويتزوجا وقد يئست أنيسة من عودته فتزوجت من غيره ، وكان ذلك السبب الأكبر لازماعه الاقامة في البرازيل نهائياً، ومن ابيات (خصلة الشعر) هذه بعد ان بلغ (فرحات) زواج حبيبته في (كفرشيما) قوله :

خصلة الشعر التي اعطيتنيها ... عندما البين دعاني بالنفير
لم ازل اتلو سطور الحب فيها ... وساتلوها الى اليوم الأخير

* * *

خنت عهد الحب لا بأس فإني ... مكتف بالأثر الحلو الثمين
فانا ما عدت أحيا بالتمني ... بعدما منيتني عشر سنين
اشكر الله فما الأخلاف مني ... انني كنت لك الصب الأمين
راجعي سيرة حبي راجعيها ... فهي نور ساطع للمستنير
واذا مرت بك الريح سليها ... انها تعرف من امري الكثير

* * *

الى ان يقول :

ربطة القلبين حلّتها يداك ... ويدي تأبى امتهان الشعرات
لم يحركها الى الأثم جفاك ... فهي لا تعرف غير الحسنات
لمسها مجموعة الشعر يحاكي ... لمس هذا الثغر تلك الوجنات
ان أعد يوماً الى الحي تريها ... مثلما سلمتها يوم المسير
هي كالطفلة في حضن ابيها ... لا ترى الا حناناً وشعور

والقصيدة هذه طويلة وهي تفصح عن شعور هذا الشاعر الصادق

ولعل هذه القصيدة ، او لنقل هذه القصة ـ قصة حب فرحات ـ هي التي حملتني على البحث عن شعره هنا وهناك لعلّي واجد لهذه القصة شروحاً وبقايا . وقد عرفت انه سار الى القبر ، وحب انيسة معه ، مما لم يقع الا للقليل من المحبين والعشاق وعلى الأخص الشعراء منهم ، وطلبت فرحات في كل المظان من المجلات والمجاميع لاكتشاف نهاية حبه فعل اعرف هذه النهاية وانما عرفت فيه شاعراً من طراز لا يمكن ان لا يتملك اعجابك من حيث اصطياد الشارد من الأفكار الشعرية الجديدة ، وصدق التعبير ، وسلاسة الالفاظ ، وطهارة النفس ، والتمسك بالقومية العربية

والعزوبة، والغلو في الأباء غلواً منقطع النظير كقوله :

لـو منّ ربك بـالحيـاة عـلى الـورى لبصقت حـوبائي وقلت لـه خـذ!!

وقوله :

فما في مـدّ في عـنـقـك للمـواضـي صـعـوبـة مـدّ كـفـك لـلسؤال

وقرأت له في حبه لأنيسة بعد زواجها قوله :

لـكـنـني مـا زلـت ابـصـرهـا فـكـأن بُـعـدي كـان إشـرافـا
وكـأن هـاتـيـك الجبـال غـدت لـوحـاً مـن الـبـلور شـفـافـا

وما اجمل ما قرأت له بعد زواج حبيبته أيضاً من قوله :

لا تـظني بي الـظنـون اذا كـنـت أسمّي لـيـلى ، ولـبـنى، وهنـدا
انا من يعرض الزجاج ويخفي الماس انّ الـلصـوص كـالـرمـل عـدّا
انت قصـدي دون الأنـام ولكني اسمي سـواك في الشعـر .عمـدا
انت قصـدي وكـل اسـماء حـواء ثـيـابٌ لاسـم حـبـيـب مـفـدى

وعلمت من شعر فرحات انه يتمتع بخلق قل المتمتعون به من قولة الشعر وحملة الأقلام، والحق ان الشعر وحده لا يصلح ان يكون دليلاً دون ان تسنده المعرفة للوصول الى اخلاق الشاعر وتؤيده الحوادث التي تتعرض له ، وهذا ما حصلت عليه من اليقين بعد ان تم اتصالي بفرحات وتعرفي به عن طريق الدراسة والمكاتبة ،وكيفية معالجته الأمور مع الناس .

- ٢ -

ولم اعرف عنوان فرحات في البرازيل وانا اقرأ مجلة (العصبة) واقرأ مجلة (الشرق) واقرأ ما كان يصل الي من صحف البرازيل حتى صحيفة (ابجد هوز) وأقرأ ما كان يمر علي من شعر فرحات وحتى بعض النبذ من حياته ونكاته التي تجيء بالشعر وفي عرض الحديث ،ولكني لم اهتد الى عنوانه ، وقد حدثت نفسي غير مرة ان أكتب لمجلة العصبة سائلاً عنه ،ولكن اعمالي الصحافية كانت تحول بيني وبين ما كنت اريد .

وذات يوم تلقيت في بريد (الهاتف) قصيدة ما كدت أقرأها وأرى توقيع (فرحات) وعنوانه في نهايتها حتى طرت فرحاً . . . ترى من اين عرف فرحات جريدة (الهاتف) ولم يكن لي يومذاك بالأستاذ وديع فلسطين الذي يعرفه جميع ادباء العربية

ويعرفهم جميعاً اية صلة لأعـزو اليه حمل (فرحات) على الأتصال بي وارسال احدى قصائده للنشر في جريدتي، ليس لشيء الا لكي يعرفه العراق شاعراً تعلق قلبه بالعراق ، وشغف بأهله كقوم أباة مجاهدين كافحوا الأستعمار العثماني وهم منذ دخول الأنكليز الى العراق يكافحونهم بالشعر والخطب والنار، و(الهاتف)كانت يومها صحيفة الأدب والأدباء وقد ظلت عشرين سنة متواصلة وبدون انقطاع كلسان حال للأدب في هذه الربوع . حتى خمدت انفاسها ، ولعل الهاتف قد نقل بعض الأحيان شيئاً من شعر فرحات الذي يمثل محبته هذه للعراق،واجلاله لهذه التربة واهلها.ولست بناس شعور فرحات نحو العراق قبيل الثورة العراقية الكبرى والأحوال تنذر بالأستعداد للثورة في قوله :

وفي جـو الـعـراق ارى غـيـومـاً ... يـراهـا الأنـكـلـيـز فـيـرهـبـونـا
حـوامـل بـالصـواعق مـثـقـلات ... حـوالـك يـنـتـشـرن ويـنـطـوينـا
لـنـا فـيـهـن يـا بـغـداد عـين ... تـراقب كيف رحن وكـيف جـينـا
فـربـة قطـرة مـنـهـن تـروي ... ثراك فـتـبـعث المـجـد الـدفـينـا

وكتب لي بعد ان تم اتصال بعضنا ببعض يقول :

« هات حدثنا عن العراق العزيز من ادب ، واجتماع ، وسياسة ، وعما في بغداد من طيبات نواسية لا تبلى جدتها ، ولا تنصل الوانها الزاهية ، فان الحديث عن العراق ، وعن بغداد ليشوقني ويبعث في نشوة دونها نشوة الخمر . . . »

ويقول :

انـا وان تـكـن الـشـآم ديـارنـا ... فـقـلوبـنـا لـلـعـرب بـالأجـمـال
نهوى العـراق ورافـديـه ومـا عـلـى ... ارض الجـزيـرة من حصى ورمـال

وكان يكتب لي في اوائل ، اتصالنا بالشيء الكثير عن حبه العراق وذكره له في شعره ، وجاء في احدى رسائله الأولى الي قوله :

« وانا لا انسى العراق ابداً، وقلما ذكر لي العراق او قرأت اسمه ولم أهتف :

انـا لـنـرجـو للعـراق سـلامـة ... ان الـعـراق دعـامـة لـلـهـيـكـل
اخـوانـنـا بـين الـفـرات ودجـلة ... شـدوا يقين الشـاعـر (المتبـرزل)

وفي محبته للعراق كان يقول :

« كم يسرني ان اعرف ان لي اخواناً في العراق ، وانه يجب علي ان ازورهم متى

زرت لبنان ، ولكن اين انا من لبنان، ومن زيارة لبنان ؟ولقد اضعت الفرصة الثمينة يوم رفضت دعوة الصديق (عمر ابي ريشة) لمرافقته في زيارة لسوريا . ـ وكان الشاعر ابو ريشة يومذاك سفيراً لسوريا في البرازيل ـ ولقد اصبحنا في سن يصعب على من يكون فيها ان يستعيد ما يضيع من فرص ، وثق اني لو دعيت ثانية لاشترطت على من يدعوني الذهاب الى العراق ايضاً . . . »

وفي تحيته للثورة العراقية يقول :

مرحى قساورة العراق ... فاز الأسير بالأنعتاق
نزل الردى بالظالمين ... فعانقوه بلا اشتياق
حتى اذا ما اوشكت ... ان تبلغ الروح التراقي
سل الأباة الثائرون ... طريقهم بدم مراق. . الخ

وقرأت فيما بعد شيئاً غير قليل من تعلقه بالعراق بصورة خاصة وكان من ذلك ما نشرته مجلة (الشرق) البرازيلية في وضع الحجر الأساسي لبناء اول سفارة عراقية في (برازيليا) عاصمة البرازيل وذلك سنة ١٩٧٣ وهي قصيدة عامرة يخاطب فرحات بها الحجر الأساسي فيقول :

ايا حجراً عزّ باسم العراق ... انا نحوطك بالأكبد
ونرجو لك اليوم مجد الجدود ... واضعاف اضعافه في غد
فلو كنت والزملاء اتفقت ... على وحدة النهج والمقصد
لقامت عليك سفاراتنا ... بناء يطل على الفرقد
بناء فريداً اذا النسر ضل ... الطريق بابراجه يهتدي
حجاراته الناصعات البياض ... لها حرمة الحجر الأسود
تعود العروبة في ظله ... الظليل الى عصرها الأمجد
فمنه بجمع القلوب بقلب ... كبير بعيد المنى مفرد
تلاقى عليه الأماني العذاب ... كطير تلاقى على مورد
فيصفو الزمان وتحلو الحياة ... ونرفل بالعز والسؤدد

* * *

ويغلب على ظني ان (فرحات) قد رأى (الهاتف) في مكتب مجلة (العصبة) او مكتب مجلة (الشرق) او ان هناك من اشار عليه بالأتصال بهذه الصحيفة اذا اراد

للعراق ان يسمع صوت كأحد الأحباء المعجبين به وبوطنيته ، ولم يدر (فرحات)بأني كنت من المتلهفين الظامئين للتعرف به مراسلة بعد ان تعرفت به شعراً ، وكانت هذه القصيدة التي لا اذكرها لعدم وجود نسخة واحدة تحت يدي من (الهاتف) التي بيعت كلها على جامعة (شيكاغو) وكل ما اذكره هو اني علقت على القصيدة تعليقاً تضمن كل شعوري واحساسي نحو فرحات وشعره بالذات ، وبعثت له بأربعة اعداد من الهاتف ، فجاء جوابه على النحو التالي :

« . . . وبعد فقد سرني اني تلقيت اربعة اعداد من (الهاتف) ـ مرة واحدة ـ وكيف لا أسرّ وهذه (الهاتف) تهتف في سمعي بالف لسان ، أنظر ، وأقرأ ، وتأمل . . . فإني ـ أي الهاتف ـ من بغداد ، من مدينة المنصور ، من الزوراء ، من دار السلام ، من الحاضرة التي رفعت العرب في زمن من الأزمان الى السماء السابعة ، ثم قذفت بهم الى ما تحت الجحيم العاشرة ، وها هم الآن يتململون ليرجعوا الى فوق ولكن الى الأرض على الأقل ، انهم يريدون الآن ان يصبحوا مثل الناس لا أكثر ولا أقل ، انظر إني من بغداد ـ يعني بهذا قول الهاتف ـ ان في اسطري كثيراً من ظلال النخيل ، وفي كلماتي شيئاً من خرير دجلة بل اشياءً ، وفيها بعضاً مما كان بين الرصافة والجسر ، انظر ان فيّ شيئاً من هرون الرشيد ، واشياء من ابي نواس ، ان في حقولي صوراً لقصور الف ليلة وليلة ، وكهوفها السحرية ، اني من العراق ، واني من بغداد ، اجل هذه هي (الهاتف)تحمل الي من بغداد كل ما من بغداد من علم ، وادب ، وشعر ، وتاريخ ، ودعابة باشة ، وتهكم لاذع ، فألف اهلاً وسهلاً بالهاتف ، والف شكر لك ولها ، وبماذا تراني اقابل هذا الجميل بقصيدة اخرى من قصائدي بل بآخر قصيدة نظمتها في موضوع يشغل بالي ، ويقلق خاطري ، فالقصيدة الواصلة طيه يا مولاي نظمتها في الأسبوع الماضي ، وبعثت بها اليوم الى شيخ المجاهدين الأحرار الأستاذ محمد علي الطاهر ، وسأبعث لكم بالبريد البحري نسخة من ديوان (احلام الراعي) وليس في القصيدة ولا في الديوان ما يفي نفسي لكم من الشكر والتقدير » .

ونشرت له هذه الرسالة المتقدمة كما نشرت القصيدة المرفقة بها ، وهي قصيدة انما عنى بها الكويت لان الكويت يومذاك القطر العربي الأول الذي ينعم بهذا النفط الذي يسيل ذهبا ، وانا أدرج هنا القصيدة لاهميتها واهمية الدعوة الى وجوب مساعدة دول المواجهة لاسرائيل وفي مقدمتها الاردن يومذاك ، واعتقد ان هذه الدعوة بوجوب

مشاركة اهل النفط المجاهدين باموالهم كانت اول دعوة وجهت لأهل المال بمساعدة العرب الناهضين في وجه اسرائيل ، وهذا ما يستدعي ان نسجله لفرحات بكونه اول داع للتعاون ، ولاهمية هذه الدعوة المتجلية في قصيدة فرحات لقيت القصيدة من الصحافة العربية في معظم الاقطار العربية اهتماماً كبيراً ، فنقلت هذه الصحف عن (الهاتف) تلك القصيدة وكان لها صدى جد بعيد لم ار بأساً ان اعيد نشرها هنا .

نفط الكويت

وطني حبتك سيداً ومسودا ... وحبيت أهلك عوسجاً ووروداً
ابغي لهم رتب العلى ولو انهم ... تخذوا على جسدي الطريق صعودا
وطني الذي لغة العروبة خططت ... لبنيه ـ لا المتعصبين ـ حدودا
شيدت في لبنانه بقصائدي ... قصراً تشامخ في السماء عمودا
ومددت في صحرائه طنباً غدا ... وترا على قيثارة مشدودا
يسري النسيم به فيبعث أنة ... حرى ترجعها الرياح رعودا
يا للجناية ما نظمت قصيدة ... في حسنه الا قتلت حسودا
ولو استطعت قتلت مال ملوكه ... بذلاً لابعث عزّه المفقودا

* * *

ماذا تفيد العرب ثروة بعضهم ... ما دام حائط مجدهم مهدودا
ما افقر المتمولين اذا هم ... كسبوا بخسران البلاد نقودا

* * *

لو كان لي نفط الكويت جعلته ... يمشي على جثث اليهود جنودا
يا صاحب الأبار تقذف ثروة ... تكسو النفود من الربيع بروداً
ان الشبيبة في الازقة عندنا ... كالمال عندك في البنوك ركودا
فاذا جمعنا القوتين تحركت ... في البيد عاصفة تسدّ البيدا
منّا رجال للجهاد ومنكم ... ذهب تحوله الرجال حديدا
والمجد مشترك فباذل ماله ... جوداً كباذل نفسه مجهودا
فافتح لنا باب الرجاء نثب على ... صهيون ـ رغم الانكليز ـ اسودا
ونعد الى العرب الكرام حقوقهم ... متأزرين صوارماً وزنودا

انـا بـقـيـة امـة حـسـنـاتـهـا كـانت عـلى شفـة الـزمـان نشيـدا
فـمن الـنـبـالـة ان نـمـوت اعـزة ومن الـذالـة ان نـعيش عـبيـدا

وكتبت لفرحات بما وقع نظري عليه مما تناقلته الصحف من(الهاتف)عن هذه القصيدة وما احدثت من دويّ في الصحف العربية لا سيما وانها اول دعوة توجه لاهل النفط بمشاركة دول المواجهة باموالهم ، فتلقيت منه الرسالة التالية التي يقول فيها :

« كتبت اليّ شيئاً مما احدثته قصيدتي المتواضعة (نفط الكويت) من صدى في المحيط العربي الواعي ، واخبرك ان اخي ورفيقي الشاعر القروي كتب الي من الولايات المتحدة حيث هو اليوم انه : تلقى من الشاعر جورج صيدح جزءً من جريدة (الديار) البيروتية وفيه القصيدة ، واهم من هذا وذاك ما سأقوله لك ، وهو انه حالما بلغت قصيدة (نفط الكويت) مسامع صاحب السمو امير الكويت ـ وكان الامير عبد الله السالم يومذاك ـ عصفت في رأسه النخوة العربية ، فطار الى عمان ليعرض على حكومتها الاستغناء عن مساعدة الانكليز ، وتأليف جيش عربي يكون عربياً مئة بالمئة لا عربيا بالاسم فقط ، وهذا ما قصدت اليه في نظم تلك القصيدة التي اثمرت واينعت ثمارها في برهة لا تتجاوز ربع السنة ، أيعجبك هذا الغرور ؟ ! والحقيقة اني حالما سمعت في الراديو ان امير الكويت طار الى عمان خطر لي هذا الخاطر ، فقلت لنفسي : سأبعث به الى الاستاذ الخليلي مداعباً، وها أنا أقوم بما وعدت به النفس، ثم يعادوني الغرور فاعود الى نفسي قائلاً : وما ادراك يا نفسي ؟ ألا يجوز ان يكون هذا الأمر الذي نحسبه وهماً ، ألا يجوز ان يكون هو الحقيقة ؟ ألم يكن بيت واحد من الشعر في قديم الزمان يقيم الامة العربية ويقعدها ؟ اولا يجوز ان يكون امير الكويت من ذلك الطراز الذي فقدناه من زمن بعيد ، فهات رأيك ، وهات يدك لاصافحك بمحبة واخلاص » .

وهذه القصيدة والرسالة قد بعث بها اليّ بعد سنين من نشرها في الهاتف وبعد ان اغلق الهاتف بمرسوم واحتجب ، يقول فيها :

« كنت افتش في (اوراقي العتيقة) عن لا شيء فوجدت شيئاً لا يثمن بمال ، كنت قد نسيته تماماً ، وقد جذبني اليه لون الورقة الاصفر ـ ذلك لان مرور الزمن قد ترك اثره من الاصفرار على ورق الهاتف ـ انه لون الذهب الذي نسمع به ولا نراه ، وبعد تحديق ، وتحقيق تبينت ان الورقة الذهبية صفحة من صفحات (الهاتف) التي تغمدها

الله برحمته من زمان . . . وقد عجزت عن قراءة كتابك اي المقدمة التي كتبتها انت للقصيدة ، لان نور بصر فرحات كان على وشك ان ينطفي في سنينه الاخيرة ـ وقرأت من مقدمتك كلمة من هنا ، وكلمة من هناك ، أما القصيدة فقد كان لها الحظ الاوفر لاني قرأتها بسهولة ، ولا فضل في هذا لنظري ، وانما الفضل كله للبقية الباقية من ذاكرتي ، والشيء القليل الذي قرأته من رسالتي المرفقة بالقصيدة جعلني اتذكر معظم ما في الرسالة ، صدقني انها اعجبتني اكثر من القصيدة ، وها انا ابعث لك بهذا الكنز على أمل ان تعيده الى شبابه بطريقة من طرقك السحرية ، فاني ارى ان تضييع هذه التحفة حرام ، ولا اخالك الا واجداً في صحف بغداد وربما في مجلة (الكتاب) مثلا ، من ينفخ في الصور فينشر (ما) في القبور . . » .

ولا اذكر ما اذا كنت قد عملت برأيه ونشرت القصيدة في الصحف اليومية عند ذاك ام لا ؟ ويعود تاريخ اول اتصالي بفرحات من حيث نشر شعره في (الهاتف) الى مقطوعة وطنية اخرى كانت من اوائل ما افتتحت بها ابواب الصداقة واتصال بعضنا ببعض وهي مقطوعة قدم لها بكلمة قال فيها « ارسل اليك قصيدة (كفرّية) ـ ولم ادر لماذا وصفها بالكفر ـ فاذا وجدت الجو عندكم مناسباً فانشرها ، والا فسلة المهملات بها أولى » وقد نشرتها في حينها ، ولاهميتها انقلها هنا من اضبارة رسائله لان يدي لم تعد تصل الى مجاميع (الهاتف) في شيكاغو .

يحلم السكسون في استعدادهم ... للوغى ان يأخذوا منا جنودا
طمئنوهم اننا من امة ... تحفظ الود ولا تنسى العهودا
سوف نعطيهم شبابا باسلاً ... يحسن القتل ، وناراً ، وحديدا
سوف يلقون ـ اذا الداعي ، دعا ـ ... في ميادين الوغى منا اسودا
سوف يجنون من الغرس الذي ... غرسوه غَلّة تأبى المزيدا
كيف ننساهم وننسى انهم ... اخذوا النفط واعطونا اليهودا

ـ ٣ ـ

كانت (انيسة) اذن هي التي فتح حديثها قلبي لفرحات وجعلني اركض خلفه هذا الى جانب شاعريته الفياضة وما كنت المس من حبه للعراق في شعره ، وقد حيا الثورة العراقية الكبرى قبل وقوعها ، وقد كتبت لفرحات غير مرة باني عازم على زيارة

(كفرشيما) ليس لاجل شيء الا لزيارة (انيسة) فكان يحبذ لي هذه الزيارة ويقول :

« زر كفرشيما فانها قريبة جداً من بيروت ، وتعرّف هناك على ادبائها الاساتذة سليم نهرا ، وبديع هاشم ، وشاعرها وديع سليمان ، وحنا المرّ ، واذا زرت ناديها فستجدني مشنوقاً الى جانب المشنوقين على الحائط . . » .

ثم قال : « اما موقع (كفرشيما) - (وقعتَ - لو وقعتَ في احدى دروب (سوق الغرب)، لوقعتَ على احد سطوح (كفرشيما) . . ويمكن اني انسى كل شيء - يقول فرحات - الا منظر سوق الغرب من كفرشيما ، فعندما كنا اطفالاً كنا نرى في الليل مصابيح سوق الغرب ، وكأنها صف واحد في سوق ، وكنا نعدها : واحد ، اثنين ، ثلاثة . . الخ ولم تكن بالكثيرة .

اما انك ستذهب الى بيتي الذي ولدتُ فيه فهذا ما لم افعله انا عندما عدت بعد نصف قرن - كان قد دعاه جمال عبد الناصر لزيارة مصر وسورية سنة ١٩٥٩ وانتهزها فرصة فزار لبنان ثم عاد الى البرازيل - ومن حسنات صيدح وهي ليست قليلة - يقول فرحات !! - اني ذهبت مرة الى (كفرشيما) واياه في سيارته ، وبعد عودتنا منها كتب صيدح مقالاً نشره في جريدة الديار ، قال فيه اني لم اعرف في كفرشيما بيتنا العتيق وهو كذلك لم يعرفني ، ذلك لانه هو - اي البيت - صار جديداً ، وانا صرت عتيقاً ، ولم اره الا من الخارج ، ورأيت امامه النخلة التي اذكرها بالخير ، لاني اكلت وأناصبي من بواكير ثمارها ، وقد نظرت اليها عندما كنت هناك من مسافة مئة متر تقريباً فاذا هي لا تزال شابة » .

ومثل هذا كتبه لي غير مرة وحثني على زيارة بلده ، والحق انني لم اكن احتاج الى حث وترغيب ، فقد كنت اشد ما اكون رغبة في مثل هذه الزيارة ، ولكن اموراً وعوارض كانت تحول بيني وبين هذه الزيارة بالرغم من قربي وانا اصطاف في كل سنة (بسوق الغرب) من كفرشيما ، وفي كل سنة ازمع النية على هذه الزيارة ولم اوفق ، ومن ذا الذي لا يأنس بزيارة كفرشيما ليرى مغنى هذا الشاعر ، ومرابع صباه ، التي استمد فرحات منها حيويته فنظم الشعر عاميّه وقريضه ، واجاد في نظمه وهو صبي لم يبلغ الرشد بعد ، لا سيما وان واحداً مثلي وهو يتتبع شعر هذا الشعر منذ اربعين سنة وتشده اليه صداقة مفعمة بالمحبة ، اقول ولا سيما ان واحداً مثلي من حيث المحبة المتبادلة والاعجاب ، ليلذه الوقوف اما بيته ، والتجوال حول ملعبه من الحارة ، والتحدث الى

حبيبته التي كنت شديد الشوق الى رؤيتها والتعرف بها ، وما انتهى اليه امرها طوال خمسين عاما واكثر تلك الحبيبة التي يقول فيها فرحات :

بـفـونها تحـير الانـسـانـا وتـبـعـث الافـراح والاحـزانـا
ان فـتـحـتـهـا فـتـحـت ديـوانـا يـعـلـم الـتـوقـيـع والالحـانـا
والسحر واللاهوت والايمانا

بل كنت اريد ان اعرف كل شيء عن حياة هذا الشعر النابغة فالتحسس بعيني واذني ، وذهني ، طريق مدرسته الذي كان يقطعه كل يوم ذهاباً واياباً ، وان اسمع من (انيسة) مشافهة حكاية (خصلة الشعر) .

وازمعت النية في هذه المرة جاداً ، والطريق من (سوق الغرب) الى كفرشيما الواقعة بالقرب من بيروت لا بد وان يمر (بعينعنوب) بلد جرجي زيدان الذي ولد فيه ونشأ وترعرع ، ولي في (عينعنوب) أسرة لي فيها غير بيت واحد من الاصدقاء هي (آل قائدبيه) ، وعن طريق آل قائد بيه عرفت في (عينعنوب) نجّاراً من قالة الزجل العامي الجيد ، المسمى جميل كامل ، وقد علمت انه قد وضع لكل قرية مشهورة من قرى الجبل بلبنان علة يعين بها سبب تسميتها على سبيل الدعابة ، والطريق للخروج من (عينعنوب) لا بد ان يمرّ على محل نجارة جميل كامل ، لذلك مررت عليه ونزلت من السيارة مسلماً وقلت له : انني في طريقي الى كفرشيما فهل ان كفرشيما قد حظيت ببيت من شعرك فيها ، قال ألم تسمع قولي فيها من قبل فأجبت بالسلب فقال :

(شيما) ولذْ مـطـبـوعْ مـطّوعْ نفـر ومن الصلا ، والصوم ، شي قلبو نفر
ومرّه ، غضب (شيما) على الربّ الكريم ومن يومها ، قالوا (كفرشيما) كفـر

واعجبتني هذه المزحة ورحت اكرر قوله هذا حتى حفظت البيت واسفت لاني لم استكتبه اسماء بعض مدن الجبل المهمة ولا سيما (سوق الغرب) التي اعتدت الاصطياف فيها من كل سنة ، ولعلي اذا مدّ الله في عمري ورأيته فعلت ذلك ، .

أما المعروف فهو ان اسم (كفرشيما) سرياني قيل انه يعني (حقل الفضة) وذكر لي مرة فرحات في احدى رسائله انه ذكر هذا الاسم مرة امام احدى السيدات التي كانت تزورهم وقال لها انهم يسمونها (بحقل الفضة) وليس هناك فضة ، ولا تنك ، فقالت السيدة ـ يقول فرحات ـ : ألا يوجد حوالي كفرشيما شجر زيتون ؟ فقال فرحات انها مغمورة بشجر الزيتون ، فقالت انني اظن ان هذا الاسم قد جاءها من هنا ألا ترى ورق

الزيتون بلون فضي ؟

وبلغت (كفرشيما) ووقفت بي السيارة امام بيت بديع هاشم رحمه الله ، وهو بيت سامق رفيع ، ولقيت منه ترحيباً حاراً ، وبعد شرب القهوة عنده صار هو دليلي الى ما ابتغيه من هذه الزيارة .

ها هوذا بيت الشاعر وليس له فيه الان ولا حجارة ، فقد أمتلكه آخرون واحدثوا فيه الكثير من التغييرات ، اما الذي بقي على حاله القديم ولم يتغير فهو الطابق الارضي ، فقد قيل لي انه لا يزال كما كان على عهد ابوي فرحات ، وقد ولد فرحات فيه ، ودبّ وترعرع ، وشب في صحنه وحجراته ، والبيت واقع في منحدر من الشارع تهبط اليه كحالك وانت تهبط الى الوادي ، وكانت وقفتي امامه اشبه بوقفة الناسك الخاشع في محرابه ، فقد بدا لي اني ألج مقاماً مقدساً لا ينبغي ان الجه بدون خشوع وتعظيم ، وصرت اتصور هذا الشاعر في جميع مدارج طفولته من ولادته حتى صباه ، وحسبتني انا الذي نشأت في هذا البيت ولعبت في هذه الحارة ، واحببت انيسة ، وهاجرت الى البرازيل من اجلها ، وكأني انا الذي حننت الى تلك الايام وانا القائل عنها :

ايام لا اعرف معنى الهم ولا أبالي بالشقا الملّم
ان ينضب الماء من الخضم أو يصعد الموج الى الاشم
ما دمت بين والدي وامي

وانا نجفي ولدت في (النجف الاشرف) وجرى على بيتي الذي ولدت فيه ، وترعرت ، ما جرى على بيت فرحات ، فقد امتلكه منا اناس اخرون ، وحين تتسنى لي زيارة النجف في مناسبة من المناسبات ، كنت اتسلل من بين رفاقي خلسة واقصد على غفلة من معارفي ذلك الزقاق الذي كنت أمر به كل يوم في طريقي الى المدرسة ، واقف عند هذا البيت الذي ولدت فيه ، فهو لا يزال باقياً على حاله كما تركناه يوم باعه أبي ، وهنا أقف طويلاً عنده ، وبنفسي لو استطعت الدخول الى صحنه ، وبنفسي لو دخلت الى موضع منامي منه لأرى هل لا يزال ذلك البيت الشعر الذي كتبته على جدران الغرفة وانا طفل جديد العهد بقراءة الشعر باقيا ، وهل ان ذلك البيت من الشعر ولا اذكر من هو قائله لا يزال منقوشاً على الجدران ؟ ثم لأرى بعيني مقام امي وابي من هذا البيت ، وتسيل هنا دموعي على خديّ اذا أمنت من خلو الزقاق من المارة ،

وتجمد هذه الدموع ، وتنحبس انفاسي في صدري اذا مرّ من هناك مار لكيلا يراني احد باكياً .

وهكذا وقفت من بيت فرحات بكفرشيما مثل وقفاتي من بيتي في النجف الاشرف ولولا الخجل من بديع هاشم الذي كان يصحبني لما استطعت ان احبس دموعي .

ووقفت عن كثب امام دار (انيسة) ولم أدخلها كما كنت اتمنى ، لأن انيسة قد ماتت منذ اربع سنوات من هذه الزيارة ، وكان قد اعتراها شيء مما يشبه الذهول او ما يشبه فقدان التوازن ، فلم يمض كثير على زواجها حتى ندمت ، وتحول هذا الندم الى وخز صار يقلق راحتها ليلاً ونهاراً ، وكانت تجمع شعر فرحات في محفظتها ، وتقرأه على زائريها وعلى المزورات من قريباتها ، وكانت تلهج باسم فرحات في كل مكان وتفضل شعره على شعر جميع الشعراء وتباهي به .

وتقول السيدة سلمى سري الدين بنت الدكتور حسين سري الدين وهو من أكابر الدروز ووجهائهم ، وهي من فضليات النساء المثقفات تعيش في البرازيل بالقرب من (بلوارزونتي) وقد توفيت اخيراً وحزن عليها فرحات ، وانا الآخر حزنت عليها اذ كانت قد جاءت لزيارة اهلها في (قرنايل) وزارتني هي واختها في (سوق الغرب) ورددت لها الزيارة) .

تقول سلمى سري الدين عن انيسة انها كانت مجنونة بحب فرحات ، وان فرحات كان ابن خالها ، وكانت محفظتها مملؤة بالأوراق والقصاصات من الجرائد والمجلات التي يأتي فيها ذكر فرحات وشعره ، وطالما كانت تقول انها هي التي خلقت من فرحات شاعراً ، ـ وقد كتب لي فرحات مرة ونحن في عرض حديث انيسة مصدقاً كونها هي التي هاجت قريحته ويقول لي بهذا النص (ان الذي تقوله انيسة لا يخلو من الواقع والحقيقة ـ

وتقول سلمى سري الدين هذه : ان (انيسة) كانت ذات يوم في زيارتنا وكانت تحمل معها حقيبتها المليئة باخبار فرحات ، وكان بشير الأعور وهو من شعراء لبنان وادبائها المعروفين ، وقد كان يومذاك (محافظا) لشمال لبنان وكان يزورنا هو ايضاً ، وراحت انيسة تتحدث عن فرحات وشاعريته ، فسأل الأعور هذا انيسة على سبيل الدعابة : أتعرفين بشير الأعور ؟ ـ وهي لم تكن تعرف ان هذا السائل هو بشير الأعور نفسه ، فقالت له ومن هو هذا الأبله ليأتي اسمه مقروناً باسم فرحات ؟ فبلع الأعور

ريقه وسكت عن الرد على ما قالت المرحومة سلمى سري الدين .

وقد ماتت (انيسة) ونفسها عالقة بحب فرحات ، اجل لقد وقفت امام بيتها وانا اتصورها كما لو كانت حية ، اذن لكانت ريشة في مهب الرياح على ما بلغني من حبها العارم ، ثم اتصور احكام الظروف التي كثيراً ما تغير معالم الحياة وهي تذيب في نفسها هذا الحب ، وتخمد في قلبها جذوته لتتزوج ، ولكن الواقع يثبت ان هذا الزواج لم يستطع ان يستأصل جذور الحب القديم فقد بقيت جمرته مخبأة تحت الرماد ، فما مرت الأيام حتى توهجت، فإذا بها شعلة يزيدها التأنيب والوخز اشتعالاً وتوهجاً ، ولكن فرحات كان قد تزوج ولم تبق في نفسه الا الذكريات المريرة التي دل عليها اكليل الورد الذي وضعه فوق قبرها يوم زار (كفرشيما) بعد فراقها بنحو ستين سنة ، وكثيراً ما عبّر شعره عن هذه الحبيبة ومن هذا قوله :

لـو يعـود الشبـاب عـاد شبـابي عنـد خمريـة اللمى والـرضـاب
عند من لو مشت على جفن عيني مـا احسـت بـوطئـهـا اهـدابي

لقد تصورت كل هذا ، وتصورت انفعالات هذه الحبيبة ، وندمها ، وبكاءها حظها ، وما بدت تعاني من تبكيت الضمير وانا اصعّد النظر في هذه العلية من هذه الهضبة ، ودموعي محصورة بين جفوني ، ولو لم يكن حولي بعض الرفاق ومنهم بديع هاشم لبكيت ما شاء الله ان ابكي . . .

وعدت اخطو بثاقل ، ونفسي مفعمة بالأخيلة والصور ، مشحونة بالآلام والمرارة وانا أسأل :

ـ ترى ما هي حصيلة هذه الزيارة ؟

صحيح ان للفطرة والاستعداد الذاتي الشأن الأكبر في قابلية فرحات الشعرية ولكن للعوامل التي تصقل هذه المواهب اهميتها الكبرى في هياج الشاعرية ونضجها وكان لحب انيسة الأثر الأكبر من هذه العوامل ، ثم كان للبيئة من موقع (كفرشيما) ومائها ، وهوائها ، وبساتين الزيتون التي تحوطها ، وبضع نخلات تذكرك بالجزيرة العربية وطبيعة سكانها الهادئة الرضية أثره غير المتكرر في نشأة الموهوبين ويأتي منهم فرحات في الطليعة ، فقد قيل لي وانا بكفرشيما ان فرحات رأى وهو في مقتبل العمر شيخاً مسناً يستقل عربة والى جانبه فتاة جميلة وفي ريعان الشباب وقد قيل له انها زوجة هذا الشيخ وقد تزوجته لما له فقال ، وقد وجدت بسوق الغرب وعيتات من يحفظ قوله

هذا وهو يخاطب الفتاة قائلاً .

تـزوجـتِ هـذا المـسـنّ لمـاذا ألـسـت تـريـن بهـذا شـواذا
تسيـريـن معـه بـوسط الـطريـق فـيـسـأل قـوم أجـدك هـذا ؟
وتـلهـين بـالمـال طـول الـنهـار ولـكن متى الليـل جـاء بمـاذا ؟

قرأت مرة لجورج صيدح حكاية عن ناصيف اليازجي انه كان يسأل مازحاً كل من يأنس فيه فطنة ، وذكاء، وادباً ، عما اذا كان من مواليد (كفرشيما) فإذا جاءه الجواب نفياً قال له :

ـ اذا لم تكن من مواليد (كفرشيما) فقد يكون ابوك او جدك ، او احد أرحامك القدامى قد تولّد في (كفرشيما) او قد مرّ بها على الأقل ، او عاشر واحداً من اهلها فاقتبس منهم الذكاء ؟ !

والعجيب من امر فرحات انه صار شاعراً وشاعراً من كبار شعراء العربية وعاش ٨٤ سنة ومات وهو لا يعرف النحو والصرف والعروض ، اما جهله بالعروض فهو من الأمور الهينة ولكن شاعراً يملأ عشرة دواوين بالشعر الجيد الذي قلما يجد القارىء كلمة ، تشذ عن قاعدة النحو والصرف واللغة فيها في حين لم يقض في (كفرشيما) الا النزر اليسير لكي تعزى هذه الملكة الى هذا البلد الذي انجب مثل ناصيف اليازجي وابراهيم ، وانما قضى كل عمره في الغربة ، وفي محيط لا تمت لغته الى اللغة العربية بأية صلة من التقارب لشيءٌ عجيب وفي غاية العجب .

ويقول فرحات في مزاولته الأولى للنظم ، وقبل ان تستقيم سليقته ويحسن وضع الكلمة في موضعها ويتجنب اللحن دون ان يعرف ولا كلمة من النحو والصرف ، يقول : لقد جاءنا اديب عربي وانا يومذاك في (جويزدي فورا) من البرازيل وقال لي : سمعت انك تنظم الشعر فهلا أسمعتني شيئاً من نظمك ؟ وكانت لدي قصيدة هي من اوائل نظمي وكان مطلعها هكذا :

ضـروباً من الأهـوال حملني دهـري وجـرّ عـليّ الهم والـذلّ والقـهـر

فلما سمع الرجل هذا المطلع ضحك وافهمني انني جئت بالجر خطأ في هذه القافية وان القاعدة هنا ان يكون (القهر) منصوباً وانت جررته ، وشرح لي هناك السبب ، وانا اؤكد ـ يقول لي فرحات ـ ان هذا كان كل ما سمعته ولا يزال حتى اليوم ، اول درس تلقيته من النحو ولم اتلق غيره . . . !!

وتشير احدى قصائده بوضوح الى انه لم يدرس النحو والصرف او اية قاعدة من قواعد اللغة العربية ، ومثله كان ايليا ابو ماضي الشاعر الذي قلت نظائره ، ولا أدري أظل هو كذلك مثل فرحات حتى مات ام انه تسنى له ان يعرف شيئاً من القواعد العربية فيما بعد ؟

وهذا هو الشاهد على نشأة فرحات الأدبية الفطرية اذ يقول :

يقولون عمن اخذت القريض ... ومن تعلمت نظم الدرر
وما كنت يوماً بطالب علم ... فانا عرفناك منذ الصغر
فقلت اخذت القريض صبيا ... عن الطير وهي تغني السحر
وعن خطرات النسيم العليل ... يمرّ فيشفي عليل البشر
وعن ضحكات مياه الجداول ... فوق الجلامد تحت الشجر
وعن زفرات المحب الاديب ... يزاحمه الموسر المحتقر
وعن نظرات الحسان اللواتي ... يكدن يغلغلنها في الحجر
وعن عبرات الحزانى الضعاف ... ففي عبرات الحزانى عبر
فذا الكون جامعة الجامعات ... وذا الدهر استاذها المعتبر
ففي المبكيات بيان جميل ... وفي المضحكات معان غرر
وفي كل ما يبصر المبصرون ... دروس تناوبهن الفكر - الخ

وكان توفيق قربان يزعم بانه هو الذي قوّم لفرحات شعره ايام نزوله (بكورتيبيا) ولكن هذا الزعم من توفيق قربان يخالف الحقيقة ، ذلك لأن توفيق قربان سكن (كورتيبيا) بعد سكنى فرحات لها بزمن وبعد ان كانت شهرة الياس فرحات كشاعر قد دوت في الأقطار العربية ، وتناقلت الصحف العربية في مصر وسوريا ولبنان نماذج من قصائده ، ونشر له محي الدين رضا مجموعة من شعره في كتابه (بلاغة العرب في القرن العشرين) قبل ان يسكن توفيق قربان (كورتيبيا) بل لعل ذلك كان حتى قبل ان يتعرف توفيق قربان بالياس فرحات (ويسمع باسمه) .

هذا اضافة الى اني لم اقرأ لقربان من الشعر ما يسوغ لي ان اعزو اليه بعض هذا المدعى منه ، وكل ما اعرف عنه انه كان لغوياً ، وبعد ذلك فإن أكبر ما يفند مدعى (قربان) هو نضج شاعرية الياس في شعره العامي والقريض في عهد بعيد جداً من عهد قربان بحيث وجّه فرحات قصيدة عامرة الى الملك فيصل (الأمير فيصل حينذاك) مهنئاً

له بموقفه في فرسايل وهو يدافع عن حقوق العرب ومستقبلهم وكان ذلك سنة ١٩١٩ وقد تلقى من الأمير فيصل رسالة شكر تفيض بالأمتنان ، فأين كان قربان في ذلك الوقت وهو لم ينزل (كورتيبيا) ولم يتعرف بفرحات الا في سنة ١٩٢٢ .

ويقول لي فرحات عن نفسه وعن تعلمه العربية انه كثيراً ما يلتقي بمن يسأله عن كيفية تعلمه اللغة العربية، وأين تعلمها ؟ فيجيب بأنه لا يعرف كيف ؟ ولا أين تعلم هذه اللغة ؟ لأنه لم يدرسها على نفسه ولا على غيره ، وانه ترك مدرسة الضيعة وله من العمر عشر سنوات ، ولم يكن قد قرأ من الكتب عند الراهب الا مزامير داود .

وحين زاره حنا خباز في بيته في البرازيل لم يجد عنده من الكتب الا كتاباً واحداً هو (جغرافية فانديك) ويقول فرحات :

« ولم اتصفح طول حياتي كلها كتاباً في الصرف ، او النحو ، والعروض ، والقوافي ، ولم افهم كيف يكون وزن الشعر مضبوطاً اذا لم يكن مضبوطاً بميزان اذني . . ؟ » .

ولكن (فرحات) على ما اعلم قرأ كثيراً ، واحاط بشيء كثير من تاريخ العرب والاسلام ، وتتبع آثار الشعراء . وتعلق بالمتنبي بصورة خاصة ، وكتاب (رباعيات فرحات)دليل على استخلاص العبر والأمثال والشواهد لسنّة الحياة وكم كان يأتي هذا عند الشعراء القدماء في عرض قصائدهم ولا سيما المتنبي منهم .

* * *

وكتبت عن هذه الزيارة زيارتي لكفرشيما مقالاً نشرته في مجلة (الضاد) الحلبية ، ونقلته عنها احدى الصحف العراقية ،وكان له وقع حسن في نفس الياس فرحات ، وقد اشار اليه في غير رسالة واحدة من رسائله وجاء في احدى رسائله قوله :

« مرة اخرى اشير الى زيارتك لكفرشيما حامداً ، شاكراً ، مكرراً القول بان ما كتبته في (الضاد) عن زيارتك لكفرشيما كان صورة لأدبك ، ولطفك وحبك ، وكان صورة لكل ما يصدر من قلمك من تعقل ، ورزانة ، وانت تعلم اني كما انتقد صادقاً ، فإني اقرظ صادقاً ايضاً ، فأنا لا اعرف غير الصدق ، ولقد صرت تعرفني ، وتعرف ما فطرتُ عليه . . . وحسبي ان اقول : انه مقالك هذا كان جعفرياً خليلياً) وانت تعلم ما لهذا الأسم الكريم عندي من تقدير واعتزاز . . . » .

وكان من حسن حظي ان يلاقي اسمي عنده هذه المكانة التي انا اعترف انا بأني لا

استحق هذا الاهتمام ولا بعضه ، وقد كتب لي ذات مرة في احد رسائله :

يقول : « وأخبرك أن لي ابن اخ في بيروت سماه أبوه (جوفري) اما انا فسميته (بجعفر) . وقد كتب لي هذا الصبي مرة وكان لا يزال في المدرسة ـ محتجاً على هذا الأسم الذي اطلقته عليه ـ فأجبته قائلاً :

لن يجديك الاحتجاج شيئاً ، فإذا كان عمّك يجعفرك ، فليس على الأرض قوة تجوفرك » .

وصدق فرحات حين قال انه كان صادقاً في كل ما يقول ويفعل فإن له من الشعر ما يؤيد هذا القول ومنه قوله :

واني ارى ان الـريـاء مـعـرة ... وان خبيث القول في الصدق طيّب

وقوله في الكذب والكذاب :

انـا سكتنـا عن الكذّاب فـانفتحت ... قـدامـه لفنـون الكـذب ابـواب

يـلقي عـلينـا احـاديـثـاً ملفـقـة ... ولا نقـول لـه اسكت انت كـذاب

ويقول لي فرحات : « . . . وانا لا أكذب على نفسي ، ولا أكذب على الناس » وقد صدق والله في قوله ، وقد كان صريحاً في كثير من الأحوال ولا يجامل الا في حدود معينة ، ولا يكذب اذ يقول :

واني لمطبوع على الصدق جاهر ... بآياته ، والنصل في النطع يقصر

اقول لذي العينين انك مبصر ... وللاعور المغرور انك اعور

وكان ينوي ان ينشر مذكراته باسم (عودة الغائب) ولم ادر ان هذه المذكرات كانت تعني زيارته لمصر وسوريا ولبنان وكفرشيما ، خاصة وكل ما ظننت انها تشبه مذكرات (جرجي زيدان) التي قام بنشرها صديقي الدكتور صلاح الدين المنجد ، لذلك كلمته بخصوص نشر هذه المذكرات فرحب بها ، وكتبت لفرحات بذلك فرحب هو الآخر وبعث بالمسودات باسم (عودة الغائب) فإذا بها شرح للرحلة التي قام بها وليس فيها الا ذكر الذين دعوه ، وكرموه ، والقوا في الاحتفاء به القصائد ، وحين جاء ذكر (كفرشيما) لم أجد فيها احاسيس شاعر خلفت في نفسه ذكريات عاد اليها بعد أكثر من نصف قرن ليحييها من جديد ، وليبكي على اطلالها بكاء الحزاني على ما ضاع منه هناك ، وكان لا بد ان يعتذر المنجد عن نشرها لا سيما وان فرحات كان يفيض مدحاً لمن يستحق هذا المدح من شعره على ما يعتقد ولا يستحق مثل هذا المدح على ما نعتقد

نحن ، وحصل من يطبع (عودة الغائب) هذه فلم ترقني ، فكتبت له بمآخذي عليه في جمع هذه القصائد ونشرها واغفال جوانب ذات اهمية من احاسيسه وهو يزور بيته الذي ولد فيه ، وهو يقف امام بيت انيسة ،ويضع اكليلاً على قبرها ، وما كان يشعر به وهو يدخل هذه الضيعة بعد اثر من نصف قرن ، فكتب لي يقول :

« . . . اما ماكنت تريد ان تقرأ لي في وصف احاسيسي في (كفرشيما) فانا لا أنكره عليك ، ولكن ربما لطول غربتي ، ولانقطاع صلتي بها نحواً من نصف قرن قد اضعف شعوري نحوها ، واما تعجبك من عدم زيارتي لبيتي ، فسيزول متى علمت بأني أنفت من دخول بيت تركت فيه والدي واخوتي الصغار ، وهو لا يضم اليوم الا وجوهاً لا اعرفها ، ولهذا فقد اكتفيت برؤية البيت من الخارج وعن بعد خمسين متراً » .

والذي يعرف الياس فرحات ويعرف شعوره المرهف لا يقبل منه هذا العذر ، وقبل وفاته بأكثر من سنة صدرت له هذه المجموعة باسم (مذكراتي) افاض فيها في شيء من الأسهاب بمذكرات صباه ونشأته ولكنه ترك شعوره بزيارة (كفرشيما) كما هو دون اهتمام !!

- ٤ -

وتغلغلت في حياة الياس فرحات عن طريق رسائله حتى عرفت الكثير من احواله ، وقد خصتني بذكر الشيء الكثير من شؤونه الادبية والاجتماعية ، فميلاده كان في (كفرشيما) المدينة السريانية القديمة ، وقد ولد فرحات في سنة ١٨٩٣ وتلقى دروسه الاولية عند راهب الضيعة الذي كان يقوم بتدريس الاولاد ، واليه يعود الفضل في نشر القراءة والكتابة في هذه الضيعة ، وعمل فرحات نجاراً ببيروت وزحلة وهو لا يزال بعد صبياً لم يبلغ الحلم ، وسافر الى البرازيل ـ كما مرت الاشارة ـ ليعمل هناك ويجمع مالاً يعود به ليتزوج من حبيبته (انيسة) وكان ينظم الشعر ، القريض والعامي منه وهو لا يزال صبياً ، وفي البرازيل كان يتجول في السنين الاولى بين المدن حسب (مقتضيات المعيشة) ثم سكن (كوريتيبا) وحين بلغه خبر زواج (انيسة) قدم هو على الزواج وكان ذلك في سنة ١٩٢١ ، وزوجته هذه من اسرة جبران خليل جبران ، ومن مدينة (بشري) بلبنان الشمالي ، ولكن فرحات لم يفخر بها ـ كما يقول ـ لانها قريبة جبران ، وفيما قبل زواجه بليلة واحدة نظم قصيدته التي يخاطب بها الليل والتي يقول فيها :

يـا ليل خـذ بيـد العـزوبـة واهـدهـا خـير السبيـل
لم يبق لي فيهـا وفيـك من الـرجـاء سـوى القليـل

ويختم قصيدته هذه بقوله :

مهـما يكن يـا ليـل من امـري ومن امـر الغـد
ودّع وضـع يـدك التي تسـع البـريـة في يـدي

وان (كورتيبا) مدينة عرف طقسها في الشتاء بشدة البرد واتيح له ان يشتري فيها بيتا ، ولهذا البيت قصة احد اطرافها الشاعر شفيق معلوف ، اذ حينما عثر فرحات على بيت رخيص يباع هناك لم يكن لديه من النقود ما يستطيع به ان يشتري هذا البيت فلجأ الى (شفيق معلوف) وقد كان شفيق في عيش رغيد ، وحالة ميسرة ، طالباً منه ان يقرضه مبلغاً يستعين به على شراء البيت ، ويقسط عليه القرض تقسيطاً ـ وكانت حال فرحات من العسر وظلت كذلك الى ان مات ـ لم تشجع (شفيقا) على مدّ فرحات بهذه الاستدانة فاعتذر منه ، واخيراً حصل من يدفع لفرحات ثمن البيت قرضة حسنة استطاع فرحات ان يسدد اقساطها في مواعدها بدون تلكؤ ، وكان هذا سبب انقطاع العلاقة بين فرحات وشفيق معلوف الى ان مات الاثنان في وقت متقارب ولم يزر احدهما الثاني ولم يكلمه ، وقد روى لي جورج صيدح ان فرحات زاره يوم مرّ (بسانباولو) وعند الباب علم فرحات بوجود شفيق عنده فأبى أن يدخل وعاد من حيث أتى .

وانتقل فرحات من (كوريتيبا) الى (بلوارزونتي) اي الافق الجميل ، بعد ان كان قد قضى خمساً وعشرين سنة في (كوريتيبا) وصار له أولاد تخرجوا من الجامعات وقد سكن بعضهم معه في (بلوارزونتي) وسكن ابنه عصام في (كوريتيبا) يعمل في المحاماة ، اقول وحين جاءها فرحات زائراً لابنه عصام بعد فراقه لها نحو خمس وعشرين سنة قال فيها :

رجـعت الـيـك محتـمـلاً مشيبـي ... افـتش في ربـوعـك عـن شـبـابي
وأسـأل عـنـه بـالـنـظر الـغـواني ... فـهـن نهـبـنـه قـبـل اغـتـرابي
هنـا وهنـاك من كبـدي بقـايـا ... مـبـعـثـرة عـلـى هـذا الـتـراب
غـمـسـن بهـا اظـافـرهـن لهـواً ... فـكـان لهن مـفـتـخـر الخـضـاب

وكتب لي مرة بقول : « اني عشت فيها وانا ابن خمس وعشرين سنة حتى صرت ابن خمسين سنة وانت تعرف معنى هذا . . . » .

وشعر فرحات بوجه عام خال من التبذل ، والفحش والبذاءة ، والعربدة وتحفظه البادي في ابياته المتقدمة ، وفي بيت شعره الذي يقول فيه :

بني وطني لا تحسبوني معربداً فمن كان مثلي يستحي ان يعربدا .

وامثاله الكثير دليل قاطع على سيرته في حياته .

ومدينة (بلوارزونتي) هي احدى مدن ولاية (ميناس جرايس) وهي من اكبر ولايات البرازيل ، وتقدر نفوس هذه الولاية بثمانية ملايين ، ويقول فرحات ان ليس في (بلوارزونتي) التي صار يسكنها بعد (كورتيبا) على رغم كونها اجمل مدن البرازيل - كما يدل عليها اسمها - ما يطيّب له السكن لانه كان يعيش فيها وحده من حيث المجتمع اذ ليس فيها ادب ولا ادباء عرب ، ولولا رسائل الاخوان التي تأتيه من هنا وهناك : « لكنت اعلن جنوني » على ما يقول .

فهو في هؤلاء النازلين من العرب في البرازيل يقول :

عاب المدينة ان النازلين بها من آل يعرب ليسوا في الهوى عربا
فان تزرني تقل هذا اخو ادب وإن تزرهم تقل ما اضيع الادبا

وعلى مسافة ليست بالبعيدة كثيراً من (بلوارزونتي) تقوم مدينة (فالادارس) تكثر فيها الجالية الدرزية ولفرحات فيها صديق درزي اسمه (عادل زهر الدين) وكان يعرف انني من اصدقاء الدكتور (امين زهر) بسوق الغرب ، وهو درزي ايضا وطالما خصه فرحات بتحياته ، وقد كتب يسألني هل ان الدكتور امين زهر هو من آل زهر الدين ومن اسرة صديقي (عادل زهر الدين)؟ فكتبت له ان الدكتور امين (زهر بلادين) وكم انعشه هذا الوصف ، وكم أشار اليه في رسائله إذ أنه والدين في خلاف عجيب وله من الشعر ما يهجو به الخوارنة والمطارنة الشيء الكثير .

ولست ادري أين قرأ ترجمتي لبيتين فارسيين اللذين جاءا على هذه الصورة :

ان يمت من مشايخ الدين شيخ نبتت وردة مكان الفقيد
وقياساً فان يموتوا جميعاً تغد ايران جنّة من ورود

فظل مدة طويلة وفي اية مناسبة يبدي اعجابه بهذين البيتين ويطربني لانني ترجمت شيئاً يلائم مزاجه ، ومما كتبه مرة انه قال لي : « . . . واخبرك ان البيتين اللذين كتبتهما لي في هجاء المشايخ فهما والله تحفة ليت أماني الشاعر تتم ، وليته يضم اليهم اخوانهم من (مشايخنا) .

واعرف ان اولاد فرحات اربعة هم : الست ليلى ، وهي اكبر اولاده ، ويليها في السن خالد ، وهو مهندس طيران ميكانيكي اشتغل بالتجارة مشاركا لصهره بعد ان تقاعد ، ثم عصام وهو محام ناجح يقيم (بكوريتيبا) المدينة التي قضى فيها فرحات خمساً وعشرين سنة ، ولفرحات عدد من الاحفاد وهو يعنى بهم ، ويزور فرحات وزوجته ابنهما هذا لماماً بعد ان سكنا (بلوارزونتي) ثم يلي اولاده الثلاثة (منى) وكل اولاده متزوجون وهو وزوجته يقيمون في بيت ابنه خالد (ببلوارزونتي) اما بيته فقد باعه فرحات حين تلقى دعوة لزيارة مصر وسوريا ولبنان ، ولربما ظن ان الاحوال قد تفرض عليه الاقامة بلبنان ولن يعود الى البرازيل ، وحين عاد الفى ان اثمان العقارات والبيوت قد ارتفعت فلم يعد بوسعه ان يشتري بيتاً لا سيما وقد تصرف ببعض ثمن البيت ثم اتى عليه بالتدريج لذلك لم ير بداً ان يساكن ابنه خالداً ، وكان يثني على زوجة خالد وفرط عنايتها به وبام خالد ، ولفرحات غير اخ واحد ، واخت واحدة ، وفي اواخر الثمانينات من عمره كان طوله ١٦٤ سنتمتراً ، ووزنه لا يزيد على ٥٧ كيلو غراما ، وهو دقيق الجسم قصير القامة ، وقد كان في شبابه وكهولته اثقل وزناً من شيخوخته ، وكان يدخن حتى اواخر كهولته من سنة ١٩٦٤ حيث اشتد عليه السعال وضيق النفس فترك التدخين الى النهاية ولكن آثار هذا التدخين من السعال وضيق النفس ظلا يلازمانه الى ان غادر الدنيا .

- ٥ -

وفرحات حلو المزاج ، طيب السريرة ، لا يخلو من السذاجة التي قد ترافق الاخيار الطيبين ، وانه ليأخذ الامور بمأخذ الجد في الغالب ، ومع ذلك فلم تخل حياته من النكتة والندرة الفكهية ، التي تجيء عفو الخاطر ، فهو معي ومع الصديق الحميم وديع فلسطين على طرفي نقيض فيما يخص اغلب ساسة الاقطار العربية لان فرحات ينزل هؤلاء الساسة منزلة الانبياء ونحن اي وديع فلسطين وانا ننسب جميع ما جّر على العرب ولا سيما على فلسطين من بلايا ومحن ، ونكبات، الى اخطاء اولئك الساسة ، ولكن فرحات يرى في مثل هذا الرأي مروقاً منا وعلى الاخص فيما يتعلق بجمال عبد الناصر الذي كان وديع فلسطين يجادل فرحات في سلامته من الاغلاط السياسية الفظيعة فيغضب فرحات ويكتب لي قائلاً انه برم بي وبوديع وانه قد كتب لوديع ـ كما قال ـ وهو

يكتب لي الان بانه قد زعموا ان فتى قتل صديقاً له فسيق الى المحكمة ، وسأله القاضي قائلا :

ـ لم قتلت صديقك ؟

فاجاب ـ يا سيادة القاضي ، انا لسوء الحظ ابن زانية ، وانا اعلم اني ابن زانية ، وأتألم كثيراً ، ويحزنني هذا كثيراً ، وان صديقي القتيل لا ينفك عن قوله لي باني ابن زانية ، وبذلك ينكىء لي جراحي ، فقتلته لارتاح . . . وقد حكم القاضي ببراءة القاتل على ما تزعم الرواية ، وانا يا صديقي ـ يقول فرحات ـ اعرف كل ما يعرفه وديع فلسطين وتعرفه انت من عيوب بعض الساسة العرب ، ولكنهم امتي التي احبها ، وليس في امكاني ان اتبرأ منها ، فارحني من هذه النغمة . . ـ والا قتلتك وقتلته ـ والذي يعرف فرحات يعرف انه لا يقتل حتى النملة فاذا جوزنا له قتلي فلا احسب ان هناك من يجوز له قتل الصديق وديع فلسطين الذي ينعدم وجود نظرائه في هذا العصر . . .

ومن نكاته التي تأتي عفو الخاطر هو ان اغلب الجالية اللبنانية من الدروز الذين يسكنون مدينة (فالادارس) من آل زهر الدين ، وسري الدين ، وفخر الدين ، وعلم الدين ، وتقي الدين ، وجلهم من اصدقاء فرحات ، وقد بعث لهم ذات يوم بطاقة تهنئة بعيد الاضحى الذي يعده الدروز اكبر عيد وأجله ، وذيّلها بتوقيع يقول فيه من (محروق الدين) الى فلان الذين . .

وكان بين فرحات وتوفيق ضعون شيء من عدم الرضا على ما يستبان من ذكر توفيق ضعون لالياس وكان ضعون يصدر مجلة (الدليل) في البرازيل فاتجهت نكتة فرحات الى مجلة (الدليل) فصحف منها حرف (الدال) وابدع في هذا التصحيف غاية الابداع اذ قال :

وقعت على دال(الدليل) ذبابة فغدا (الدليل) كما نراه(ذليلا)

ومن تفكهاته العابرة التي تمر في عرض الكلام هو ان غرفة الانتظار في السفارة السورية بالبرازيل كانت ذات يوم غاصة بالمنتظرين لنوبتهم للدخول على السفير السوري ـ وكان يومذاك الشاعر المعروف (عمر ابو ريشة) واذا بالمستخدم يخرج من السفير وينادي يوسف اليازجي ملقباً اياه (بالبكوية) قائلاً : ليتفضل يوسف بك اليازجي ، فالتفت فرحات الى اليازجي وقال له : وحتى انت من (البيكات) فقال اليازجي : لا تخف فسيجيئك الدور وينادي عليك (بالبكوية) ولكن هذه البكوية غير

ثابتة فهم يمنحونك اياها وانت داخل ، ويسحبونها منك وانت خارج .

فقال فرحات : تعني ان هذه (البكوية) كصرماية الجامع ـ اي الحذاء المهيأ عند ابواب الجوامع ـ تضع قدميك فيها وانت داخل ، وتخلعها من قدميك وانت خارج .

ومرة كتب لي فرحات عن الشاعر نصر سمعان وكنا في صدد الحديث عنه ، وهو صديق لفرحات ، وكان فرحات يحبه كثيراً ، قال ان نصر سمعان تناول الغداء يوماً على مائدته ، فلفت نظره بيت شعر لي مخطوط بخط رامز مكارم وكان فرحات قد جعل منه لوحة معلقة على جدار غرفة المائدة ، وكان البيت بهذا النص :

لـو يعلم الكبش ان القائمـين عـلى تسمينه يضمـرون الشـر مـا أكـلا

فقال نصر سمعان : ان بيتاً من الشعر كهذا لا ينبغي ان يكون في غرفة الطعام ، فقال له فرحات : كل ولا تخف ، فلست انت المقصود بالكبش في هذا البيت ، ولو كنت انت المقصود لوضعت كلمة تليق بك مكان كلمة الكبش ، ولكانت تلك الكلمة من قبيل الجحش على الارجح ، فاكل نصر سمعان وضحك .

ومن بعض تعليقاته انه كتب للاستاذ وديع فلسطين ـ ولا احسب انه كتب لاحد من الرسائل بقدر ما كتب لوديع وما كتبه لي أنا ، وعندي له أضبارة فخمة من هذه الرسائل يمكن ان يستخرج منها الباحث سيرة من سير الدنيا المفعمة ، بما يمكن ان يسمى بالعجائب من الادب ، والشعر ، والامثال ، والحوادث التي تهم التاريخ ، وتهم الكثير من قراء العربية في جيل فرحات . وقد قال لي في احدى رسائله : « . . . بارك الله فيك يا اخي جعفر وبارك الله في الاخ وديع فلسطين ، فلولاكما لكنت مقطوعاً في هذا العالم فانكما الوحيدان اللذان يراسلانني او تكادان تكونان الوحيدين »ـ وفي بعض رسائله الي يقول : « انا معك كما قال الشاعر :

واني لمحتـاج الى ظـل صـاحـب يـروق ويصفـو ان كـدرت عليـه

هذا دون ان اكون قد كدرت عليك في يوم من الايام . . » .

وحاججني مرة ، بل كثيراً ما حاججني لانني كنت ارى رأي وديع فلسطين في الكثير من امور الدنيا ان لم يكن في جميع الامور على ما اظن فكتب لي يقول :

« . . وان جملة واحدة قلتها في رسالتك قد فتحت عليك ابوابا وشبابيك . . وسترى ، فان تأييدك للاخ وديع فلسطين لا يدل على انكما على صواب على اني اعترف بانك كنت دائماً اكثر حذراً من وديع في كل رسائلك ـ واذا صح هذا فلا يعني الا

ان وديعاً كان اجرأ مني في قول الحق ـ فانت لم تتقصد ذكر احد بسوء ، ولم تشتم ، ولم تسخر من القائمين بالأمر ، اما وديع فلم تخل رسالة واحدة من رسائله من حملة مستورة احياناً ، ومكشوفة احيانا اخرى ، وكلها تنديد بالقائمين بالامر هناك ـ يعني بمصر وبصورة اوضح يعني جمال عبد الناصر ـ » .

وقسا يوماً علي في تعنيفه على التزامي برأي وديع فلسطين وتأييدي له وانا لا احتفظ بصورة او مسودة لما اكتب فكل رسائلي ليس لها مسودة والا لما توانيت عن ذكر ما هاج فرحات من تأييدي لوديع فلسطين ، ولقد عذرت (فرحات) على قساوته ! لانه هكذا يرى الامور ولانه وحيد في بلد ليس فيه من يفهمه ويؤانسه من ابناء العرب وبدلاً من ان اعاتبه على قساوته كتبت له ألطّف من حدة مزاجه ، واخفف من هياجه ، ويبدو انه كان قد ندم وأسف لعنف مؤاخذته اياي على رأي سقته اليه لينا هيناً ، فكتب لي رسالة مطولة كان منها ما يلي :

« . . وانت معي مثل ذلك الشاعر الاندلسي الذي يقول :

اذا مرضنا اتيناكم نعودكموا وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

ـ ويضيف قائلاً : ـ اي والله ، فانا اذنب اليك ، وانت تعتذر (عني) اليّ ، ولا يكون كرم الاخلاق الا هكذا . . » .

اقول ومن بعض تعليقاته التي كتب بها الى وديع فلسطين تعليق على اطروحة الدكتور طه حسين جاء فيها :

« كنت اراجع كتاب الدكتور طه حسين (ذكرى ابي العلاء) وهو الاطروحة التي نال بها طه حسين الدكتوراه ، فوصلت الى الصفحة ٢٣ على ما أظن ، واذ بي اقرأ قول الدكتور جاء فيه : « . . وكان ان الله عزّ وجل قد اباح للمسلم تعدد الزوجات ، واباح له التسري بغنائم الحرب . . الخ » فوجدتني ـ يقول فرحات ـ كاتباً على الهامش الى جانب كلام طه حسين : (كأن الله عز وجل كان قواداً للمسلمين في تلك الايام لا عمل له الا تأمين اناث لفحولهم . .) .

وكتب لي فرحات يقول : « وكتبت لوديع : اذا كان الدكتور العزيز لا يرضي بهذا التفسير فليتفضل علينا بتفسير اقرب للصحة والمنطق من تفسيرنا » .

ومما مرّ وامثاله يفهم ان فرحات كان اقرب الى الالتزام بالجد وان لم يخل حديثه وشعره من بعض الطرائف من المزح والدعابة العابرة التي قلما تثير الاهتمام .

- ٦ -

وتوثقت بيني وبينه الصداقة والمحبة ولا اشك ان اعجابه بي لا يخرج عن دائرة قول عبد الله بن معاوية القائل (وعين الرضا عن كل عيب كليلة) اما اعجابي به فلا يخرج عن دائرة الفن الذي لا تشوبه شائبة من المجاملة ، فانا وكثيراً ما قلت بل ولي مزيد من الفخر ان سمعت من يقول عني باني لا اخلط بين الفن والصداقة فانا اذهب الى ان الصداقة قد تقتضيك بان تبيع دار سكناك الوحيدة لتنقذ صديقاً من ورطة يقع فيها ولكن هذا لا يقتضيك بان تقول لصديقك غير المجيد فيما نظم أو كتب أو عزف او رسم ، بانك أجدت ، واحسنت فيما جئت به ، لذلك فانا واثق بان استحساني لشعر فرحات هو في المحل الذي يثير عندي الاستحسان وهو خال من اي ميل غير الميول الفنية البحتة .

وحين صدر لي كتاب (اولاد الخليلي) وهو مجموعة قصص كتب لي فرحات يقول :

« كنت في سانباولو اهتم بطبع ديواني ، فلما رجعت الى البيت لقيت فيه أكداساً من الصحف ، والمجلات ، وبعض الكتب ، أما الجرائد فلم أقرأ من مقالاتها غير (العناوين) واما المجلات والكتب فجميعها تركتها على حدة لأطالعها شيئاً فشيئاً ، غير اني اخذت من بينها (اولاد الخليلي) ورحت اطالع وجوههم ، وجهاً ، وجها ، فإذا بهم يشبهون أباهم في صدق التعبير ، وبساطته ، والرغبة في الأصلاح ، اصلاح الأخلاق التي افسدها الجهل والفقر ، المتأتيين عن عهد طويل من الأستبداد الذي لم يزل يذر قرونه في شرقنا العربي ، ولا سيما في العراق الحبيب ، فلله انت ما ادق تصويرك للفساد ، وما اشد رغبتك في اصلاحه حتى انك لتدخل السجن مختاراً لتكون على بينة من حياة المجرمين ، وليكون ما تكتبه عنهم صادقاً ، وواقعياً لا يشوبه شيء من الخيال » .

أما دخولي السجن مختاراً لتأليف كتاب عن الأسباب والدواعي المهمة التي تساعد على حدوث الجريمة في العراق والمسمى (كنت معهم في السجن) فكان فرحات من المعجبين به حتى قال عنه « وهذا عمل لا اعرف احداً سبقك اليه » .

ويقول في كتابي (القصة العراقية ، قديماً وحديثاً) « لقد عشت معك في هذا الكتاب ساعات ممتعة ، تعرفت فيها الى كتب واشخاص لم أكن اعرفها وأعرفهم بغير

الاسم ، فبوركت وعوفيت ، وما زلت معينا ثراً للأدب ولتاريخه . . . »

ويغالي فرحات فيّ ويبالغ ، وينسب لي ما لا اعترف به فيقول :

(. . . فأنا يا اخي احب كرم الأخلاق ، ولين الطباع ، والأريحية ، والعطف والأنسانية ، والأدب ، وكل هذه وجدتها فيك ! ! فكيف لا احبك » ثم يقول « . . . ولم يبق من يفهمني ويفهم شعري غيرك » .

وحين تتأخر رسائلي عنه لسبب ما يتبع الرسالة بالرسالة عاتباً ولائماً وقد يكون معنفاًعلى تأخر رسائلي عنه ، وذات مرة استشهد بقول المتنبي حين تأخرت رسائلي عنه قائلاً :

وما يوجع الحرمان من كف جازم كما يوجع الحرمان من كف رازق

وحين اغلقت جريدة (الهاتف) بالمرسوم الصادر سنة ١٩٥٤ كتب لي يقول : « لا شك ان توقف (الهاتف) عن الصدور قد قلل من الأتصال بيننا ولكن هذا الأتصال القليل نسبي فقط ، ومادي وحسب ، لأن الأتصال الروحي بيننا لا يزال على اشده وسيبقى على اشده ما دمنا حيين ، وما دامت تجمع بيننا أخوة العروبة والأدب . . . وان روحي وروحك من الأرواح التي عناها الرسول الأعظم بقوله : « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف . . . » فنحن متعارفان بالروح ، ومتآلفان بالعقيدة القومية الأنسانية ، وقد تسمح لنا الأيام بالتعارف عن كثب فنلتقي في الشرق او في الغرب ، واليك هذا البيت العراقي :

وان يدم ابداً هذا الفراق لنا فما الذي بقضاء الله نصنعه

«ولا تسل عما اصابني من (النرفزة لاحتجاب الهاتف) ان الاقطار العربية تجتاز مرحلة في غاية الصعوبة ، ضغط من الخارج لصداه دوي في الداخل ، ضحيته الحرية ، وان شعوبنا مبعثرة ، لاهية بالسخافات الدينية ، وغير الدينية ، وحكامنا آلات تدار بالرادار من بعيد وحالة العراق اليوم تذكرني بحالته يوم نظمت قصيدتي : « الى شباب العراق» ولولا خوفي من ان تكون عندكم رقابة على الرسائل ومن تؤخذ انت بجريرتي لبعثت بها اليك .

«ان عشرين سنة في خدمة الادب عن طريق (الهاتف) في شرقنا العربي المشوش المخضوض لتمثل في عين الحق عشرين معركة ينتظر فيها النور على الظلام ، والحياة على الموت ، تستأهل لاجلها عشرين وساماً من اوسمة البطولة ، فلا زلت سائراً في طليعة

ابطال الجهاد الادبي رافعاً بيمينك القوية هذا المشعل الوهاج . . » .

ثم يضيف قائلا : « وكم اتمنى لو انك قريب مني لأشبع روحي من الطافك على انها كالشمس تلحق بي الى هنا، والى اي مكان انا فيه . . فانت والله منذ اتصلت بك لم تكن الا السابق الى المعروف ، وأراني في كل يوم اعجز عن الوفاء ، واقصر باعاً من اليوم الذي تقدمه ، واني ارجو ان تواصلني بأخبارك، وثق ان لك أخاً هنا يريد لك الخير ما يريده لنفسه ، الا وهو اخوك الياس فرحات . . . » .

وعندما بلغه خبر اقدامي على تأليف (موسوعة العتبات المقدسة) لامني ، وعنفني ظنا منه انما أكتب كتاباً دينياً حتى لقد قال لي (لقد كان من الخير ان تعنى بكتابة تاريخ العلم والفن والأدب لأني اتصورك لا تصلح لكتابة تاريخ الدين . . . » وحين صدر جزءان من الموسوعة ، تغير رأيه فيّ وايقن انني اسجل تاريخ تمصير هذه المدن المقدسة منذ ابتداء وضع اول لبنة في اساسها حتى النهاية ، وفي جواب له على رسالة مني يقول : « مرحباً برسالتك المؤرخة ١٩٦٥/٨/١٦ والتي تسلمتها واستلمتها لأن فيها نفحة (من العتبات المقدسة !!) كما قلت لصديق لي تاجر اعتدت ان ازوره كل يوم وهو من (جبل عامل) واسمه (محمود بلوط) فلم يصدق ان فيها نفحة من العتبات حتى أريته قولك : (انا يا أخي فرحات نجفي ومن مدينة النجف) وساعتها آمن بما قلت ، وشاء ان يستلم الرسالة ـ يقبلها ـ فسمحت له ، فما احلاك يا سيدي جعفر ، وما احلى هذا(الزهر بلا دين) ـ هنا يعني الموسوعة وليس يعني الدكتور امين زهر كما مرّ ـ الذي تقدمه اليّ وكأنك تقدم لي باقة ورد بلا شوك ـ ويقول فهنيئاً للنجف الأشرف الذي يجمع تحت سمائه الدين والأدب ، وهنيئاً لك بهذه البقعة الطيبة المباركة التي تنبت الأولياء والشعراء !!

«وقد باشرت قراءة مقدمة العتبات ، فكنت كلما قلبت صفحة ازداد بك اعجاباً ، ولك حباً ، واقول لنفسي : وهذا الكتاب موسوعة من الموسوعات العظيمة التي يذكرها هنا ، وما زلت اقرأ حتى انهيت المقدمة الجدير صاحبها بكل تعظيم واكرام ، والذي ازددت بصداقته فخرا واعتزازاً،واذا كان(المكتوب يقرأ من عنوانه)كما نقول فإن الموسوعة لا شك في انها ستكون اعظم ما قرأت في موضوعها . . . » .

وفي كتابي (هكذا عرفتهم) الذي صدر منه حتى كتابة هذه الكلمة اربعة اجزاء والذي تمنى (فرحات) ان يموت ويكون واحداً من هؤلاء الذين وردت اسماؤهم في

هذا الكتاب ، كتب فرحات كثيراً عن هذا الكتاب في مناسبات كثيرة جاءت في رسائله اختصر من اقواله هذا القول :

« كل جزء من (هكذا عرفتهم) موسوعة برأسها ، وديوان شعر ، وخزانة ادب ، ومتحف تاريخ ، فإن لكل ما يصدر من قلمك الفياض يتفرع من الموضوع الواحد مواضيع ، ومن الفصل فصول ، وكم كنت اود لو انك تركت تلك الفصول الهزلية التي جاءت ـ في آخر الجزء الثالث ـ لكتاب خاص على حدة ، لأنها جاءت كتمثيلية ، هزلية في مأتم ، ومثل هذا اقوله عن الفصل الخاص بجعفر الخليلي ـ يعني الذي كتبه مشكور الأسدي ـ الذي نتمنى له ان يعيش طويلاً فلا يكون له فصل في كتاب الأموات ، وهو بحمد الله حي ، فلقد كان بالأمكان تأليف كتاب بل كتب عن (جعفر) حبيبنا ، لا ان نجعل له فصلا بين فصول الأموات .

وأما الآن فقد انتهيت من قراءة هذه الأجزاء النفيسة فاسمح لي بابداء رأيي فيها ، ورأيي يا عزيزي ان كل الذين تحدثت عنهم كانوا من الطبقة الممتازة من الرجال ، وانهم لكذلك ، لأنك انت كذلك ، فكنت عندما تصفهم فإنما تصف نفسك ، ولكم تذكرت وانا اطالع هذا الكتاب قول ابي ماضي الذي يقول :

(كن جميلاً تر الوجود جميلاً)

* * *

وكنت ابعث له من حين لآخر ولا سيما في عيد الكرسمس ، وعيد الميلاد بشيء من التمر ، و(مَنّ السماء) فكان يصل البعض ولا يصل الآخر ، وقد يصل بعضه بعد بضعة شهور فيفسد التمر والمنّ ، ويمتلىء بالديدان والحشرات ، وقلما وصل اليه سالماً ، حتى التمر والمنّ الذي بعثته اليه مع موسى كريم صاحب مجلة(الشرق) البرازيلية الذي زار العراق فهو لم يكتف بالتمر والمنّ الذي اهديته له فإنه لم يوصل ما ارسلته معه الى فرحات كما أخبرني فرحات بذلك ، بل وحتى التمر والمنّ الذي حملته معها ابنتي (فريدة) عند عودتها الى انكلترة حيث كانت تدرس هناك وقد جاءتنا زائرة وكان المنّ الذي حملته معها هذه المرة هو من المنّ الأيراني الذي كان يأتي به زوار العتبات فيبيعونه هنا في العراق ويشتريه الناس ، وهو منّ معروف بالجودة ، وقد كتبت لفرحات بذلك ، ولكن حتى هذا لم يصل اليه مع انه ارسل بالبريد الجوي المسجل من لندن الا بعد شهور .

وحين يئس فرحات من وصول التمر والمنّ الأيراني في هذه المرة كتب لي يقول :

« لقد أرقت هذه الليلة ففكرت فيك ، وفي هديتك الدائرة حول الأرض ، ونظمت وانا اتقلب في فراشي بيتين من الشعر ، واعدت نظمهما مع تغيير طفيف ، ولما استقامت الأبيات الأربعة في ذاكرتي اشعلت الضوء وكتبتها ، وها انا ابعث بها اليك لتفاضل بينها وتختار الأجود :

لا تمـر بغداد حيّـانـا بـطلعتـه ولا اطـلّ عـلينـا مـنّ طـهـران
لنـا من الأول الثلثـان طـعمـهـما (مرّ) وليس لنا (سلوى) عن الثاني»

ثم كتب :

لا منّ طهـران حيانـا بـطلعتـه ولا أطَـلّ عـلينـا تمـر بـغـدان
لنا عـن (المنّ) سلوى العاجزين كما لنـا من التمـر ثلثـاه الأخيـران»

وقال بعد ذلك :

« عوض الله عليك وعلينا ، وبقي ان توعز الى ابنتك العزيزة (فريدة) ان تطالب صاحبة الجلالة اليصابات بثمن المنّ . . » .

واني لأحسّ بمحبة هذا الشاعر تغمر كل وجودي ، وعاطفته تملأ كل جوارحي ، حتى انه ليقلق عليّ اذا تأخرت رسائلي عنه بعض الوقت وقد شاركني الحزن في وفاة اخي عباس كما جاء ذكره في الجزء الرابع من هذا الكتاب ، واحسن عزائي في وفاة زوجتي وقد كتب لي حين قرأ خبر وفاتها في مجلة الأديب البيروتية يقول :

« . . . ورحت أقرأ بقية (البرقيات) وافكر بالكتابة اليك حالما انتهي من قراءتها ، واذا بعينيّ تقع على الخبر الفاجع . . ان اخي الأستاذ جعفر قد فقد رفيقة حياته ، وام فرائده ، فوقفت عند هذا الخبر المشؤوم خافق القلب ، دامع العين ، واجماً لا ادري ماذا اقول ، وقد القيت (بالأديب) جانباً مكتفياً بما قرأت الى ان وصلت الى هذا الخبر .

«فيا أخي وصديقي ، اني اشترك معك بقلبي وشعوري ، واحاول ان عزيك فأعود الى نفسي قائلاً : ان فيه من التعقل وقوة الفهم ما يغنيه عن تعازي تأتيه من الآخرين ، انه يفهم الحياة ومفاجآتها كما يفهمها كل رجل عاقل عرك الدهر ، وجرّب الأيام ، وفهم ما تجيء لبنيها من الدواهي ، وتذكرت رباعية لي ، ورأيت ان انقلها اليك لعلك تجد فيها بعض العزاء وهي .

يعد الزمان فلا اعد لوعده ... أملي ولا اخشاه اذ يتوعّد
ولقد يهيب بمقعد فيقيمه ... ويخون اقوى القائمين فيقعد
لا تشتم الأقدار ان شقي الفتى ... يوماً وان سعد الفتى لا يحمد
هوجاء تعبث بالأنام بلا هدى ... وبلا هدى تشقي الأنام وتسعد

ثم رأيتني اردّد :

نبكي الطفولة في الشباب وان نشب ... نبكي الشباب بكاء طفل جائع
فإذا دنت رسل الحمام رأيتنا ... نبكي الحياة بكاء صبّ جازع
نستقبل الدنيا بسيل مدامع ... وكذا نودعها بسيل مدامع
ضاع الرجاء فكلنا في اثره ... دمع يضيع على الرجاء الضائع

ثم رأيتني يا أخي ويا استاذي اتفلسف وأتباله واقول : ان الحياة هي الحياة ، وما كلامنا الا ضرب من الهواء الذي لا طائل وراءه ، واختم رسالتي ببيت واحد لأبي العلاء المعري القائل :

فمن أبى في الرزء غير الأسى ... كان بكاه منتهى جهده

وهذه حقيقة يا أخي واستاذي يا جعفر فإن بكاءك ان هو الا منتهى جهدك ، فدبّر نفسك بنفسك ، فلا دواء لدائك الا السلوان ، وانك لن تجد السلوان في غير صيدلية الزمان ، فتعزّ يا عزيزي وعزّ كريماتك (الفرائد) واكتب لي بكل ما يخطر في بالك . . . »

* * *

هذه مقتطفات اقتطفتها من الكثير الكثير من رسائل فرحات لا افتخاراً بها ، ولا ازدهاء بثنائها علي، ولا لمكانتي عنده ، وان لم يكن في ذلك أي بأس اذا افتخرت ، وازدهيت ، واعتززت بهذه المنزلة التي حظيت فيها عند شاعر من أكبر شعراء العرب واصدقهم في شعوره واحساسه واهدافه من دنياه ، ولكني جئت بها صفحات يتبين بها القارىء الوان عواطف هذا الشاعر ورقة احاسيسه ومنطويات صدره ، وأكبر فخري اذا افتخرت ، وأكثر زهوي اذا زهوت فهو فيما قاله فرحات عني وعن وديع فلسطين حين قال : « فلولاكما لكنت مقطوعاً في هذا العالم » .

- ٧ -

يمتاز فرحات في شعره بكونه أكثر صدقاً في تصوير احاسيسه من غيره من الشعراء ، واذا ما كُتب لاحد ان يتعرف به ، ونقب عن سجاياه وخصائصه بمجاورته ، او صداقته ، او تبادل رسائله أدرك تماماً ان فرحات في شعره يصور الكثير من آرائه الصادقة في حياته ، وأكثر ما تبرز للقارىء من جوانب حياته في هذا الشعر مجموعة من تجاربه فيها الشيء الكثير من الحكم والأمثال التي جمعها ديوان باسم (رباعيات فرحات) ، ثم أكثر ما تحتوي دواوينه فإنما تحتوي الشيء الكثير من الأعتزاز بقوميته والتمسك بوطنيته التي تكاد لا تخلو منها قصيدة من قصائده ، وان لم يكن لموضوعها دخل في هذه النزعة ـ نزعة الوطنية ـ ويلمس القارىء في اغلب شعر فرحات إباءه وترفعه، وعزة نفسه، ويكفينا منه البيت الذي ذكرناه قبلا، الذي يقول فيه فرحات :

لو منّ ربك بالحياة على الورى لبصقت حوبائي وقلت له خذِ

وهو غاية ما تبلغ عزة النفس عند الأباة .

وكثيراً ما كان يتمثل بقول الشاعر القائل :

عرضنا انفساً عزّت علينا عليهم فاستحق بها الهوان
ولو انا منعناها لعزّت ولكن كل معروض مهان

ويقول اني لا اعرضها لكي تهون

ويعتقد فرحات بأن الشرور التي نجمت من الأديان بسبب سدنتها لهي أكثر من خيرها، لذلك فهو يكره هؤلاء السدنة من مشايخ واكليروس ورهبان الذين يعيشون عالة على الناس وذريعتهم في هذه المعيشة دعوتهم للأديان ، وهذا ما يتجلى واضحاً في شعره ايضاً .

وقال لي مرة « اني ارحب بالشيوعية لا لأني شيوعي ، فأنا قلما اهتممت بالقضايا الأجتماعية المادية ، ولكن لأن الشيوعية كافرة ، ولأني أؤمن بالكفر » .

وعن تمسكه بالعروبة ، والوحدة القومية ، وتفاخره بكونه عربياً جنساً واخلاقاً، وقولاً ، ولغة قوله .

ولو اوصى بكره العرب دين لكنت اذن امام الملحدينا

وفي احدى رسائله كتب لي يقول :

« وعلى ذكر الأيام الزاهرة ، اخبر الأخ الكريم : اني الآن اعيش أكثر ايامي

ازدهاراً ، ووذلك اني اتتبع اخبار اجتماع الوفود العربية في القاهرة لوضع اسس الدولة العربية الأتحادية الجديدة ، ولا شك انكم تسمعون ما اسمع ، وتفرحون كما أفرح ، وأن فرحي ، في هذه الأيام فرح من غرس بستاناً وظل يرعاه ويعتني به خمسين سنة ولم يبدأ في جمع غلته الا في هذه الأيام اي بعد ما شاب وقارب الذهاب » .

ومما جاء في دواوينه من تمسكه بالعروبة قوله :

فيـا التقـاطـع والاوطـان تجمعنـا قم نغسل القلب مما فيه من وضر
مـا دمت محترمـاً حقي فـانت اخي آمـنتَ بـالـله أو آمـنتَ بـالحجـر

وقوله :

ان الـعـروبـة زهـرة ان تحتـجب قـام الـدليـل لـديـك من نفحـاتهـا

ومثل هذا الشيء الكثير الذي تكاد تقع عينك عليه في كل قصيدة تمر عليها في دواوينه وحتى في رباعياته وامثلته الشعرية .

وفي رسالة له يشير فيها الى موظفة جميلة في البريد تسلم منها طرداً بريدياً ساقه الحديث معها الى ما جبل عليه من تغلغل العروبة وحب العرب في نفسه : فيقول في هذه الرسالة وهي مرآة لما جبل عليه :

« تسلمت اليوم علما من البريد يدعوني فيه لتسلم ما ورد باسمي من العراق ، ففهمت فوراً ان (المنّ) قد هبط عليّ كما هبط على بني اسرائيل ، فوضعت دعوة البريد في جيبي ، وقصدت (الدائرة) الخاصة بما يرد من الخارج ، فقابلتني سمراء ، دعجاء ، ثقيلة الردفين ، خفيفة الاصغرين ، وكان الاصغر الاعلى من الخفة كانه جناح فراشة بلله ندى الربيع فراحت تنفضه في الشمس ، واعطيتها الدعوة والاشعار ، فتناولتها ، وبعد ان قرأت اسمي عليها قالت : ها . . ان لك عندنا هدية من بغداد ، وعلينا ان نكشف عليها هنا . . فقلت لها : انها حلوى من صديق لي هناك ، وضحكت ، وهي تفتح احدى العلبتين ، فلما تبينت ما فيها قالت : أهي حلوى ؟. قلت : أجل انها (المنّ) كما يسمونه في كتابهم المقدس ، فحملقت بعينها وهي تقول (منّ) من السماء فهنيئا لكم ، انتم العرب ، جيران السماء ، ان المسيح ولد في بلادكم ، . . قلت أجل ، وكان جاراً كريماً ، ومواطنا صالحاً ، وكان في حداثته زميلاً لي ، فقد تعلم النجارة ، وانا تعلمتها في حداثتي ، وكان بيني وبينه فرق صغير ، ذلك انه كان يهودياً ـ واكبر عجيبة لها علاقته بالمسيح انه كان يهودياً يكره المال! !وانا كنت ولا

ازال عربياً ، وكان يجهل اباه ، اما انا فاعرف ابي وهو حبيب فرحات ومن (كفرشيما) بجبل لبنان ، وكان أبي عربياً من بني كلب . . . كلاب . . . اسدطي ، ولم اقف عن الانتقال بين القبائل العربية حتى وصلت الى (انف الناقة) ، وقد اعجبها هذا اللفظ الاخير ـ انف الناقة ـ فقالت ماذا قلت (انف الناقة) ، وترجمت لها الاسم بوضوح اكثر ، فجلجلت ضحكتها، واعادت القول وهي تضحك وتردد ، انف الناقة ، ثم قالت : وهل انت تحب هذه النسبة وتفخر بها ؟ فقلت ولم لا ؟ وقد قال الشاعر قديماً :

« ومن يساوي بانف الناقة الذنبا » .

وراحت تضحك مقهقهة وهي تغلق العلبة التي كانت قد فتحتها ، فقلت لها خذي لنفسك قطعة منها ، فتمنعت ، ولم تأخذ شيئاً . . . » .

وعلى اثر حرب ١٩٦٧ مع اسرائيل كتب لي يقول : « يا اخي جعفر لقد كنا نظن اننا سنمحق اسرائيل في اقل من اسبوع فاذا باسرائيل تكاد تمحقنا في نصف اسبوع ، ذلك لان اسرائيل كانت تعمل ، وكنا نحن نصلّي ، واقول تكاد تمحقنا ولم أقل محقتنا ، لاني لم افقد ايماني بالعروبة بعد ، وفي امثال البرازيليين (ان الأمل ،آخر شيء يموت في الانسان) واني ارجو للعرب ان يعودوا الى صوابهم بعد هذه الضربة » .

ويضيف قائلا : « . . . وان البلية جامعة شاملة ولا يمكن لنا التخلص من آثارها الا بوحدة عربية شاملة حتى تصبح معها الامة كلها كتلة واحدة لا تنفذ منها رجعية ولا استعمار ، ولا اظن ان هناك دواء غير هذا ، وانا متفائل ، واني لعلى يقين ان اسرائيل لن تبقى هناك ، ولو وقف معها (يهوه) وكل جنوده » .

ولفرحات عشرة دواوين ، اولها (الربيع) وهو يشتمل على شعره وهو في ربيع العمر،وثانيها (الصيف) وهو يضم شعره فيما بعد الشباب ، وثالثها (الخريف) وهو ديوان شعره في خريف العمر ، والرابع (مطلع الشتاء) أي الذي يحتوي شعر فرحات في مقتبل الشيخوخة ، وقد طبع هذا الاخير بمصر ، وكان الدكتور عبد المنعم خفاجي هو الذي التزم باخراجه . وما كاد يدفع به الى المطبعة حتى قبض على الخفاجي وسجن سنتين في عهد عبد الناصر ، لذلك لم يحصل من يشرف على هذا الديوان فخرج مشوهاً وكثير الاخطاء وعلى ورق رديء ، والخامس هو (الشتاء) الذي جمع فيه كل شعره في اواخر حياته ، وكان يهم بطبعه في سنيه الاخيرة ، وقد علمت من عبد الله يوركي حلاق صاحب مجلة (الضاد) الحلبية ، ان فرحات قد بعث له بهذا الديوان الذي نسقه

بنفسه وذلك قبيل وفاته بقليل ، وان الاستاذ يوركي مهتم اليوم بطبعه ، واخراجه ، اما الديوان السادس ، فهو (موشحات برازيلية) أخذ محمد جميل بيهم طبعه على عاتقه ولم اره انا ، والسابع (فواكه رجعية) ، والثامن هو (احلام الراعي) والتاسع (رباعيات فرحات) والعاشر (مجموعة اشعار) حدثني عنها وقال انها لم تزل في الدرج ، وهي لم تنشر على اغلب الظن حتى الان ، واذا جمعنا بين (مطلع الشتاء) و(الشتاء) فهناك ديوان آخر نسيت اسمه يكون هو العاشر ، وكل هذه الدواوين مطبوعة طبعة اولى باستثناء (الشتاء) والمجموعة التي حدثني عنها .

ومن النثر له(مذكراتي) التي قام بطبعها ابن أخيه ، وكانت قد طبعت قبل ذلك باسم (عودة الغائب) طبعة ناقصة وغير منسقة ، وهي صفحة من رحلته الى الشرق فجاءت الطبعة الجديدة منسقة ومحتوية على جوانب من ترجمة حياته في ايام الصبا والشباب ، وهناك كتاب من النثر باسم (مغامرة صيد في حوض اراغويا) ولم اره ايضا ، وكتاب باسم (قال الراوي) الذي طبعته وزارة الاعلام السورية .

وكان فرحات يهم باعادة النظر في هذه الدواوين واعادة طبعها طبعاً متقنا من جديد ، ولكن الذي يعرف فرحات ، ويعرف إباءه وعزوفه عن الاعلان عن نفسه ليستبعد حصول من يتصدى لطبع هذه الدواوين من ذاته ، ودون التماس واستدراج وهذاما تأباه طباع الياس فرحات الذي عاش فقيراً ولم يمدد يده الى احد .

وكتب لي عن دواوينه هذه يقول :

« . . صدقني يا أبا الفرائد اني كثيراً ما افكر بتوضيب الدواوين ، كل ديوان على حدة كما اريد ان يكون ، وان ابعث بها كلها اليك تتولى امرها بالطريقة التي تراها انسب ، واصلح ، او توكل بها من تثق به حتى اذا مت انا اليوم ، وعشت انت الى القرن المقبل يتولى هو طبع الدواوين ، او يسلمها بعد ما ييأس منها الى من يثق به ، وهلم جرا . . » .

والطبعة الاولى من هذه الدواوين كانت قد نفدت ولم يبق منها الا القليل من النسخ ، وقد تلقيت بالبريد الجوي منها الربيع ، والصيف ، والخريف ، ورباعيات فرحات واحلام الراعي ، وكتب لي يقول انه قد بعث بكل ما لديه منها في البريد البحري ، اما النسخ التي (وضبها) وشذّبها، واعدها لتطبع طبعة جديدة اذا وفقت

انا ، او وفق بعدي من اوكلها اليه فسيرسلها الي بالبريد المسجل حين ينتهي من اخر نظرة فيها .

وكان الرقيب على البريد يومذاك هو محمد علي كريم ، رئيس المذيعين السابقين باذاعة بغداد ، ورئيس المذيعين حتى كتابة هذه الكلمة باذاعة الرياض في المملكة العربية السعودية ، فاتصل بي محمد علي كريم ، وقال لي لقد مرّ علي البريد من المطبوعات دواوين لفرحات باسمك وقد حملني حبي لهذا الشعر ان القي نظرة على قصائده من باب الاعجاب وليس من باب الرقابة ، والسبب هو ان الرقابة قد اسقطتني من حسابها لبعدي عن السياسة وعدم انتسابي لأي حزب سياسي وحتى أديبي منذ ان شببت حتى اليوم ، وقال محمد علي كريم : وقد وجدت في هذه الدواوين قصائد تفيض بالثلب والقذع في الامير عبد الاله ، ونوري السعيد ، فان أنا اطلقت هذا الطرد من الكتب فكل رجائي ان تخفي هذه الدواوين والا فقد تعرضني انا للمسؤولية . . » .

وهنا أطرقت افكر ، افكر في الدواوين التي سيأتي بها البريد البحري ؟ وماذا سيكون من امرها ان وصلت الى بغداد ! وقد زالت حيرتي حين ذكرت ان هذا البريد البحري سيمر ببيروت حتماً ، وان لي صديقاً ذا نفوذ يستطيع ان يتدارك الامر مع مديرية بريد بيروت فيعيد الدواوين الى البرازيل والى صاحبها كما لو كنت انا الرافض لتسلمها اما الصديق هذا فهو الاستاذ رشاد دارغوث رئيس مكتب الصحافة الخاص برياسة الجمهورية اللبنانية ، والدكتور رشاد دارغوث الاستاذ بالجامعة اللبنانية ببيروت اليوم واسرعت بالكتابة له شارحاً قضية هذه الدواوين ، وكان ظني في محله ، وقد تدارك الامر الدكتور دارغوث حين وصلت الدواوين الى بيروت بعد شهر واكثر من كتابتي له وتم ارجاعها الى البرازيل .

وكتبت الى فرحات شارحاً له الاسباب ومعتذراً مما وقع فقد كنت اريد ان انشر هذه الدواوين بين الاصدقاء الذين كانوا قد حرموا من التمتع بشعر فرحات بسبب منع السلطة ارباب المكتبات من جلب هذه الدواوين الى العراق ، وكان قد اجتمع لديّ مبلغ كثمن لهذه الدواوين وان لم يطلب فرحات ثمنا لها .

وقد كتب لي فرحات يقول : « . . لا تشغل فكرك في أمر كنت اتوقع حدوثه ، فما جرى لديواني عندكم كان ماثلاً في مخيلتي ، وقد حدثت عنه اهل بيتي قبل حدوثه باسابيع ، فلماذا انت تعتذر ؟ أأذنب انا وتعتذر انت ؟ وكان عليّ ان اخبرك عن

قصيدي الموجه الى (شباب العراق) وكان عليّ ان الفت نظرك اليه ، ولكن حسبت انك تعرفه ، وعجبت للحرية التي تتمتعون بها هناك . . .

واعيد عليك القول : بان لا تشغل فكرك بي ولا تعتذر » .

* * *

وفي المهاجر الاميركية عدد غير قليل من الشعراء العرب المجلين جاء جورج صيدح بوصفهم في كتابه النفيس (ادبنا وادباؤ نا في المهاجر الأميركية) ولكن المبرزين المجيدين في اشعارهم ثلاثة اولهم (ايليا أبو ماضي) ، وعندي انه قد بزّ بشعره شعراء جيله جميعاً فيما احتوى شعره من افكار جديدة ، وموضوعات شعرية مبتكرة ، وما عرف به شعره من الرقة والسلاسة ، والجاذبية ، وعلى هذا الرأي كان احمد الصافي النجفي الذي كان يفضل (أبا ماضي) على جميع الشعراء من هذه الناحية وظل على هذه العقيدة سنين طويلة ثم انصرف عن الاعتراف بشاعرية أحد في السابق واللاحق غير المتنبى .

وعلى ذكر ابي ماضي فقد وجد روكس بن زائد العزيزي وهو حجة في ضبط العادات واللغة ، والامثال والحياة الفولكلورية عند القبائل ولا سيما القبائل الاردنية التي يعرفها القارىء من موسوعته المؤلفة من ثلاثة أجزاء باسم (قاموس العادات واللهجات والاوابد الاردنية) لقد وجد العزيزي قصيدة بدوية قديمة كان ابو ماضي قد نقل الكثير من معانيها بالنص في احدى قصائده ، وهي (الطين) وعن كيفية انتقال هذه القصيدة البدوية الى (ايليا أبي ماضي) اشارة الى وجود والد أبي ماضي في الاردن ومكوثه هناك سنوات يعمل فيها ، ولكن مثل هذا لا يحط من قيمة ابي ماضي الشعرية ما دامت جميع قصائده الاخرى من مبتكراته وبنات افكاره وحسبنا منها (الطلاسم) التي صورت مذهب اللاادرية تصويراً غاية في المبتكرات الشعرية ، وقد لحن قسماً منها محمد عبد الوهاب وغناها ، انما المهم في الأمر هو ما حصل من رد فعل عند ابي ماضي حين قرأ مآخذ روكس بن زائد العزيزي عليه في قصيدة (الطين) وهو ردّ فعل لم يكن يتوقعه احد من ارخص الناس قولاً فكيف من شاعر كبير مثل ابي ماضي الذي ملأ ردّه بارذل انواع البذاءة في الثلب والشتم ، والقبائح من الاقوال التي يستحي القارىء من قراءتها . . !

والشاعران الاخران اللذان تفوقا بشعرهما على الشعراء الاخرين كمية ، ووطنية ، وجزالة لفظ ، وسحر معان ، هما الشاعران رشيد سليم الخوري ، المعروف

(بالشاعر القروي) والشاعر الياس فرحات ، وكلاهما فرسا رهان (لا يمكن ان تفضل احدهما على الاخر من ناحية الشعر وروعته ، ومغزاه، والتمسك بالعروبة وتمجيدها ، وكانا صديقين حميمين يهاجمان معاً من يخرج على مبادئهما ، ويؤيدان معاً من يضع حتى ولو لبنة صغيرة في اساس الوحدة العربية ويطريانه ، ويشجعانه ، دون ان يبتغيا شيئاً او اطراء باطراء ، وحتى الثناء كانا يعزفان عنه ، ولكنهما اختلفا زمناً ولم يعودا يلتقيان على أمر ويتفقان على موعد ، وينشدان الشعر معاً كما كانا يفعلان من قبل ، ثم تقاربا بعد ذلك وزال ما كان قد علق بذهنيهما من مكروه ، ولكن فرحات قد خلف عن ايام الفتور والتباعد بعض آرائه عن (القروي) في بعض الرسائل التي كان يكتب بها الى بعض اصدقائه ومن اولئك كان جورج صيدح ، وكنت انا ، ولربما فعل ذلك مع وديع فلسطين لشدة علاقته به ، ولكني لا اعلم بشيء من هذا .

* * *

وفرحات نقي الضمير، طاهر النفس ، يدل عليه شعره اينما وقعت عليه ، ويعجبك منه هذا الصفاء ، وهذا النقاء ، ويسحرك بصدق لهجته ، وحلو بيانه ، واعترافه بانه تعلم الشعر بدون معلم ، وصح قوله الشعر دون الحاجة الى النحو والصرف والعروض ، وانه يعرف قدر نفسه ، ولم يكذب حين قال :

واعجب ما بي ان لي عقل عالم احاول ان اهدي به قلب شاعر

وعقل العالم هذا يتجلى باجلى مظاهره في (رباعيات فرحات) كما ان قلب هذا الشعر وموهبته الشعرية الفائقة تتجلى في جميع دواوينه :

وعن شعره هذا يتواضع فرحات ويقول :

فيه وفيّ عيوب لست انكرها ان القبيح مع الإخلاص كالحسن

ولا يهتم فرحات اذا ارسل القول نابعاً من اعماق نفسه ،ألقي هذا القول ترحيباً ، او عزوفاً ، ومدحاً او شتماً،ما دام هو راضيا به ، قانعاً بصدقه ولذلك يقول لمادحيه وشاتميه :

امدح فمدحك لا يشدّ عمامتي واشتم فشتمك لا يحلّ حذائي

كذلك يقول في مورد آخر :

ولا نريد مديحاً زائفاً فعلى من يبتغي مدحنا ان لا يحابينا

ويبكي فرحات بالدموع الحارة ، كما يبكي بالدموع الباردة ، والدموع الحارة هي التي تجري على الخدين ، والدموع الباردة هي التي تنحدر من العين الى شغاف القلب وهي عندي اشد حرارة ، وامضّ عمقاً في النفس ، وعن هذين البكائين يقول فرحات عن الدموع الجارية :

ان البكاء على قدر الشعور فكم ... تبكي الرجال وما تبكي التماثيل
والخد يعلم ما في الدمع من حرق ... وليس تعلم ما فيه المناديل

وفي الدموع الباردة يقول :

بكيت وان الخلائق تبكي ... وليست مدامعها الشاهده
فكم مظهر فرحاً والهموم ... تماشيه قائمة قاعده
تسيل مدامعه في الضلوع ... وتبدو باجفانه جامده
وما ادمع تحرق القلب حزناً ... لدى الحق كالادمع الباردة

ويعرف القارىء من شعره جبلّته التي جبل عليها ، الى جانب صفحات من حياته ، وفقره وعجزه ، فهو لولا معونة ولديه خالد المحامي ، وعصام المهندس الذي يعيش فرحات معه تحت سقف واحد لكانت شيخوخته من أتعس ما عاشها شيخ في حياته بسبب ابائه ، وخيبته في الاعمال التي زاولها ، في تطوافه ،وانتقاله بين القرى النائية بائعاً كدليل للشركات ، وشارياً حاجات متواضعة من قبيل المتاجرة بالخنازير ، وفي مثل هذا التطواف المنهك الفاشل يقول فرحات :

فنشرب مما تشرب الخيل تارة ... وطوراً تعاف الخيل ما نحن نشرب !!

ورافقته هذه الخيبة والفشل الذي انتهى به الى الفقر منذ اول مزاولته العمل كنجار في لبنان الى نهاية حياته في البرازيل ، والمفروض ان يكون في عهد شبابه طموحاً قوي الارادة ، دؤوبا على العمل ليأتي له كل هذا بما قد أتى لغيره من المال الذي يضمن له العيش الرغيد ، ولكن فرحات لسذاجته التي تتجاوز الحدود كان يضع الشيء في غير مواضعه ، فخاب وافقر ، وها هو ذا يقول عن نفسه وهو لا يزال في عز الشباب في البرازيل :

طوى الدهر من عمري ثلاثين حجة ... طويت بها الاصقاع أسعى وأدأب
أغرّب خلف الرزق وهو مشرّق ... واقسم لو شرقت كان يغرب

وصدق والله في وصف نفسه كشاعر ، ووصف ابناء مجتمعه كتجار من الصعب

ان يألفهم شاعر مثل فرحات ويألفونه هم كتجار يركضون وراء المال أين وجد، وما احسن هذا الوصف في قوله :

تسائلني عن حالتي وهي حالة تروح بتيار وتغدو بتيار
وكيف ترجّي ان اكون موفقاً وما انا الا شاعر بين تجار

وجاء في احدى رسائله الي قوله : « . . . واريد ان اعيد القول الذي قلته سابقاً ، وهو : اني يا عزيزي عشت الحياة كلها ، وقد تجاوزت الثمانين فقيراً ، واحب ان اموت كما عشت فقيراً » وقد مات فقيراً كما احب .

* * *

وكرّم فرحات كشاعر من كبار شعراء عصره في مناسبات جمة ، كان منها مناسبة مرور خمسين سنة على زواجه، اذ احتفي به احتفاء كبيراً حضرته وفود كثيرة من جميع الجاليات العربية في البرازيل ، ومن الشخصيات البرازيلية ، وانهالت عليه البرقيات حتى من خارج البرازيل .

وعند بلوغه الثمانين اتخذت هذه المناسبة سببا للاحتفاء به وقد نظم بهذه المناسبة قصيدة في ثمانين بيتاً هي من اروع القصائد سماها (الثمانين) ونشرتها مجلة الهلال المصرية .

وفي سنة ١٩٥٩ كان فرحات قد دعي لزيارة مصر وسوريا ولبنان ، وقد كرم بسوريا تكريماً فخماً شارك فيه عدد من مشاهير الشعراء ، واصدرت (وزارة الثقافة والارشاد القومي للاقليم السوري) رسالة باسم (العروبة تكرم الشاعر الياس فرحات)

ومنحت الحكومة اللبنانية لفرحات وساماً ، وهو من اوسمة الارز الرفيعة .

وخصت الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي اطروحة الدكتوراه التي حصلت عليها من جامعة لندن بالانجليزية جانباً مهماً من هذه الاطروحة بفرحات وقد جهزتها انا بالشيء الكثير مما كان عندي من اخبار فرحات وشعره .

وحصل سمير بدران القطامي على درجة الماجستير برسالة كتبها عن فرحات ، وعلى ان فرحات كان ممتناً من سمير بدران وشاكراً له مسعاه ، ولكنه لم يرض من اعتماده فيما كتب على كتاب (ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية) لجورج صيدح كما لم

يرض من كشف سمير عن كل آراء فرحات عن بعض الادباء الذين سأبيح لنفسي انا الكشف عن آرائه في بعض البعض فيما سيأتي .

وفي مسابقة شعرية وضعتها الحكومة المصرية فاز فيها فرحات ولكنه ابى ان يتقاضى المكافأة وانما طلب من الحكومة المصرية ان تنفقها في مساعدة المنكوبين من الجنود المصريين في حرب ١٩٦٧ ، وفي بونس آيرس بالارجنتين دعي فرحات لتكريمه من قبل الجالية العربية فاعتذر لسبب يطول شرحه .

وغنت المطربات بشعر فرحات ، ولا سيما قصيدة

«يا عروس الروض يا ذات الجناح - يا حمامة»

ويغلب على ظني ان ممن غنتها كانت المطربة (شهرزاد) وسمعتها من الكويت كما سمعت غيرها من الكويت ايضاً ، وحين علم مني فرحات بذلك استغرب ان يلحن شعره ، ويغنى ، وينشد من الاذاعة ولا يهدى له شريط من هذه الأغاني على الاقل ، واستعنت انا بموسى الدجاني في الاذاعة الكويتية ليسجل لفرحات هذه الأغاني ويبعث بها اليه من الكويت ، فجاءني من الدجاني خطاب يطلب فيه مني تعيين تاريخ الايام ليستطيع ان يعيّن بها الاغنية ولم اكن اعرف هذا التاريخ ، فضاع الطلب والمطلوب ، ولو كان شخص كأبي ماضي لما فاته ان يلاحق الملحن ، والمطرب ، والاذاعة ومؤاخذتهم ومطالبتهم باجوره ، ولكن فرحات بعيد كل البعد عن الدعاوة لنفسه ، والمطالبة بحقه ، وبذلك لم يتلق جزاءه الكامل وحتى غير الكامل في دنياه ، ومن كانت هذه حاله فاين يجد من يتقدم بذاته وبدون طلب ورجاء لأن يطبع له دواوينه ؟ واقسم لو كان قد وصل خبره الى المحسن الكبير الحاج عبد الهادي الجلبي لما توانى عن طبع جميع دواوينه .

- ٨ -

وانا احسن الظن ببعض الامراء العرب لا سيما الذين يعرفون قدر العلماء والشعراء وهم على قلتهم لا يبخلون بالانفاق على طبع دواوين فرحات العشرة لو ان فرحات تقدم باهداء هذه الدواوين لهم وطلب ممن يفهم قدر الشعر القيام بطبع هذه الدواوين.ولكن فرحات يريد ان يتقدم اليه واحد من ذاته ،وبدون طلب منه فيقوم متفضلا بالطبع ،دون اراقة ماء وجهه ، وهذا مما لم يحصل له منذ ان فكر باعادة طبع

دواوينه ونشر ما لم ينشر منه قبلا في مجموعة شعرية وحتى في صحيفة او مجلة ، وذات يوم تتصل به السفارة العراقية تلفونيا من مدينة (برازيليا) الى (بلوارزونتي) وتعرض عليه استعداد العراق لطبع دواوينه ، وتسأله عن الشروط التي يفرضها ، فيشكر للسفارة العراقية هذا الاهتمام ، ويسقط اي شرط مفروض من المؤلفين حتى الريع والبيع وانما يضع هذا الريع تحت تصرف وزارةالاعلام ،لتعمل به ما تشاء حتى ولو تكررت طبعات الدواوين !! وكل ما يرجوه هو ان يتم طبع هذه الدواوين في البرازيل ليشرف هو عليها اطمينانا من سلامتها من الاخطاء المطبعية ، ثم يسأل عمن ادخل في بال السفارة هذه الفكرة ؟ ومن ارشدها اليه بكونه من السباقين في الاشادة بالعراق في كل مناسبة ، ومن القلائل الذين لم يخل شعرهم في المناسبات من التمجيد بالعراق والثناء على عروبته ونهضته دون ان يكون هناك من دافع غير الشعور الخالص الذي يتصف به شعره الوطني المنبعث من الايمان ؟

ويعلم ان الرجل الذي لفت نظر السفارة العراقية هو عبد اللطيف يونس ، وعبد اللطيف يونس احد الوطنيين السوريين الافذاذ ومن نواب البرلمان المتحمسين للقضية العربية وهو خطيب وطني مصقع ، ضاقت به الاحوال في احد ادوار الحكم فسافر الى البرازيل وانشأ هناك جريدة (الانباء) التي لا تزال تصدر حتى اليوم وان لم يتفرغ لها في السنين الاخيرة ،

وطلبت السفارة العراقية ان يعين لها المبلغ الذي يفي لطبع هذه الدواوين فاحال فرحات الأمر الى (موسى كريم) صاحب مجلة (الشرق) الذي يملك مطابع عربية واسعة (بسانباولو) في البرازيل ويصدر مجلة واسعة الانتشار ، هي لسان حال الجالية العربية ادباً ، وشعراً ، واجتماعاً ، وقدّر هذا المبلغ بعشرة الاف دولار ،وحوّل قائمته الى السفارة العراقية .

وكتب لي فرحات بما مضمونه ان البحث عمن يتولى طبع دواوينه بداع من ذاته ودون التماس ورجاء ذكره بالمثل الافرنجي القائل (فلان يفتش عن نظاراته وهي على عينيه) ويقول انه كان يفتش حتى في الخيال عمن يتقدم اليه من المشرق البعيد والمغرب من يتولى طبع هذه الدواوين بداع من الذات في حين كانت بغداد تفتش عنه لتقوم بهذا العمل ، ويقول « نعم بغداد يا سيدي . . » .

ومرت بضعة شهور ولم يحصل شيء ، وليس من عادة فرحات ان يسأل ، وكتب

لي وانا بلبنان اصطاف ، وكتبت له مؤملاً ، وقلت له انه فعل الروتين والا لما تأخر جواب وزارة الاعلام بالنفي او الايجاب ووعدته بمراجعتي وزارة الاعلام ان عدت الى العراق .

وعدت الى بغداد ، وراجعت بنفسي وزير الاعلام وكان يومها حامد الجبوري ، فاكد لي بعد ان سأل الجهات الثقافية المسؤولة في وزارته ـ انه لم يتلق عن طريق الخارجية اي طلب او اقتراح للسفارة العراقية في البرازيل بهذا المضمون ، وقال : ولكن هذا لا يمنع النظر في طبع دواوين فرحات الذي انصب شعره الوطني على الوحدة العربية ، وعلى محبة العراق بصورة خاصة ، ووعد بان يخص هذا الموضوع بعناية خاصة ، وقد كتبت لفرحات بذلك وطلبت منه ان يوجه للجبوري رسالة شكر ففعل ، ولكن ما كاد حامد الجبوري ينتقل من الوزارة حتى كتب جميل شلش باسم وزارة الاعلام الى فرحات يعتذر عن طبع هذه الدواوين على ما ذكر لي فرحات ،

ولست ادري كم مرّ على هذا حتى تلقى (فرحات) من السفارة العراقية صكاً بمبلغ دون الثلاثة الاف دولار ، واعتقد انه كان نتيجة حث السفارة العراقية في البرازيل ، ولكن هذا المبلغ لم يكن كافياً حتى لطبع بعض الدواوين وليس كلها او معظمها ، ومات فرحات دون ان يستطيع اخراج دواوينه الى حيز الطبع بالشكل الذي كان يريد ، ولعل الشاعر الصحافي عبد الله يوركي سيخرج لنا (ديوان الشتاء) وهو المجموعة التي تضم بعض الشعر الذي لم ينشر من قبل .

- ٩ -

قلت ان فرحات كان صريحاً ، يقول الحق ولو على نفسه ، ولكنه كان رقيقاً لا يقول مثل هذا في كل مكان وفي وجه مواجهه ، كما لا يقول خلاف هذا على سبيل المجاملة ، ومرة كتبت له انني بكيت على ما حل بالجيش المصري في موقعة سيناء سنة ١٩٦٧ من جراء اخطاء عبد الناصر الفاضحة ، والذي يعرف تعلق فرحات بعبد الناصر يعرف كم سيكون غضبه على من يجيء باسمه على غير رضى ، لذلك افرغ فرحات كل غضبه كما اعتاد ان يفعل مع وديع فلسطين في بكائي على ما حلّ بجيش مصر ، وحاسبني على بكائي وعيّرني لأني لا اعرف شيئاً غير البكاء وهو حجة الضعفاء العاجزين ، وقد ثار غضبي انا عليه وسألته ان الذي ينكر على امثالي بكاء هم بسبب العجز لا بد وان يرينا هو ماذا يفعل الأقوياء من امثاله ، وسألته ليتني اعرف ماذا فعلت انت يا فرحات ؟ وكيف تلقيت خبر فعل صاحبك عبد الناصر ؟ فرد عليّ بهذا المضمون وقال : قد

يغضب الانسان فينسيه غضبه الحق ، وقد والله عملت نفس عملك ، ان لم يكن اقل من عملك فاغفر لي ذلك فلست انا باحسن منك و نسي هنا الدفاع عن عبد الناصر ،

وذات يوم وكان اصدقائي من آل تقي الدين بلبنان يسجلون التحيات والاسئلة عن الكيف وشرح العواطف في شريط يبعثون به للشيخ شكيب تقي الدين الاديب الشاعر (بسانباولو) فانتهزت هذه الفرصة وسجلت عواطفي نحوه ونحو فرحات بكلمة مرتجلة وطلبت من الشيخ شكيب ان يرسلها الى فرحات الذي يقيم (ببلوارزونتي) ، وكتبت لفرحات اذا تسنت له زيارة (سانباولو) فالمنتظر ان يمر بصديقه الشيخ شكيب تقي الدين ليسمع صوتي ، وجاءني جواب فرحات يقول :

« . . . ولسوء الحظ فانا عندما ازور (سانباولو) لا ازور صديقي القديم (شكيباً) ، والسبب هو خوفي من ان يكون راغبا في اسماعي شعره ، ويكون عليّ لياقة ان استحسن ما هو غير حسن ، واقسم لك ان إلقاء نفسي من الطبقة العاشرة الى رصيف الشارع اسهل عليّ من استحسان شعر (شكيب) ، وهو ـ اي شكيب ـ يعرف رأيي هذا فيه » .

ويقول فرحات عن روحانيات ميخائيل نعيمة ، وان روحانيات نعيمة تدور حول فلسفة (اليوكا) التي كان هو وكمال جنبلاط من المؤمنين بها والمغرقين في الدعوة لها ، يقول فرحات :

« . . . وميخائل نعيمة لا أعرفه بشخصه ، وانما اعرفه بما اقرأ له احياناً من روحانيات لا افهمها . . . »

وان رأيه في امين نخلة ، وسعيد عقل مستخلص من بعض رسائله اليّ ، فهو يقول :

« . . . حينما كنت في الوطن ـ اي حين دعتني الحكومة لزيارة سوريا بعد فراق اكثر من خمسين سنة ـ جاءني احد الاصدقاء بعدد من مجلة (الورود) مشغول بمقال واحد من اوله الى آخره ، وكله مديح لامين نخلة الذي ارى شعره والنخالة سواء بسواء ، ولا اذكر اني قرأت له في حياتي كلها بيتاً واحداً من الشعر الجيد . . . والمقال كله من احط انواع المديح ، واني لاذكر جملة منه بقيت في ذاكرتي وهي (ان لامين نخلة افكاراً لم يصل اليها بشر . . ! !) وشيئاً آخر مثل هذا الهراء ، والذي اتاني بهذا العدد من (الورود) اكد لي مقسماً ان كاتب المقال هو (امين نخلة) نفسه ، فصرت اقرف من

ذكر (الورود) واكاد اقرف من كل (الازهار والورود) لهذا السبب » .

وفي رسالة اخرى يقول :

« اما امين نخلة ، فما ذكرته مرة الا وترحمت على ابن الرومي القائل :

طول وعرض بلا عقل ولا ادب فليس يحسن الا وهو مصلوب

ومع كل هذا فامين نخلة هذا يظل افضل ، ولا مكان للتفضيل هنا ، وانما هو أقل شراً من (سعيد عقل) الذي قرأنا عنه مؤخراً انه حضر حفلة رفع الستار عن تمثال (شوقي) في زحلة ، وقد أعدّ للامر عدته . . اذ حضر هو ورهط من امثاله العباقرة ، واحضروامعهم تاجاً يظن ان سعيد عقل دفع ثمنه ، وانه تاج إمارة الشعر !! وانهم نادوا بسعيد عقل أميراً للشعر العربي . . !! ولا ادري لماذا احدثك بمثل هذه المقرفات ؟ واظن اني اريد ان تحمل عني شيئاً من القرف الذي احمله من هذه المخلوقات » .

وعن (مريانا) صاحبة مجلة (المراحل) في البرازيل ـ وكانت قد استجابت لدعوة وجهتها لها اسرائيل لزيارة فلسطين ، وقد زارت فلسطين فعلاً وعادت فتلقتها الصحف العربية في المهاجر خاصة بالسنة حداد ، وكان رأي فرحات وهو المتطرف في وطنيته يتلخص فيما يلي :

« وهذه (المريانا) احتقرها انا كما احتقر الحشرة ، انها امرأة وقحة لا تعرف الحياء ، ولا تتورع عن ارتكاب اشد الموبقات وهي تتظاهر بالانسانية »

وعن رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) يقول فرحات حين قرأ رسالة الامام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء الموجهة الى الشاعر القروي الذي كان قد شاع اعتناقه للدين الاسلامي ، وقد نشرت وصية القروي في العالم العربي وجاء فيها انه يريد اذا ما توفي ان يصلي عليه شيخ مسلم ، وكاهن مسيحي معاً ، وان يتوج ضريحه بشارة الصليب ، وشارة الهلال معاً ، والقروي اطال الله عمره في العقد العاشر من العمر حتى كتابة هذه الكلمة ،

اقول حين قرأ فرحات رسالة الامام كاشف الغطاء كتب لي يقول :

« . . . أعجبتني رسالة الامام كاشف الغطاء الموجهة الى الشاعر القروي و(اضحكتني) فانا من زمن بعيد اتهم القروي بانه من جماعة (الاخوان المسلمين) . . . على اني عندما قرأت رسالة الامام كاشف الغطاء تمنيت لو انه استطاع كشف الغطاء عن ممدوحه ليعرفه على حقيقته » .

ولفرحات رأي اوسع من هذا عن (الشاعر القروي) سأرويه في اثناء استعراضي لما وقع بين صيدح وفرحات من حوادث مؤسفة ،

ورأي فرحات في الكهنة ورجال الدين سيء جداً ، وهو لا يمر ذكرهم او ثمر مناسبة الا وتناولهم بالهزء والذم ، وذممت له مرة اخلاق اللبنانيين من سكان المدن الذين لا يعرفون شيئاً في الحياة غير المادة ديناً ومذهباً ومعبوداً وقلت له انني قرأت ولا ادري اين : صدراً من بيت لم يكمله شاعره عجزاً ولعل الصدر هنا كان لجورج كعدي يقول فيه (يا جنة اهلها شياطين) فما اسرع ما وجه فرحات المعنى الى رجال الدين وأجاز الصدر وقال :

يا جنة اهلها شياطين تكسو جهالاتها القفاطين

وهناك آراء كثيرة لفرحات في عدد من المشاهير والشعراء والساسة العرب وفيها الشيء الكثير من المديح والثناء كما ان فيها النقد والهجاء وقد اكتفيت منها برأيه في البعض نقداً وهجاء لعلاقته بالدراسة والوقوف على طريقة نقد فرحات وصراحته واسلوبه في معرفة الذين يستحقون النقد عنده واسبابه ، واعرضت عن ذكر الاخرين مدحا وهجاء مما صارحني به .

- ١٠ -

وارتحل جورج صيدح الشاعر بعد ان اصيبت تجارته بخسارة مفاجأة في القاهرة الى اميركا الجنوبية ، واتخذ من فنزويلا مقراً لعمله الجديد ، ولصيدح شهية لا تنفد في الاتصال بالشعراء ومواصلة الكتابة لهم ، وكانوا في تلك الايام قد كثروا في كل اصقاع اميركا الجنوبية وعلى الاخص البرازيل والاخص الاخص (سانباولو) التي كان فيها وحدها ثلاث عشرة صحيفة عربية ، وعدة اندية ادبية عامرة طالما احيوا فيها ليالي شعرية وادبية ، وجرت فيها مساجلات لم يوفها حتى اليوم موف يأتي على تاريخ هذه الحركة وفعلها في صقل الادب العربي هناك وعن اثرها في انتشار الادب المرسل البعيد عن التعقيد والغموض الذي كان يكتنف معظم صور الادب ولا سيما الشعر في الشرق العربي .

وكان لا بد ان يكون فرحات في مقدمة اولئك الذين ارتبطوا بصيدح برابطة الصداقة ، والمحبة ، والاعجاب ، دون ان يرى احدهما الآخر كاغلب اولئك الذين كان صيدح يكاتبهم في المواطن والمهاجر ، وحين ازمع صيدح العودة الى الوطن بعد سنين طويلة حصل فيها على ما يكفل له العيش الرغيد مدى العمر ان هو انصرف في موطنه الى

خدمة الادب والتخلي عن العمل التجاري ، وقد رأى ان يقوم صيدح بزيارة اقطار اميركا الجنوبية والشمالية ويتعرف عن كثب باولئك الذين تعرف بهم عن بعد ، وكانت حصيلة هذه الجولة كتابا ألّفه عن جميع الذين التقاهم ، والذين لم يلتقهم من الادباء الشعراء باسم (ادبنا وادباؤ نا في المهاجر الاميركية) وقد طبع الكتاب غير مرة وهو اليوم مفقود في الاسواق على ما اعلم . وذكر جورج صيدح اسم الاخ الصديق وديع فلسطين ، وذكرني انا كما ذكر اثنين آخرين في كتابه هذا بصفتنا من المتحمسين لعمله هذا ، والمؤ يدين له .

وان كتاباً واسعاً كهذا لا يمكن ان يخلو من اخطاء واشتباهات واستنتاجات ، خاطئة ، فكان من بعض الاخطاء ورود هفوات في منزلة فرحات ومكانته لمستها انا ساعة قرأت الكتاب وقبل ان يقول فرحات نفسه شيئاً عنها ، وكان ان كتبت الى صيدح اعلمه بما لمست في كتابه هذا عن فرحات ولكن صيدح قد انكر ان يكون ما اخذته عليه صحيحاً بدليل انّ له من فرحات رسائل ثناء وشكر على ما كتبه عنه !! في حين ان لدي رسائل من فرحات يعود تاريخ بعضها الى سنة ١٩٦٥ وما قبلها وبعدها يقول فيها فرحات بعد ان قرأ مقال تقريظ لي على كتاب (صيدح) يقول :

« قرأت مقالك عن كتاب صيدح ، هذا الكتاب الذي لم يعجبني ابداً ، وان صيدح يتحمس فيه للادب المهجري اكثر من اللازم ، ثم هو يهرف بما لا يعرف ، وحديثي هنا طويل لا تتسع له هذه الورقة » وفي مناسبة اخرى يقول :

« وعلى ذكر الكتب سأجعل موضوع رسالتي هذه كتاب (ادبنا وادباؤ نا) للأخ صيدح ، فاقول : انا اعرف عن ثقة ان صيدح يحبني ، ذلك لاني انا بكل تأكيد احبه ، ولكن هذا الحب المتبادل بيننا لا يمنعني من رؤ ية الحقائق وقولها ، واول هذه الحقائق ان اسم (صيدح) يضفي على كتابه كثيراً من الاحترام . فالناس يقرأونه واثقين انهم يقرأون سفراً جليلاً ، والادباء ينقلون عنه كأنه ثقة في موضوعه ، وهو لسوء الحظ لا يصلح ان يكون ثقة ، لان صيدح لا يصلح ان يكون مؤ رخاً ، والمؤ رخ يجب ان يكون بلا قلب ، ويجب ان يكون قلبه اصغر من عقله ، وليس صيدح هكذا ، انه كتب عنا اشياء كثيرة وجميلة ، ولكنه خبط وخلط ، وصدق كل ما سمعه فخلق مؤ لفات لم تخلق الا في رؤ وس اصحابها ، ولكنها لم تر النور ، وجعل من الحبة قبة ، وصيدح لم يسكن البرازيل ، وانما جاءها زائرا ، ولم يمكث في (سانباولو) الا وقتاً قصيراً ، وصدف اني

كنت ازور (سانباولو) فالتقينا وتآخينا ، ومعلوم ان اديباً ، وشاعرا حين يزور مدينة مثل (سانباولو) التي تعج بالادباء والشعراء يشهد كثيراً من حفلات الاستقبال والتكريم ، ويسمع كثيراً من النوادر ، وهكذا راح صيدح يسمع ويختزن ، وعندما شرع في تأليف كتابه كانت ذاكرته هي المرجع الوحيد لما سمعه في (سانباولو) عنا ، ولم تكن ذاكرته أمينة ، فكانت تخونه ، فراح يسدّ ما يرى من فراغ فيما يرويه من عنده ، مثلا كان يعرف عن غيب الكثير من شعري ، فلما كتب عني لم يرجع الى دواويني بل رجع الى ذاكرته ، وكان اذ نسي كلمة مني وضع كلمة مكانها منه ، فمثلا : انا لا اقول قط (ثعالبها الكاسرة) لاني اعلم ان الكاسرة لا تقال للثعالب ، وانما تقال للجوارح من الطير ، والذي يؤلمني هو انه ينسب اكثر ما استشهد به من شعري الى (الرباعيات) خطأ ، فيجيء بابيات من (الربيع) او (الصيف) او (الخريف) ويزعم انها من (الرباعيات) ويغالي في خلطه ويقول ان (باب الغزل) في (الرباعيات) . . . الخ في حين ليس في (الرباعيات) باب للغزل ، ولاشباك ، وهو لا يذكر كتابي (احلام الراعي) او انه لم يذكر من (احلام الراعي) الا تفضيلي الكلاب على الناس . . !! ولعله يريد ان يعلن عن رأيي بان الكلاب عندي خير من بعض الناس ، وانا اقول (فيها ابو الجمرات يعرب راقد) فيضع صيدح (خالد) مكان (راقد) فتتكرر القافية في القصيدة ، وتفسد القاعدة ، وانا اقول :

حسبي وحسب المعالي ان يقال فتى نشء السفوح تخطاها الى القمم

فيحذف صيدح كلمة المعالي ويضع مكانها كلمة (العصامي) التي لا يستسيغها الوزن من حيث ياء النسبة التي تقتضي التشديد .

فانت اذا قرأت كل هذا الخلط واضفت اليه قوله في ختام ما كتب عني : اني اعرض شعري على دور النشر مجاناً ولا ارى لي سميعاً او ملبياً واني اجهل سبب هذا النفور من شعري (كذا) لعلمت مقدار الاساءة التي وجهها صيدح الي والى ادبي . وقد يظن انه احسن الي !! »

وجاء في احدى رسائله التي تناول بها كتاب صيدح قائلاً :

« كنت قد كتبت الى اخينا وديع فلسطين قائلا : اذا كان كل ما كتبه صيدح عن غيري من طراز ما كتبه عني يكون كتاب (الزير ابي ليلى المهلهل) افضل من كتابه ، واقرب الى التاريخ . . » ويعتقد فرحات ان احسن من كتب عن ادب المهجر وادبائه فهو

محمد عبد الغني حسن ،

أما الذي لاحظته انا هو ان جورج صيدح فاته ان ينظر الى الشاعر القروي والياس فرحات كفرسي رهان ، وان من الصعب تفضيل احدهما على الاخر بالشعر والشعر الوطني خاصة ، لا لأن (صيدح) لم يعرف الشعر ولم يحسن حسابه ، وانما كان صيدح كسائر الناس تبهرهم العظمة المتجلية في طرق خاصة من السلوك ولم يكن يحسنها فرحات ليستلفت بها النظر ، لان فرحات من السذاجة ما يشبه الاطفال احيانا ، ومن طهارة النفس ان يدور على لسانه ما يجول في قلبه ، فرجحت كفة الشاعر القروي في عين صيدح على كفة فرحات من حيث لا يدري ، وانا حين اقول من حيث لا يدري لانني اعرف مدى حب صيدح لفرحات ،

ولست ادري كيف غفل صيدح فاورد بيت شعر لفرحات في غير مورده حين دعي فرحات للمشاركة في تأبين الملك فيصل الاول (ببونس آيرس) في الارجنتين ، وحين اعتذر فرحات عن تلبية الدعوة لتكريمه هناك أورد صيدح هذا البيت لفرحات :

فهل من يعيش بقول أجدت ويا لك من شاعر مفلق

ولهذا البيت بيت آخر ملحق به هو :

خلقت شقياً ، وعشت شقياً واحسب اني اموت شقي

مع ان البيت الاول والثاني قد قالهما فرحات في سنة ١٩١٧ وبين هذه السنة التي كان فرحات فيها يشكو الفقر المدقع ، وسنة دعوة التكريم والمشاركة في رثاء الملك فيصل فواصل كبيرة من السنين اصبح فيها فرحات معتزاً بفقره ومباهياً به ، وقد يكون مهتماً يومذاك بمن يقول له : اجدت ، ويا لك من شاعر مجيد .

وساء فرحات ان يقول عنه صيدح بان شعره الوطني يضاهي (القروي) ويضيف صيدح قائلا : وهذا بشهادته اي بشهادة فرحات ، ويقول فرحات : ومتى سمعني صيدح اشهد بنفسي هذه الشهادة ؟

ويضيف فرحات على ذلك قائلاً « وكم اشتهي يا اخي جعفر لو يساعدني نظري ـ وكان قدرك نظره في سنيه الاخيرة ـ على مراجعة كتاب صيدح لاعيد عليك كل كلمة قالها في غير موضعها لترى اني مظلوم ، ولو كان احد القارئين قريباً مني لطلبت منه ان يقرأ عليّ هذا الكتاب ، ولو كان مأجوراً لاريك الهمز ، واللمز ، والوخز ، وعندنا مثل

عامي يقول « ان من يأكل العصي ليس كمن يعدّها » وانت وسواك يا ابا الفرائد تعدون (العصي) التي اكلتها انا ، ولا يمكن ان تشعروا بشعوري طبعاً ، ولا ادري اذا كان صيدح نفسه يشعر بهذا الشعور وهو في كتابه يخبط خبط عشواء ، وان كتابه هذا يصلح لكل شيء الا لتاريخ ادب المهجر ، ولو كنت انت معنا ، او لو عشت سنة واحدة ، هنا لرأيت كم في كتاب صيدح من عجائب .

اما انه قد مدحني فانا اشكره ولست بناكر ذلك، ولكن مديحه لا ينفي الاساءات ، وقد أساء كثيراً وهو يحسب انه يداعبني وانا اعرف المداعبة ، وليس صيدح بجاهل ، فهو يعرف ما يكتب ، وهو يحسن حين يقصد الاحسان ، ويسيء حين يقصد الاساءة . . ثم يقول فرحات .

وينسب صيدح في كتابه الى من يعرفهم ـ اكثر من امهاتهم ـ تآليف علمية تستقي منها الجامعات ، وهي لا اثر لها في الدنيا ولا اظن ان لها اثراً في الاخرة ومنها انه نشر ابياتاً لصديقي توفيق بربر قال انها منقوشة على قاعدة تمثال البطل يوسف العظمة ، ولما كنت واثقاً ان ليس هناك من ابيات (لبربر) رأيت ان ازيد وثوقي فاكتب لبربر بسانبولو سائلاً عن ذلك فاتاني الجواب يقول : « ان الشعر لي وهو قديم ، واما نقشه على قاعدة التمثال فهو لصيدح وهو حديث » .

وكان الياس فرحات يقول « لقد كنت انا والقروي نحارب في جبهة واحدة ، وكان القروي يهاجمهم ، وكنت انا اهاجمهم معه . ولكن اخانا صيدح لم يكن يرى في دفاعي الا تهجماً على الناس في حين كان يرى في دفاع القروي روائع من الشعر » ويروي فرحات لي امثلة من اقواله هو واقوال (القروي) ويقول :

اما انا فكل قولي في لبنان تهجم عليه ـ في رأي صيدح ـ وكل قولي في غير لبنان تهجم على كرامات الناس ، و يجعل صيدح من نفسه واعظاً لي لاكون عاقلا . . ! وان امتنع عن شتم الاوادم .

ثم يقول فرحات : « والان هل تريد ان نظل في قصة صيدح وهي مثل قصة ابريق الزيت » .

هذا بعض ما كان يرتسم في ذهن الياس فرحات عن صيدح وكتابه « ادبنا وادباؤ نا) ولعل لدى وديع فلسطين أكثر مما هو لدي انا من آراء فرحات في صيدح ، ولكن مثل هذه الاراء لم تنشر على الناس ولم تنكشف لغير الاصدقاء المخلصين من امثال

وديع فلسطين ، وأحسب اني اول من اكتشف بعض هذا من قرائتي لكتاب صيدح وقبل ان اسمع من فرحات عنه شيئاً ، ولكن صيدح نفى ان يكون في كتابه شيء من تجاهل قيمة فرحات وترجيح القروي عليه .

وجاء الوقت الذي انكشفت فيه الضغينة بين هذين الصديقين اللذين كان من بعض صداقتهما ان لقي صيدح في اثناء مروره بالبرازيل من فرحات كل اهتمام ومحبة واحتفاء ذكرت اخبارها الصحف العربية البرازيلية ، ولقي فرحات من صيدح نظير تلك المحبة واكثر في اثناء زيارته للبنان وقد حمل صيدح فرحات بسيارته وطاف به كل مكان ، ورافقه في زيارة بلده وكان احد المكرمين له في نادي الادباء بكفرشيما ، وكتب صيدح عن فرحات مقالاً ممتعاً ونشره في جريدة (الديار) البيروتية .

اقول لقد جاء الوقت الذي تنوسيت فيه تلك الصداقة الصميمية والمحبة وحل محلها الكره ، والبغضاء ، والعدواة ، وسببها الطبعة الثانية من كتاب(بلابل من الشرق)الذي تلقاه فرحات من صالح جودة على سبيل الهدية ، وفي هذا الكتاب ما عده فرحات من الاكاذيب التي نسجها صيدح وتوفيق قربان عنه فكتب فرحات لجودة رسالة خاصة معنونة الى المطبعة التي تم فيها طبع (بلابل من الشرق)وهو لا يعلم بان صالح جودت يتولى الاشراف على مجلة (الهلال) ولم ينصف صالح جودة حين نشر رسالة فرحات الخاصة في (الهلال) والتي جاء فيها من المضمون ما يشير الى ان صيدح وتوفيق قربان قد جعلا من حياته ـ حياة فرحات ـ اسطورة ، وان توفيق ضغون (كذاب) ، وان صيدح (أكذب) منه . لان صيدح حمّله (الكشة) وهو لم يحملها ، وانه جعله (يفبرك) ـ على حد تعبير فرحات ـ مآكل عربية ويبيعها للجائعين ، وانه لم يفعل هذا ، وقد جعله يعمل منضداً للحروف في المطابع بالبرازيل ، وهو لم يعمل هذا الا في فجر شبابه وهو بلبنان ، اما ان يقول صيدح عنه بانه كان يربي الخنازير فقد قاله فرحات نفسه قبل ان يقوله صيدح وان فرحات لم ير في ذلك كله عيباً لو كان قد حمل الكشة ، وباع المآكل العربية ، وعمل منضد حروف وربى الخنازير ولكنه لم يفعل ذلك .

وقال لي فرحات : « اما اذا اعتقدنا ان صيدح لم يسىء اليّ فهذا يعني اني من الذين قال فيهم المتنبي :

« ما لجرح بميت ايلام » .

وانا يا اخي جعفر شديد التألم ، وشديد الحساسية » .

وكانت الامانة تفرض على صالح جودة ان لا ينشر رسالة خاصة لو كان يعلم صاحبها بنشرها لما كتبها، والدليل على ذلك قول فرحات حين لمته انا على ما جاء في رسالته عن صيدح كتب يقول :

« . . . ووالله يا اخي ويا استاذي جعفر اني لم أثر حرباً على صيدح ،ولا على غير صيدح وانما هي كلمة عابرة وردت في رسالة خاصة ، ولم اعلم بانها ستنشر ، كما لم اعلم قط بانها ستثير هذه العاصفة ، واذا كتبت الى صالح جودة فقد لعنت الساعة التي كتبت فيها اليه » .

والعاصفة التي يشير اليها فرحات هي قيام صيدح وقعوده ، ولومي انا لفرحات ، ولوم وديع فلسطين على ما جاء في رسالته لصالح جودة قبل ان يعلمنا فرحات بان الرسالة كانت رسالة خاصة لا يجوز نشرها باي وجه من الوجوه .

ورحت اخفف على قدرما استطيع من غضب صيدح ، وان الرابطة التي تربطني بصيدح هي عين الرابطة التي تربطني بفرحات ان لم تكن اشد منها ، ولكن صيدح يبالغ في تصوير الكرامة ، فلا يستطيع ان يهضم حرفاً واحداً من حروف الرموز فكيف يسمح لاحد ان يقول عنه انه (كذاب) وعبثاً راحت توسلاتي حين اعلمني بانه سيرد على فرحات ويكشفه لكل ذي عينين ، واحسب ان الصديق وديعا فعل فعلي وحاول نفس محاولتي وقد خاب كما خبت انا،وصمم صيدح على ان ينشر رأيه في فرحات في رسالة مستقلة لا يدع شيئاً غير مكشوف ، والمقصود بالشيء غير المكشوف هو آراء (فرحات) في بعض الاشخاص ومنهم صديقه (الشاعر القروي) الذي حدث بينهما ذات يوم ما يكدر الخاطر ثم زال هذا وتصافيا وعادا الى سالف حبهما .

وكتب صيدح مقالاً مسهباً فيه اكثر ما يراد ان يقال لمن يصفه بالكذب بالكثير الكثير ، وعدل عن نشره في رسالة مستقلة بنشره في مجلة (المراحل) لصاحبتها (ماريانا) التي لم يحسن الياس فرحات رأيه فيها وذلك تشفيا منه بفرحات ، وارسل لي نسخة من مسودّة هذا المقال المسهب ورأيه ليتم نشره في (المراحل) ، وبكل ما استطيع من التماس ، ورجاء ، واستجداء للمروة طلبت منه العدول عن نشره والابراق الى السيدة (ماريانا)بإيقاف نشره اذا كان لا يزال متسع لهذا الرجاء ، وقد اجابني صيدح بانه نزولاً على رأيي فقد ابرق الى ماريانا بالعدول عن نشر مقاله وكان ان سبق السيف

العذل اذ كانت قد نشرت المقال وهو على وشك ابراده اليه بالبريد الجوي .

واسفت كثيراً لان نشر مقال عنيف كهذا الذي رأيت نسخة منه سيبعد الشقة بين الصديقين بعداً لا لقاء لهما بعده ، وكتبت الى فرحات بان صيدح كان مستعداً لتناسي الامر بالكلية ولكن تسرع ماريانا بنشر المقال قد أفسد هذا التناسي ، وطلبت من فرحات السكوت اذا قرأ المقال بنفس الرجاء والالتماس اللذين وجهتهما الى صيدح وفشلت ، وتلقيت من فرحات رسالة يقول فيها :

« . . وقولك ان صيدح قد ابرق الى زميلته (ماريانا) بان تصرف النظر عن نشر ذاك المقال فانت صادق فيه ، ولكن صيدح كان كاذباً » .

وطاف عدد (المراحل) بجميع من يعرف صيدح وفرحات ومن لا يعرفهما ، بحيث حمل المقال فرحات على الردّ عليه ، وهنا ظننت ان الفتنة التي هاجها صالح جودة ـ غفر الله له ـ قد خمدت بعد نشر المقالين ، اذ بدأ يستجيب كل منهما للرجاء بالكف ، .

فقد كتب لي فرحات : « . . واما اخونا صيدح فقد نزلت على رأيك ، ووضعت كل ما قال في الخرج ، ولكن هناك أشياء كثيرة لا يتسع لها هذا الخرج) ولكن مقالاً مقذعاً بذيئاً ظهر في البرازيل لم يترك كلمة من الفحش الذي تضيق بها القواميس الا واوردها في الشتائم التي كالها صاحب المقال لجورج صيدح ونشره في جريدة (النفير العربي) التي تصدر في البرازيل لصاحبها سامي عازار . وقد سبب هذا المقال لصيدح بل وحتى لكل قارىء لا يعرف صيدح ازعاجاً يتجاوز كل حد ، ولا اشك ان صيدح ظل يعاني منه الكثير من الاعتلال في صحته .

وكتب لي (فرحات) يقسم ـ وهو صادق ـ « بانه لا يعرف صاحب المقال ، وليس له اية علاقة به ، وهو يستنكره ويستقبحه » .

وحثني الصديق عجاج نويهض على ان احاول اصلاح ذات البين بعد تلك القطيعة التي دامت سنين ، وكنت قد احسست من الجانبين الميل للتناسي ، وهذا فرحات الذي كان يقول لي : « وانا لا اغفر لصيدح حتى ولو غفرت له الارض والسماء » قد اصبح هشاً ، لين العريكة من ذاته وقبل ان افاوضه انا وافاوض صيدح بالصلح ، اذ ما كاد (الشاعر القروي) ينشر نقده لكتاب (ادبنا وادباؤ نا) وذلك بعد صدور الكتاب بتسع سنوات حتى كتب لي فرحات يقول :

« عجبت لانتقاد القروي لما جاء في كتاب صيدح عفا الله عنه من خلط تسميه انت (تسرعاً) فماذا جرى حتى افاق القروي من سباته بعد ان مرّت على نشر كتاب صيدح سنوات ؟ ولا بدّ ان يكون قد جدّ شيء في نفس القروي الذي هو اعظم صيادي الشهرة ، ومع ان صيدح قد أهانني وهو يمدح القروي في كتابه : فانه اغدق علي من نعوت والقاب ما يفيض عن حاجتي ولكن (القروي) كان يراه قد قصرّ كثيراً فيما قاله عنه . . لان على صيدح ـ كما يزعم القروي ويدعيه ـ ان يذكر ان العقاد قد رشحه لجائزة نوبل !! وكان على صيدح ـ كما يجري في مخيلة القروي ـ ان يقول ان اليهود قد بعثوا للقروي بقنبلة لولا عناية الله لانفجرت ، وقتلت القروي !! وهدّمت نصف مدينة (سانباولو) كما كتب القروي بذلك الى صديقه صاحب (العلم العربي) ـ يعني به عبد اللطيف الخشن ـ ببونس آيرس ، وان صيدح نسي ـ على قول القروي وما هو في مخيلته طبعا ـ ان يذكر ان عجوزاً مصرية ثرية جمعت في بيتها رهطاً من اعلام الادب والوطنية المصريين ، وطلبت منهم ان يدرسوا ، ويدققوا ، ويعلنوا عن الرجل العربي المعاصر الذي نفع العروبة اكثر من كل عربي في كل العصور ، لانها تريد ان تخصه بجزء من ثروتها ، فقرّ رأيهم بعد بحث طويل ، وتدقيق اطول : ان (القروي) هو الرجل (المنشود) فارسلت اليه مائتي جنيه مصري ، وان القروي ردّ الهدية متبرعاً بها الى الجيش المصري !! »

وبعد ذلك يقول فرحات :

« . . . واذا أردت ان تعرف عن (القروي) اكثر فما عليك الا ان تسأل (محمد قره علي) ببيروت ، وانت لا شك تعرفه ، فقد اخبرني هو نفسه وكنت اعوده وهو في فراشه ، وكان عنده رجل عراقي عرفّه بي ، وعرفني به بانه ابو فلان القصاب الذي كان رئيساً لمجلس النواب ببغداد ـ ويعني به عبد العزيز القصاب ابا عبد المجيد القصاب ـ وكيف طبقوا الشيخ عبد الله الجابر الصباح ان يتبرع للقروي علنا في احدى الحفلات ، وعلى ان يقبل القروي هذا التبرع علنا ، على ان يقدم القروي هذا المبلغ الذي هو عبارة عن الف ليرة لبنانية مشاهرة تدفع في رأس كل شهر للطلاب الفقراء الناجحين ، ولكن (القروي) حين قبض المبلغ حنث بوعده المتفق عليه ، فوقعت بين القروي ومحمد قره علي الواقعة ، وفضح قره علي القروي » .

ويقول فرحات : « فقلت لمحمد قره علي : وهذا يعني انك والقروي كنتما قد

اتفقتما على خدع الجمهور العربي ، واشتركتما معاً دون ان يشعر الشيخ عبد الله الجابر الصباح بذلك، فقال لي الشيخ العراقي - يعني السيد عبد العزيز القصاب - لا . . ولكن قره علي شاء ان يزيد في قدر القروي ، فقلت له - يقول فرحات - (بقينا مطرحنا) . . وحياتك يا عزيزي ان حكايات القروي في طلب الشهرة اطول من حكايات الحيات كما يقولون في لبنان » .

وقد قص عليّ محمد قره علي ببيروت هذه القصة بالتفصيل ، كما وصف لي مدى تعلقه بالشاعر القروي قبل حدوث هذه الحادثة ، وكيف صار ينظر الى القروي بعد ذلك ، وان محمد قره علي اكثر من كان يبشر بشعر القروي وجهاده ووطنيته وعزوفه عن طلب المال والجاه ، وقد خدم (قره علي) القروي خدمة جد كبيرة عند عودة القروي من البرازيل الى لبنان فيما نشر عنه في الصحف، وبث فكرة وجوب الاحتفاء به وفيما عقد له من الحفلات ، واسهم مع كل خطيب في التنويه بفضله ، واما ان يكون محمد قره علي والقروي قد خدعا الجمهور العربي كما يقول فرحات فلا محل لهذا هنا ، فقد كان هذا الاتفاق عملاً صالحاً ، وخدمة اجتماعية عامة ولكن هذا الاتفاق لم يمض الى نهايته ولم يفد منه الطلاب الفقراء شيئاً .

ولقد سعيت بفضل حث الصديق عجاج نويهض في اعادة المياه الى مجاريها - كما يقولون - بين الصديقين ، ولا انكر اني تلقيت منهما ما يشبه الرضا ثم حال انحراف صحة كل منهما بين زوال هذه الغضاضة زوالاً تاماً ، وماتا والمرض لم يترك لكل منهما من المجال ما يعودان به الى سالف عهدهما في المراسلة ، سوى ان فرحات قد اكد لي بخصوص صيدح قائلاً :

« أني اكتب ما يخطر لي على الورقة فاذا طويت الورقة بعد انتهاء الكتابة، انطوى معها من ذاكرتي كل ما كتبت ، ولم يعد الان في ذهني شيء من صيدح » .

وحين علم جورج صيدح مني بما آل اليه زوال البصر عند فرحات كتب لي يقول : « حديثك عن فرحات جدد احزاني وأثار غبار ذكرياتي معه » .

- ١٠ -

والى الستين من العمر كان الياس فرحات يدخن السيكارة بل ويكثر من التدخين ، وقد سبب له ذلك شيئاً من ضيق في الصدر والنفس ، وسعال ضاق به ذرعاً فطلق الدخان نهائياً ، ومرت عليه سنين طويلة وهو لا يزال يعاني من السعال الذي

خلفه التدخين ، والذي لم تفد معه المعالجة كلما اشتد عليه هذا السعال واضطره الى ملازمة الفراش ولا سيما في سنينه الاخيرة ، وقد تبلغ معه الحالة بحيث يستدعي الامر الى دخوله المستشفى ولكنه لم يستجب لطلب الاطباء ويظل ملازماً لفراشه حتى تخف الازمة وتزول الوعكة ، وذات مرة وهو يعاني اشد ازمات الضيق في الصدر والسعال وارتفاع درجة الحرارة ألح الطبيب عليه بدخول المستشفى وعلق شفاءه على هذا الدخول ولكن فرحات أبى ، وقال للطبيب لقد رأيت بعيني هاتين خمسة أصدقاء دخلوا المستشفى وخرجوا منها الى القبر رأساً فدعني امت هنا وفي سريري هذا فهو أحب الي من الموت على سرير المستشفى ، ولكنه صحّ بعد ايام وقام من الفراش ، ومثل هذا قد وقع له غير مرة ، وحين يصح ويشفى يعاني مرضا آخر هو مرض الروح ،او مرض النفس اذا شئنا ان نسميه الا وهو الشعور بالوحدة ، وكتبت له مرة اسأله عن صحته وكان قد أبَل ، فكتب لي يقول : « صحتي جيدة ولكني اشعر بوحدة قاتلة ، لأني وحيد هنا » .

وانا على يقين بان فرحات لا يخاف الموت ،واذا ما فكر فيه ـ وقد يفكر ـ فهو في مصير ما ترك من آثار خطية لها قيمتها الأدبية والتاريخية ،وقد قال لي مرة« انا افكر في الموت دائماً ، ولا افكر فيه تفكير الخائف منه ، وانما تفكيري فيه تفكير العاقل الذي يعلم ان لا مهرب مما سيجيء به الغد ، وماذا يفيدني التفكير ؟ فلا بد من التسليم والتيقن بأن كل آت قريب ، ونحن اذا فكرنا في امر الموت وجدناه حتماً على كل حي ، وعندنا مثل في البرازيل يقول ، (لكي تموت يكفي ان تكون حياً) وعندنا في العربية بهذا المعنى ايضاً ، ومهما يكن الأمر فلست خائفاً من الموت ، لأني اعرف النهاية التي لا مهرب منها » .

وان له الكثير من الشعر الذي يشير الى عدم خوفه من الموت وعدّه الموت شيئاً طبيعياً لا ينبغي ان يتخوف منه الأنسان ، ومن هذا الشعر قوله :

نحن في اللجة التي انتِ فيها كل طاف منا سيمسي غريقا
لن يطول افتراقنا فالمنايا مالئات بالراحلين الطريقا

وفي احدى ازماته الصحية وقد أبل منها كتب لي يقول : « قلت لك سابقاً اني لا اذكر الموت خائفاً او متشائماً ، وانما اذكره كما اذكر موعد زيارة اي انسان ، الا ان هذا الزائر قد يؤجل زيارته ولكنه لا يلغيها ابداً وانا لو كنت ارى فيمن حوالي من يفهم من

هذه الكتابات حرفاً لما همني الأمر ، ولو كنت اعلم اني في مدينة لا تخلو ممن ينظر بعد غيابي في اوراقي لما همني كذلك الأمر ، ولكن يا عزيزي ، انا العربي الوحيد في هذا البيت ، والعربي الوحيد في هذه المدينة ، وان الجالية هنا لا تهتم الا بأوراقها النقدية » .

ولفرحات خواطر ، ومذكرات ، وتعليقات على كتب ومقالات لم تزل مخطوطة ، وكثيراً ما حدثني في رسائله عنها آسفاً على ان تغدو هذه الخواطر من بعده طعمة للنار ، هذا بالأضافة الى تمنيه بأن تطبع دواوينه المنسقة على يده وفيها ما لم يطبع من الشعر بعد طبعة جديدة انيقة ، فمات ولم تتحقق هذه الأمنية ، وفي اواخر سنينه كتب لي بشأنها يقول :

« . . . لقد اصبحت اقرب الى اليأس من تنفيذ مشروعي وانا على قيد الحياة ، وطبعاً اذا مت دون تنفيذه فإنه لن ينفذ قط ، وليس هذا وحده ما يؤلمني ، وانما المؤلم هو تفكيري بأني سأترك مكتبة صغيرة ، وفي معظم الكتب التي قرأتها تعليقات على هوامشها ، وهناك رسائل لي احرص عليها كما احرص على حياتي ، انها رسائل كتبتها انا تاركاً نسخاً منها لدي ـ يريد انه قد احتفظ بمسودات ما كتب ـ ورسائل تسلمتها من الآخرين هي عندي ذات قيمة أدبية ، وتاريخية ، وسياسية ، قد تهم من يحاول ان يكتب شيئاً عنا وعن الأدب المهجري ، وان اقدم رسالة احتفظ بها يرجع تاريخها الى سنة ١٩١٩ وقد تلقيتها من الملك فيصل الأول صادرة من فرساي ، والتوقيع عليها هكذا : (قائد الجيوش العربية الشمالية ، والممثل الأول للعرب في مؤتمر الصلح ، فيصل) .

الياس فرحات يخطب في حفلة تكريمه

ويقول فرحات : «وانا اعد هذه الرسائل ذخائر ، واعلم انها ستذهب طعاماً للفئران ، دون ان يلتفت اليها احد ، او ينتفع بها احد ، وهناك رسائل من ميشيل

عفلق قبل ان نتعارف ، وبعد تعارفنا ، ومن الأمير البطل عبد الكريم الخطابي ، ومن عادل ارسلان ، ومن جمال عبد الناصر ، ومن غازي ملك العراق . . . الخ » .

ويقول فرحات « وانا ارنو بعين الحزن والأسف الى مكتبتي لأني العربي الوحيد في بيتي ، وكأني العربي الوحيد في هذه الدنيا ، ففي مدينتنا الجميلة هذه ـ يعني بلوارزونتي الأفق الجميل ـ عشرات الألوف من الذين يقولون انهم عرب . . . لا ازورهم ولا يزورونني واذا التقينا بطريق المصادفة ، او تشييع جنازة ، فلا يزيد الكلام عن قولك (مرحبا) . . . وانا اتسلم جرائد من (سانباولو) ومجلات من بيروت، وحلب ، وبغداد احياناً ، ولا استطيع اليوم ان أقرأها ، وقد اقرأها بصعوبة ـ اذ كان بصره قدرك وضعف في ايامه الأخيرة، فلم يعد يستطيع القراءة والكتابة نهائياً ـ وكم اتمنى ـ يقول فرحات ـ لو كان لي جار يعرف العربية ليقرأها لي » .

وقد تلقيت آخر رسالة منه بخط يده الذي اصبح لا يقرأ الا بالقرينه، وهي مؤرخة بتاريخ اليوم العاشر من كانون الثاني ١٩٧٦ اي قبل وفاته ببضعة شهور يقول فيها يقول فيها :

« . . . وصحتي الآن بين بين ، وانا ادنو من النهاية شيئاً فشيئاً ، ولا بد من الوصول، وقد حسبت هذه الليلة انها ستكون الأخيرة من ليالي العمر ، ولكنها مضت وخلّتني لأخت لها ، فاسمع هذا الأنذار الى عزرائيل :

ضاق الطريق عليّ وهو محفّر ... فحسبت ان ضاقت عليّ به الدنى
وتعثّرت رجلي به فحسبت ان ... القى المنيّة قبل ما القى المنى
شمس الصباح تجيئني بنشاطها ... ويجيئني ليل المتاعب بالونى
وكأن عزرائيل تحت وسادتي ... متربص بي هامس : اني هنا
عزريل انت ابن الحلال فإن تحل ... دون الذي ارجوه كنت ابن الزنا »

وكل الذي كان يرجوه هو ان يرى دواوينه مطبوعة من جديد طبعاً انيقاً وهو لم يزل في قيد الحياة ، ومات ، ولم تتحقق هذه الأمنية .

ولست ادري هل ان هذه الأبيات التي بعث بها كانت آخر ما نظم ام انها كانت من منظومه بعد وعكة سابقة من وعكاته المتعددة ؟ وفي هذه الرسالة يقول :

« وانا يا أخي جعفر واثق من محبتك ، وصدقك ، واخلاصك ، فإذا رحلت من

هذه الدنيا ، ولا بد من الرحيل . . . فسأرحل مطمئنا بأن لي هناك في العراق اخاً يحاول اعادتي اليها . . !! » .

ويبدو انه كان في هذه المرة متأكداً من رحلته النهائية الى دار الآخرة فبعث لي مع هذه الرسالة بمسودة لرسالة كان قد بعث بها الأب الراهب موسى سلامة ، وهي رسالة وجهها الأب الى السيد حامد الجبوري وزير الاعلام بتاريخ آب ١٩٧٣ من (بلوارزونتي) يحث فيها الوزارة على ان تتولى طبع دواوين فرحات ما دامت السفارة العراقية في البرازيل التي تبنت فكرة طبع هذه الدواوين من ذاتها ودون طلب من فرحات .

والأب موسى سلامة عراقي ومن خريجي احد المعاهد العراقية في الموصل وهو اليوم مدير لكلية (مـار بطرس) ببلواورزونتي في البـرازيل، ويعـد من الشخصيات المرموقة اللامعة في هذا البلد .

ويعلق فرحات على رسالة الأب الراهب قائلاً : « ورسالة الراهب التي كتبها من نفسه حين علم بتبني السفارة العراقية طبع دواويني ارسلها اليك لتضمها الى رسائلي ، اذ قد تحتاج اليها عندما يجيء دوري في الكتابة عن (الذين عرفتهم) . . . » .

وليس في هذه الرسالة أكثر من التعريف بالمعروف ، اذ ليس هناك من لم يعرف فرحات وقيمته الشعرية ، فاستغنيت عن درجها هنا لا سيما وهي رسالة مسهبة بعض الأسهاب .

وصرت أكتب الى فرحات دون ان اتلقى منه جواباً وحين ازمعت النية على السفر الى القاهرة في صيف ١٩٧٦ كتبت له اخبره بموعد سفري وعينت له عنواني هناك ، وقد تلقيت ، وانا في القاهرة رسالة عن طريق المستشار قاسم الخطاط في الجامعة العربية موقعة بتوقيع (نسيم دوحس ابي عبيد) ومؤرخة باليوم العاشر من حزيران من سنة ١٩٧٦ ، يقول فيها انه صديق للشاعر فرحات وقريب منه في السكن من الحي ، وانه متطوع منذ اشهر لكتابة رسائل يبعث بها فرحات لأصدقائه ومنهم انت (ويعنيني انا) وقد مرت شهور وفرحات يعاني ازمة صحية حادة تحول بينه وبين مكاتبة الأصدقاء ، وقد انقطعت بسبب ذلك رسائل اخوانه عنه فزاده ذلك حدة وشدة في ازمته الجسمية ، والروحية ، وقد طلب مني ـ يقول نسيم دوحس ـ ان اكتب خاصة الى عبد الله يوركي بحلب ، ووديع فلسطين بالقاهرة ، وجعفر الخليلي ببغداد ، بأنه يشكو انقطاعهم

عنه ، وقد كان يحسب رسائلهم دواء له يستشفي بها ، لذلك فهو وانا ـ يقول نسيم دوحس ـ نطالبكم بالعودة الى عهدكم القديم معه .

وعلى ان رسائلي لم تنقطع عنه فقد رحت اكتب له دون انتظار جواب منه ، ولم تنقطع رسائلي حتى بعد موته بأكثر من ثلاثة شهور وذلك لتأخر وصول خبر موته الي .

وتوفاه الله في اليوم الخامس والعشرين من تشرين الثاني من سنة ١٩٧٦ .

وتيقظت في نفس صيدح ذكريات المحبة ، ونسي ما وقع بينه وبين فرحات فبكاه ورثاه ، وكتب لي يقول :

« محبتي كانت مزدوجة ، لأني في ايام اعتكافي المرة ، جاءني نعي معلوف ـ المقصود به ـ شفيق معلوف ـ ثم اخي فرحات ، واسودت الدنيا في عيني وتطيرت بنفسي ، واخذت انظم الشعر الباكي اليائس ، واقذف به صحبي الأبرياء ظلماً وتجريحاً » .

وظهر رثاء صيدح لفرحات في قصيدة حزينة باكية تصور من صيدح نفسه الكبيرة ، وقلبه الرقيق ، وعظمته التي تخلف كل شيء وراءها الا المحبة والا الذكريات العزيزة من العواطف الطيبة التي ينسى العظماء كل شيء ولا ينسونها ، واني لمثبت هنا هذه القصيدة دليلاً على ما كان يحمل صيدح من نفس عالية تنسى السوء وتذكر الخير وتبكيه ، يقول صيدح في فرحات :

ذاب جسمي ولاب روحي أسيّا ... يا ضميري لم يبق غيرك حيّا
كن لساني وترجماني وحدث ... كيف أمسيت يا معذب عيّا
انا لولاك ما عرفت ارتياحاً ... في حياتي ولا رقاداً هنيا
أكل الدهر ما حلا من كياني ... يعلم الله اي مقى يتقيّا
همّه الحدّ من صلابة عودي ... والتجني على غضون المحيا
الغرابين نصب عيني صبحاً ... والثعابين في المهاد عشيا
والأماني مرت مرور الثواني ... بينما النائبات قرّت لديا
يا ضميري تعيش ما عاش إلف ... في حناياك وارتضاك وليا
شتّت البين في البرازيل سرباً ... كان يهوى لبنانه العربيا
كفنوه بشعره ونسوه ... لا يبالون باسم (اندلسيا

* * *

ايه (فرحات) والليالي الحبالى ... اسكتت عندليبها المهجريا
كنت في ارضنا نباتاً عجيباً ... وعلى روضنا اريجاً زكيا
خصك الله بالمواهب شتى ... لا ملاكاً بدى ولا آدميا
ثار حزني عليك وانهار ضعفي ... فإذا انت مالئ اصغريا
هاك شعري في ارذل العمر يحكي ... ان لي في الأسى مكانا قصيا
سكرة الموت فضل عزيل فيها ... انه جنّح الردى بالحميّا

* * *

مات فرحات ، وليت شعري ما الذي سيمحو ذكر (فرحات) من ذاكرتي ؟ وهي المشحونة بالصور التي كانت بالأمس مبعث سلوتي وأنسي ، واصبحت اليوم مبعث لوعتي وحزني ، أجل . . من ذا الذي يستطيع ان ينسيني (فرحات) وقد تعلقت روحي بروحه نحو ستين سنة من العمر كان كل منا يتمنى على الله ان يجمعه بقدرة قادر بصاحبه فلم تتحقق هذه الأمنيات .

صورة زاخرة بالأخيلة ، تمر امام عيني في شريط ليس له نهاية عن أيام شبابي وانا اقرأ لفرحات شعره ، وعن (كفرشيما) وانا اقف خاشعاً امام بيته ، وبيت حبيبته انيسة ومنها أصعّد نظري الى سوق الغرب كما كان يفعل فرحات والصبيان في الليل فيعدون فوانيس سوق الغرب واحداً بعد آخر ، وعن القرى البرازيلية وهو يطوف فيها عارضاً اصنافاً من المبيعات ، وعن (كوريتيبا) التي قضى فيها ايام شبابه وكهولته ، وعن (بلوارزونتي) المدينة التي شكا فيها الوحدة الروحية ، وكل هذا يمر اليوم على صفحات ذهني كما لو كنت اراه عياناً فأبكي ، وانا اعلم ان البكاء لا يجدي الباكي اذا بكى ، لأن الذي يروح من هذه الدنيا فلن يعود اليها ، وهذا شيء منطقي ، ولكن متى استطاع هذا المنطق ان يتغلب على العواطف في مثل هذه الأحوال ؟ وسأظل أبكي فرحات ما دام هذا الشريط يدور وليس لدورانه نهاية ، رحمك الله يافرحات ونوّر ضريحك كما نورت الأذهان بشعرك .

الدكتور سليمان داود

كيف عرفت
الدكتور سليمان داود
١٨٨٨ ـ ١٩٧٧

- ١ -

في الستينات ولعلها في سنة ١٩٦٧ وقع في يدي عدد من جريدة (نهضة العرب) التي تصدر في الولايات المتحدة قرأت فيه قصيدة باسم الدكتور سليمان داود من (هيوستن) بتكساس ، يعارض فيها قصيدة لجورج صيدح اغلب ظني انها من القصائد التي بكى فيها جورج صيدح فلسطين ، وفي هذه القصيدة ، قصيدة الدكتور سليمان داود بعض ما يستدعي الاعجاب ، ولم اكن حينذاك اعرف من هو الدكتور سليمان داود اذ لم يسبق لي ان وجدت له اسما بين ادباء المهجر ، ولما كانت المكاتبة بيني وبين صيدح ، تتناول اموراً كثيرة تشبه لحد ما مكاتبتي لوديع فلسطين ، مرّ الحديث على الدكتور سليمان داود فذكرت لصيدح ما اعجبني من قصيدته التي عارض فيها قصيدة صيدح ، ونقل صيدح هذا الاعجاب الى الدكتور سليمان داود ، وتلقيت من الدكتور سليمان اول رسالة مؤرخة في ٨ كانون الثاني من سنة ١٩٦٨ يشكرني فيها ويشكر جورج صيدح الذي كان واسطة هذا التعارف ، وكان لا بد لي ان ارد على رسالته بالمثل ، واشكر انا الآخر لصيدح هذا الفضل ، وكان هذا هو الباب الذي فتح بعد ذلك على مصراعيه فيما يتعلق بالتعارف عن طريق المكاتبة ، ومن هذه المكاتبات علمت ان الدكتور سليمان داود ، من مواليد راشيا الوادي بلبنان ، وانه ولد سنة ١٨٨٨ ويقول في احدى رسائله مجيباً على بعض اسئلتي : « وتسألني عن هجرتي والمحيط المقيم فيه ، وكل ما اقوله الآن هو اني عربي هاجر منذ ١٩١٨ من (راشيا الوادي) بلبنان الذي انت تعرفه جيداً » .

ثم علمت انه تلقى دروسه الأولية في قريته (راشيا الوادي) واتمها في دمشق ،

وزاول التعليم زمناً قصيراً ، ثم انتقل الى الولايات المتحدة في ١٩٠٨ كما مر ، حيث انهى دراسته العالية وحاز على شهادة استاذ علوم ، ودكتور في الفلسفة ، وتجنس بالجنسية الاميركية ، ومالت نفسه لدراسة الطب فتخرج طبيباً،وتجند في الجيش الاميركي كطبيب برتبة (كابتن) ثم اعد نفسه للاختصاص فاختص بجراحة العظام ، وعين استاذاً للجراحة بكلية الطب في جامعة (هارورد) اهم جامعات اميركا الشمالية ، ونسبت له عمليات جراحية خاصة في العظام ، وفي سنة ١٩٣٥ عين رئيسا لاطباء مستشفى (المتودست) في (هيوستن)بتكساس،وقد دخل اسمه في موسوعات مشاهير الاطباء في الولايات المتحدة كأشهر طبيب في جراحة العظام ، ومن اشهر اساتذة الجامعات في الجراحة .

هذا باختصار ما عرفته عن اختصاصه من رسائله او مما كان يمر علي من ذكره فيما يقع تحت عيني صدفة من الصحف،والاشارات اليه في بعض المناسبات من رسائل الذين يعرفونه .

ويبدو انه لم يكتف بشهرته الواسعة في عالم الطب جراحاً متخصصا بالعظام فعني بصفته من المتخصصين ايضا بالاجتماع والفلسفة بجوانب اخرى ، فكان مستشاراً طبياً للقضاة والمحامين في هيوستن ، واعتبر عضواً عاملاً في جمعية تقدم العلوم الاميركية ، ولما كانت له بذرة من الأدب العربي انغرست في نفسه في اثناء دراسته للعربية بدمشق ، وفي اثناء قيامه بالتدريس فاتجه للادب وعلى الاخص الشعر منه وصار ينشر شعره في الصحف العربية التي تصدر في الولايات المتحدة وهي صحف ضحلة ، وضئيلة ونادراً ما كان يبعث بشعره الى الصحف العربية في البرازيل التي كان لها شأن كبير في عالم الأدب .

* * *

واشتدت اواصر الصداقة والمحبة بيني وبينه ، وغالى في محبتي ، والثناءعلي ،بمغالاة يخجلني ان انقل عنها امثلة من رسائله ، وقد بعث لي مرة بصورته وكتب تحتها البيتين التاليين :

ارسلت رسمي وما رسمي سوى شبح ... ناجى الصحابة في بغداد والنجف
ادعو الى الله ان يبقيك في مرح ... هذي صلاتي الى الباري وذا هدفي

ولم يجيء اسم النجف هنا لانني نجفي كما يتبادر الى الذهن وانما للرجل كما يبدو من آرائه وشعره علاقة صحيحة بالنبي محمد (ص) وبالامام علي بن ابي طالب ، شأن الكثير من اكابر رجال العلم والأدب من المسيحيين الذين طالما طفح ادبهم من النثر والشعر بذكر النبي محمد (ص) وذكر الامام علي ،

فهو قبل ان يرسل لي رسمه كتب لي يقول :

« من منتصف هذا الشهر سأرسل لك رسم شبح لا ادري كيف لم يزل في التصعيد والتصويب ، انها منحة الملائكة ، ومحمد صلعم (كذا) والمسيح ،وعلي ، لااكثر ولا اقل ، ورجائي ان تعلم اليوم والى الابد اني احترم النبي محمداً ، والخليفة الاعظم الشهيد عليا كما احترم مسيحيتي » .

وفي اختلاف الاقطار العربية وتشتتها الذي كثيراً ما يظهر في ميادين السياسة يقول سليمان :

« . . . ولا أمل بنهضة للعرب اليوم ما لم يعد محمد النبي (صلعم) إلى البلد مرة اخرى » .

وفي احدى المناسبات يكتب لي قائلا :

« . . . انا احب محمداً ، وعليا ، واحترمهما كما احب المسيح ثم يقول :

لـثمـت المجـد والـعـليـاء مـنهـم وتـاريـخ الاوائـل والاواخـر»

وليس من عجب ان يشغف كبار رجال الأدب العربي من المسيحيين بمحمد (ص) وعلي (ع) بعد ان رأينا توماس كارليل يحلل شخصية النبي في كتابه (الابطال) ذلك التحليل ويخص عليا بالذكر ،

وفي مكان آخر يقول سليمان :

« . . . واذكر ايها الصديق الغالي اني أعزّ الاسلام كما اعزّ النصرانية ، وان مخلصي هو محمد والمسيح ، وكلاهما في نقطة واحدة من قلبي ، ولا تنس هيامي بالنبي الاعظم (كذا) وهيامي بعلي بن ابي طالب عليه السلام (كذا) فان لعلي منزلة رفيعة في روحي وكذلك هي لعمر بن الخطاب » .

وحين كنتُ أولف موسوعة العتبات المقدسة كتب لي يقول : « . . . اذكرني عندما تمر بالعتبات المقدسة فلي فيهن غرام ، وهنالك منهن النجف » .

وكثيرة هي الشواهد في النثر والشعر من آثار الدكتور سليمان الدالة على تعلقه

بالنبي محمد (ص) كتعلقه بالمسيح بدون اي فرق ، وحينما توفيت زوجتي وجه لي قصيدة نشرتها جريدة (نهضة العرب) باميركا يتجلى فيها ايمانه بمحمد (ص) وعيسى اذ يقول فيها :

بي ما بك اليوم من هم ومن قلق ... يا خيّر الناس في خلق وفي خلق

الى ان يقول :

وينهي قصيدته بقوله :

(الناصري) له ادعو و(أحمده) ... يستقطران له نوراً من الغسق
هما الدليل لمن ضلت مطيته ... مرساة أمن لمن اشفى على الغرق
ما كان بينهما خلف لمختلق ... هما الصوى في ليالي السفر والطرق

- ٢ -

وانشغال الدكتور سليمان داود بالشؤون الطبية وبروزه بين مشاهير الاطباء الاميركيين لم يصرفه عن الاهتمام بالأدب العربي ، فقد وجد في نفسه ملكة لقرض الشعر ، ولكنه لم يجد الوسائل الكافية والبيئة التي تساعد على صقل هذه الملكة صقلاً كافياً كما ساعدته على ان يكون طبيبا كبيرا ، ومع كل ذلك فقد شغل اسمه اذهان ارباب الأدب العربي في الولايات المتحدة بسبب خلو الولايات المتحدة من اولئك العباقرة الذين اسمعونا اناشيد رائعة من اشعارهم وفي طليعتهم في الشعر كان ابو ماضي ولم يبق من اولئك الادباء الذين مضوا غير نعمة الحاج وقد توفي ، ولكن خلو الميدان وحده لم يكن هو الذي ردد اسم الدكتور سليمان فقط وانما كان لشخصيته ومكانته الاجتماعية بعض الشأن في سمعته الأدبية ، وانا اعتقد ان من عوامل شهرته الأدبية غير شعره الذي كان ينشره في تلك الصحف والذي جمعه في دواوينه الثلاثة التي اسمى الجزئين الأولين باسم (اغاني المزرعة) والمقصود بالمزرعة مزرعته التي كانت تبعد عن (هيوستن) نحو خمسين ميلا كان يؤمها في ايام العطل والفراغ ويقضي بها وقتاً ممتعاً ، وسمى الجزء الثالث (بنواح المزرعة) كذكرى لاحزانه على وفاة زوجته التي ماتت، ومات هو ولم ينسها بالرغم من تزوجه بسيدة فاضلة هي الست وديعة حداد وهي في جمال مقبول وملكات ثقافية وافية كانت تعيش في كندا مع اهلها وتشغل مؤسسة ثقافية هناك ، فتم

الاتفاق بينه وبينها على الزواج وتزوجها ، وانتقلت معه الى هيوستن ، وكان جد راض منها وقد اجتمعت بها في فندق فينيسيا ببيروت ، وكانت قد جاءت بصحبة زوجها لتزور لبنان لأول مرة ، وكنت حينذاك بسوق الغرب مصطافاً وكان ذلك في ايلول من سنة ١٩٧٢ واذا بنداء تلفوني يطلبني من بيروت وكم دهشت حين علمت بان المتكلم كان الدكتور سليمان داود الذي كان قد حصل على عنواني ورقم تلفوني من (البير اديب) صاحب مجلة الأديب ببيروت ، فخففت اليه في اليوم الثاني والتقيته بصالون (فينيسيا)، وهناك التقيت السيدة وديعة حداد التي لم يمر على زواجها بسليمان الا القليل وبدا لي وان كنت لم امكث طويلاً في الفندق انها كانت اكثر من زوجة للدكتور سليمان ، فقد كانت تقوم بكل شؤونه الشخصية كسكرتيرة ذات قدرة فائقة ، ومع ذلك فقد كان يحن الى زوجته الست فكتوريا المتوفاة سنة ١٩٦٨ .

وفي ايلول من نفس السنة التي التقيته فيها ببيروت توفيت زوجتي فعزاني بقصيدة نشرها في جريدة (نهضة العرب) التي تصدر في الولايات المتحدة وقد اوردت منها ابياتا كدليل على ايمانه بالنبي محمد (ص) والمسيح عليه السلام على حد سواء ثم وجه لي قصيدة تعزية اخرى نشرها في مجلة « الاديب » احسب انها من اجود شعره لذلك اورد هنا بعض ابياتها على سبيل النموذج اذ يقول :

يا أخي اوجعني ما اوجعك ... ان من ابكاك ابكاني معك
ودموعي لو جرت طوع يدي ... لرأت (هوستن) فيها ادمعك
موضعي عنك بعيد انما ... بشعوري لم افارق موضعك
قدر الله لأوفى زوجة ... ان تحوز السبق لا ان تتبعك
فمضت تاركة من روحها ... هالة حولك ترعى مخدعك
اكتم الاحزان عنها انها ... لم تزل ترتاع مما روعك
أترى نفسك امست بلقعاً ... بعدما دارك أضحت بلقعك
يا كبير القلب اودى نصفه ... عش بنصف منه يكوي اضلعك
واستعن بالله في نازلة ... فجع الفضل بها من فجعك

وكتب لي بعد ذلك حين علم ببيعي بيتي نزولا على رغبة بناتي اللاتي شق عليهن البقاء في بيت لأمهن فيه ذكريات عزيزة ، وشرائي بيتا اخر في نفس كرادة مريم ، لقد كتب لي يقول .

« . . . اما انا فما زلت في البيت القديم ـ في هيوستن ـ اذ انه ما زال يحوي تلك الذخيرة السماوية التي فقدتها بالامس ، فهي اكبر تعزية لقلبي الجريح ، اما الرفيقة الجديدة ـ يريد بها الست وديعة حداد ـ فقد خفضت درجة الغليان عندي الى درجة معينة لا اكثر ولا اقل ، على ان الاقحوانة ـ يريدبها زوجته الأولى ـ فما زالت لي كما كانت » . .

ولم اعرف شيئا عن الست وديعة الا ما كان يبعث به اليّ والى بناتي من تحياتها وتفقدها ايانا في رسائله المتواصلة التي لم تنقطع عنا كما اني لم اعرف عن اولاده اكثر من ان له اولاداً يقيمون بعيداً عنه وفي مدن اميركية قد تبعد عدة ساعات بالطائرة ، منها انديانا ، وكليفورنيا .

وعلى رغم انني رأيت سليمان ، ورآني هو في زيارته القصيرة للبنان ولبلدة (راشيا الوادي) التي لم يمكث به طويلاً فانه كثيراً ما كان يتمنى لقاءنا ، بل ويدعوني لزيارته بهيوستن ولربما ورد ذلك في شعره في غير مكان واحد من قبيل قوله .

لم لا تمرّ بدارنا وتزورنا يا خيرة الاحباب والاصحاب ؟

وطالما كان يقول من مثل هذا :

« ان شوقي اليك شديد جداً ، وانا اصلي دائما عسى ان تتيح لي الظروف رؤيتك »

فكتوريا داود زوجة الدكتور سليمان الأولى

ـ ٣ ـ

والذي عرفته عنه انه لم يقصّر في معونة من يستطيع معونتهم ، وقد قام بتأسيس مؤسسة باسمه واسم زوجته المتوفاة لمساعدة المحتاجين لهذه المساعدة من الطلاب العرب (بهيوستن) والعمال ، كما شارك في جمعية (اغاثة الشرق) كرئيس لفرعها في تكساس وكان له يد في مساعدة الجامعة الاميركية ببيروت بتأسيس فرع لجمعية (اصدقاء الشرق الادنى)

وفي قضية فلسطين كان العامل الاكبر في جمع المعونات والتبرعات للمنكوبين ، وكان يكتب لي ويقول :

« . . وانا افتح الباب بل جميع ابواب بيتي في وجوه القادمين ، وارحب بهم ، واسهل لكل منهم كل ما اقدر عليه » .

وفي سنة ١٩٧٥ زارت ابنتي ابتسام الولايات المتحدة فكتب لي يقول :

« كان الاخ وديع رشيد الخوري قد انبأني عن وصول ابنتكم الى المتحدة ، وللحال خاطبته بالتلفون وقلت له انني احب رؤ يتها وزيارتها لنا وللرفيقة ـ يعني زوجته السيدة وديعة ـ في هيوستن ، وانا اقوم بمصاريف السفرة ، ولكن لا العزيز الشاعر وديع الخوري رآها ، ولا انا سمعت عنها شيئاً ، وقد عادت الى بغداد » .

وعزز رسالته هذه برسالة اخرى يظهر فيها اسفه واسف قرينته في ان تزور ابتسام نيويورك ولا يراها وكذلك لم يرها وديع الخوري وقرينته ، ثم يكرر هذا الاسف في رسالة اخرى واخرى !! ويقول:

« لقد أسفت لعدم حصولنا على رؤ ية ابنتكم الغالية ابتسام ، فقد كانت رفيقتي وانا بانتظار للقياها في سرور لا يفوقه سرور كما قلت لك سابقا واقوله اليوم بانه من الشرف ان تزورنا ابتسام ونحن نقوم بكل الوسائل المؤدية الى هذه الزيارة أكانت وسيلة أدبية ام مادية فعسى ان يمن الله علينا في المستقبل القريب » وقد بعث لي هنا بعنوانه الكامل ورقم تلفون منزله ، وقال انه لن يكلفها التلفون اجوراً لانها تستطيع ان تطلب من عاملة التلفون ان تجري تلك الاجور في حسابنا .

ان مثل هذا الالحاح قد يدل على عواطف جياشة نحو الاصدقاء ، يستطيع القارىء ان يستنبطها من رسائله التي يبعث بها الى اصدقائه .

وعرض على وديع فلسطين عن طريقي مرة مساعدته المالية حين علم بانفكاك وديع من وظيفته بشركة النفط في ليبيا ، وانه ينوي الانتقال الى الولايات المتحدة للعمل هناك اذا تم له ان يضمن بهذا العمل كرامته التي هي أغلى شيء في حياته ، وما كدت انقل لوديع عرض سليمان داود حتى ثارت ثائرته وهاج واحتد وخاشن ، وعدَّ مثل هذا العرض جرحاً لكرامته ، وعبثا رحت اهدىء من خاطره اذ الأمر لا يحتاج الى كل هذا الغضب والهياج وكل ما في الأمر هو الاعتذار عن قبول اية مساعدة باللباقة التي يكاد يختص بها وديع بين نوابغ الكتاب مصحوباً بالشكر لهذا الذي يعرض عليه مثل هذه

المساعدة ، وذكّرت وديعا بما مرّ عليّ انا في كثير من الازمات فاعتذرت عن قبول المساعدة واعدت المبلغ للصديق مرفقاًبالشكر ،ولا ازال انا شاكراً حمية اولئك الاصدقاء، وذاكراً هذا اللطف منهم بالثناء دون ان أتناول منهم فلساً واحداً .

ومع هذا فهناك اشياء لا ادري كيف افسرها عن الدكتور سليمان داود ، فقد كتب لي مرة عن رزق الله حلبي يقول :

« منذ اسبوع بلغني كتاب من رزق الله حلبي صاحب مجلة (قب الياس) - التي تصدر في قب الياس بلبنان - يقول ان المخربين هدموا بيته في (قب الياس) وسرقوا كل ما فيه ، وهكذا جرى في بيته ببيروت ، وقد بكيت بعد انتهاء قراءة تحريره لأني اعرفه شخصياً !! » .

ألم يكن الواجب عليه وهو المترفه المتنعم ان يسعفه بشيء ولماذا لم يفعل شيئاً غير البكاء ؟ وانا على يقين انه لو كان قد فعل لاخبرني بذلك .

والحق انه ما خليت رسائله من ذكر الاصدقاء والمنكوبين بلبنان ، ولطالما كان يبكي ،فهو رقيق القلب على ما علمت ، كثير الانفعال ، ولعل رثاءه للبنان بسبب الحوادث من اصدق ما يعبر عن احاسيسه اذ يقول :

كانوا عنا قيد الدوالي ألفة ... ومحبة ، وحلاوة ، وتبسما
هجمت كلاب الليل في غسق الدجى ... فرأت نواطير الحكومة نوما
فاستأسدت وتكثرت اضراسها ... ومضت تريش من الخيانة اسهما
وتكردست جثث على جثث فما ... سمع الفضاء سوى رصاص زمزما
لبنان هل لي ان ارى لك نهضة ... رفعت الى استرداد عزك سلما
ان زرت بيروت الحزينة لا ترى ... في دورها والساح الا مأتما
بيروت لم تشهد مدى تاريخها ... زمنا تجلبب بالدما وتنعما . .

الخ

- ٤ -

قلت انه لم يبق في الميدان من اولئك الذين فتحوا صفحات جديدة من الادب الرائع الجديد شعراً ونثراً في الولايات المتحدة ، وعلى الاخص منهم جبران خليل جبران ، وميخائيل نعيمة ، وايليا ابو ماضي ، اما الذين جاؤ وا بعد اولئك فلم يستطيعوا ان يشغلوا اماكنهم ، وكان الدكتور سليمان داود من ابرزهم ، وكان له ما

يستند اليه من الشهادات قول ايليا ابي ماضي في جريدته (السمير) سنة ١٩٥٣ عنه اذ يقول :

« في مدينة (هيوستن) مغترب لبناني عبقري، هو الدكتور سليمان داود ، فانه منذ قدومه الى المهجر لا يزال يتكلم العربية السليمة، ويأنس بأبنائها ويعتز بها، ويدافع عنها ، انه مفخرة من مفاخر لبنان في المهجر ، واحد حملة المشاعل الأدبية المعاصرة ، ومثال رفيع للانسانية في مدينة القرن العشرين » .

واقوال عدد من الأدباء الذين ظلوا يمارسون الشعر والأدب وعلى رأسهم كان وديع رشيد الخوري كانوا يجدون في الدكتور سليمان داود وهم على البعد لم يرهم ولم يروه ، لقد كانوا يجدون فيه الى جانب كونه من كبار الاطباء اللامعين والرجال المعروفين بالانسانية وحب الخير والطيبة شاعراً زادتهم يقينا به دواوينه الثلاثة التي طبعها له ألبير ريحاني ببيروت ، فرأوا ان يبثوا الروح الأدبية في نفوس الأدباء العرب من جديد ويجمعوا شمل اولئك في جمعية لم يجدوا لها رئيسا احسن من الدكتور سليمان داود ، وكان وديع رشيد الخوري هو وليّ هذه الحركة وقد كتب لمن يعرف منهم فاختاروا لجمعيتهم هذه اسم (جامعة الأدب العربي في اميركا الشمالية وكندا) واختاروا بالمراسلة الدكتور سليمان رئيسا ، ووديع الخوري امينا للسر ، وقامت هذه الجمعية بالاسم دون ان يتم لها اتخاذ مكان ، ودون ان يجتمع اعضاؤها ولا مرة واحدة.

وحين بلغني خبر قيام هذه الجمعية كتبت للدكتور سليمان كما كتبت لوديع رشيد الخوري ، باني ارى تخصيص يوم معين يجتمع فيه الاعضاء ، وليكن ذلك في (هيوستن) ولعدة ايام تقررونها لتتعارفوا ولتتذاكروا فيما ينبغي ان تقوموا به من عمل كتأسيس ناد ادبي او انشاء صحيفة عربية (كالسائح) (للرابطة القلمية) و (العصبة) للعصبة الاندلسية ، وما دام بامكان الدكتور سليمان قدرة من المال يستطيع ان يتحمل الدعوة كلها او بعضها على نفقته ، فلماذا لا يقوم بمثل هذه الدعوة في كل ثلاث سنوات او خمس او عشر على الاقل ؟ ورحب الدكتور سليمان بالفكرة وعلق امرها على وديع رشيد الخوري وقال انه سيكتب له بذلك ويقف على رأيه ، ومرت سنوات ولم يبق للجمعية غير الاسم ولم ير بعضهم البعض حتى وديع وسليمان فقد ماتا دون ان يرى احدهما الآخر !!

وتعوز الدكتور سليمان الاصالة الأدبية فهو لا يستطيع ان يهضم فكرة لا تتفق مع

افكاره ، وقد يعطي لنفسه الحق ان يشجب ما لا يتوصل اليه من مقتضيات الادب واغراضه لمجرد تنافره مع نشأته الأدبية ، وان نشأته الأدبية كانت في محيط ضيق لم يتسن له فيه ان يخوض في الاعماق ، ولذلك ثار ثورة عنيفة على وحيد الدين بهاء الدين ، وكان وحيد الدين من اقرب الاصدقاء اليه كل ذلك لان وحيد الدين حين جاء ذكر جمعية (جامعة الأدب العربي في اميركا الشمالية وكندا) التي يرأسها الدكتور سليمان داود قال عنها في مجلة الكلمة ان هذه الجمعية قد قامت لتحل محل (الرابطة القلمية) ولكن هيهات ، وقد نسي سليمان ثناءه العاطر على وحيد الدين في تقريظه لديوان (اغاني المزرعة) وقوله :

« لقد طالعت دراسة وحيد الدين بهاء الدين لاغاني المزرعة في مجلة (الكلمة)سلم الله قلمه الفياض ، وساعدني على مكافأته انه السميع المجيب » لقد نسي سليمان ثناءه هذا وراح يصب جام غضبه على وحيد الدين بسبب هذه (الهيهات) وهي كلمة لم يجد وحيد الدين فيها زيغا عن الحق فاين هذه الجمعية من جميعة (الرابطة القلمية) ورحت اخفف بالباطل من حدة الدكتور سليمان فيما اوردت له من معان لهذه (الهيهات) فيما يخص الوقت والزمن لا فيما يخص الاشخاص لكي اهدىء من روعه ، وكنت احسب اني قد اعدت المياه الى مجاريها وسويت بين هذين الصديقين ، ولكنه كتب لي يقول عن (الهيهات) هذه :

« لقد تضمنت هذه العبارة جهلاً ومعنى خفياً ولكنه رديء او خبيث الرائحة (كذا) ولهذا السبب مسكت القلم عن قول كلمة . . الى ان اقوى على نسيان ما جرّه وحيد الدين دون سبب سوى الجهل » .

وكتب لي غير هذا ايضاً لا ارى حاجة لذكره ، وكنت اكتب له بمخالفتي لرأيه في شيء من اللطف غير مزعج ، ولكن ظل ناسياً انه كان محتاراً في كيفية مكافأة وحيد الدين فقطع عنه رسائله ، ولو كان لسليمان شيء من الاصالة الأدبية ، والاحاطة بمفاهيم الأدب التي تدعو الى وضع الشيء في مواضعه لآمن بما قاله وحيد الدين ولصدق بان البون شاسع جداً بين جميته واعضائها ، وجمعية الرابطة القلمية واعضائها .

ومثل هذا ما وقع بينه وبين جورج صيدح في قصيدة (بنت باريس) التي اهداها صيدح لوديع فلسطين ، وقد نالت هذه القصيدة من الاستحسان اضعاف ما كانت تناله قصائد صيدح الرائعة ، وكانت بين صيدح وسليمان من المودة ما لا يقدر واش ان يفسده

على حد قول شوقي حتى كان يكاد يجن حين يبلغه خبر وعكة تلم بصيدح ، او حين يدخل صيدح المستشفى لاجراء فحوص اعتاد ان يجريها بين حين وآخر ، وكان يكثر من التفقد له ولكن سليمان قد نسي كل هذا وراح يهاجم صيدح بكل ما استطاع على ما يقول سليمان !! ليس لشيء الا لأن قصيدة (بنت باريس) لا تناسب شخصية صيدح !! ولنفرض ان ذلك كان كمايقول،فاي شأن لسليمان فيها ، والقصيدة هذه قصيدةغزل،ونسيب،تعود بصيدح الى عهد الشباب والليالي الحمراء بباريس ، ثم هي تعرض لغربة يشكو منها صيدح تشبه غربة وديع فلسطين بليبيا ، وبعده عن اهله ، ولكن سليمان داود تجاوز حدوده في غضبه وراح يهيج اصدقاءه على صيدح ، وكنت انا ممن كتب لي عن ذلك منكراً على صيدح مثل هذاالشعر،ويقول كيف ينظم صيدح مثل هذا الشعر وفلسطين تعاني هذه المحنة !! ثم لم يكتف بهذا بل هاجم صيدح في جريدة (النهضة العربية) ونسى او تناسى قصائد صيدح الرنانة في فلسطين ومحنتها ، ونسي (نكبة حزيران) التي طبعها صيدح في مجموعة لا اظن بيتا من بيوت اهل الادب قد خلا منها ،فضلا عن عشرات القصائد التي اذاب صيدح فيها روحه ،وأسالها دموعا ساخنة صادقة في قوافيه ، حزنا على فلسطين والمشردين من الفلسطينيين انه ينسى كل هذا ويقول :

« لقد حدث خلاف ولا اقول قطيعة لان القطيعة مستحيلة بيني وبين الاخ صيدح ـ ولكن هذا الذي يحسبه سليمان مستحيلاً قد وقع فعلاً وآل الى القطيعة ـ والسبب هو قصيدته (بنت باريس) وقد عددتها ـ يقول سليمان ـ انا من خرف الشيخوخة ، وعدم الحكمة (كذا) في هذا العهد من مرضه وشيخوخته (كذا) فقد جمع فيها الخوازيق ، والمواخير ، والنواسي ، وابن المعرة ، والعاهرات . . . وان الادب والحشمة ، واللياقة ، والتاريخ يمنعني عن الاقامة في واديه !! » .

ويقول سليمان انه كتب بهذا لصيدح وان صيدح قد ارسل له بحزمة من تعليقات الاعجاب والاستحسان وكان في ضمن ذلك تعليق نزار قباني ، وتعليقي انا الذي أبديته لسليمان واخبرته بأني معجب بالقصيدة اكثر مما ذكره له صيدح فيكتب لي سليمان قائلا :

« هذا انت يا صديقي ، فقد زادت دهشتي وتمنيت لو لم يخبرني صيدح بهذا عنك ـ كذا ـ » .

وهنا حصلت القطيعة اذ لم يكتب صيدح لسليمان بعد ذلك شيئاً ، وعبثاً راح سليمان يكتب له ويسأل عن صحته دون ان يتلقى جواباً ، ويبدو لي من رسائل سليمان انه كان يشفيه الطعن بجورج صيدح ، فحين ملأت احدى صحف البرازيل مقالاً لها بالقذف المقذع لصيدح طلب سليمان من البرازيل ، اعدادا من تلك الجريدة التي اوردت انا خبرها في الفصل الذي كتبته عن صيدح وفرحات وقام بتوزيعها على بعض الاصدقاء كما ارسل عددا منها الى صيدح نفسه!! كما لو كان مثل هذا بشارة خير ، وحين لمته انا كتب لي يقول : لاني حزين جداً لما حدث » !!

ثم يقول :

« وقد مرّ علينا واحد من (فانزويلا) ـ التي كان قد سكنها صيدح سنين طويلة ـ وانا لم اعرفه من قبل ولكنه مرّ بي وسألته عن هذه المسألة ـ يقصد مسألة الطعن البذيء الذي وجهته الجريدة لصيدح ـ لقد سألته بطريقة حكيمة (كذا) فلم يجب بالنفي او الايجاب ، فما اردت المزيد من الحديث الوسخ » .

وكتبت انا لسليمان لائما ومعاتباً وقلت له ان لكل شخص مادحاً وقادحاً وكان عليك ان تتجنب التعمق في قذف يعرف الجميع ان كاتبه حاقد على صيدح ،كذاب ، بذيء اللسان ، وقد كتب كل ذلك عن صيدح لغرض في نفسه ، وهذا ما يفهمه حتى الساذج البسيط من القراء ، واذكر اني رجعت الى ملف رسائل سليمان واستخرجت منه قوله في صيدح وقلت له كيف تنسى قولك في صيدح اذ تقول لي :

« لقد فتشت عن مثيل لنبلك وعراقتك يا عراقي في زوايا الذاكرة فلم اجد لك مثيلاً سوى صيدح (كذا) ولكن الاخ صيدح عرفته من قديم الزمان في نيويورك لذلك تبقى انت وحيدا وفريدا في المروءة والشهامة والانسانية والعروبة . . » الى آخر هذه النعوت التي لا اقرك عليها فيما يخصني انا .

ولا ادري كيف صرت اخلط مع فقدان الاصالة الأدبية عند سليمان اشياء اخرى تتعلق بالنفس وما تتمخض به دون ان اميز بين امرين متناقضين كل التناقض في حين ان الحديث كان متجهاً الى فقدان الاصالة .

واعود لأذكر عن فقدان الاصالة الأدبية عند الدكتور سليمان داود هو هزؤه بالبحث المبتكر الذي كان يواصل كتابته وديع فلسطين عن مكانة (الحذاء في الأدب العربي) في مجلة (الأديب) وهو بحث تناول فيه وديع فلسطين ذكر الحذاء في الشعر

القديم والحديث الذي نرجو ان يجمع يوما ما في كتاب يقرأه من لم يقرأ بعد كم كان لهذا الحذاء من اهمية في الاستعمال عند اهل الشعر والأدب العربي في مختلف الاغراض وكم تضمن هذا الاستعمال من وجود البديع في الجناس ، والتورية ، والمدح ، والقدح ، فكم من مرة ابدى سليمان استغرابه فيما يشغل وديع نفسه به من هذا التتبع ذلك لأن الاصالة الأدبية كانت تنقص سليمان لكي يتبين بها قيمة هذا الجهد الذي يبذله وديع ، فكان يكتب لي مستغرباً انشغال وديع بالاحذية متجاهلاً محنة فلسطين وما يهم المجتمع العربي والاسلامي ، ولست ادري من هذا الذي قال له ان وديع فلسطين لم يهتم بما يهتم به المجتمع العربي وحتى الاسلامي ؟ وحسبنا من وديع انه هو الذي قام بترجمة كتاب المحامي هنري كتن عن فلسطين ، وهو كتاب لم يصدر نظيره في اثبات حق الفلسطينيين ، وما لحق بهم من عذاب ، وتنكيل ، وتشريد من حيث القوانين الدولية المرعية ، والحقوق الشرعية التي تأخذ بها الدول اليوم ، وما ضمت الاضابير الرسمية من التشريع الذي يخص القضية الفلسطينية ، وهو كتاب ظل وسيظل وحده المصدر الأول والاخير في ثبوت الحق الفلسطيني من الوجهة القانونية الدولية ، وقد طبع من الكتاب بالانكليزية مليون نسخة نفدت كلها على ماعلمت،ولا ادري كم طبع من هذه النسخة ، التي قام بترجمتها وديع فلسطين الى العربية ونفدت كلها هي الأخرى وكيف فات الدكتور سليمان داود الثناء العاطر الذي كيل لوديع فلسطين من لدن الصحافة العربية . واهل القانون ، من المحامين ، ورجال السياسة ؟ ولكن سليمان يكتب لي قائلا :

« اما وديع فلسطين فلا مكاتبة بيننا منذ يوم طلب ان اتوقف عن الكتابة اليه ليتيسر له الدخول في (مواضيع الاحذية) ـ وانا لا اعتقد بان وديعا قد كتب له مثل هذا بسبب انشغاله بمواضيع الأحذية ؟ وانما كانت هناك امور اعرفها انا وليس هذا وقت الحديث عنها ـ ويردف سليمان قائلا « وفه في خلقه شؤون ، ويقولون في سوريا (الناس بالناس والقطة بالنفاس) وان اسرائيل تحتل بلادنا ، وتصلب الفلسطينيين وهمنا هو الاحذية والصرامي . . . » .

وفي رسالة اخرى يقول عن انقطاع رسائل وديع عنه ما يلي :

« . . . اما الصديق وديع فلسطين فلم اسمع منه منذ يوم غادر ليبيا وبلغ القاهرة ، وربما (مواضيع الاحذية) تأكل كل اوقاته !! » .

- ٥ -

والدكتور سليمان داود كثير التفقد لاصدقائه ، شديد الاهتمام بهم، وعلى رغم انقطاع مكاتيب جورج صيدح عنه فانه ظل يكتب له ، وظل يسأل عنه بلهفة ، وحين علم بشكواي من (النقرس) كتب لي يطلب مني كتابة اسم هذا المرض باللاتينية لانه لا يعرف اسماء الامراض بالعربية ، ولم يكتف حتى عرف مني اسمه وكتب لي وصفة خاصة باعتبار ان النقرس يدخل في ضمن اختصاصه ، وهو في مثل هذه العاطفة ، عاطفة الاهتمام باصدقائه مثالي ، قليل النظير ،

كان يشكو في السنوات الاخيرة من اضطراب في دقات القلب ، وقد اكد له الاطباء المتخصصون انها من العوارض البسيطة التي لا تتطلب كثير اهتمام بها ، ومع ذلك فقد كان يرى ان حينه قد حان ، لا سيما وقد اشرف على التسعين ، ويلمس القارىء احساسه هنا في توديعه لاهل بيته ، واخوانه، وداره ، ومزرعته ، في احدى قصائده التي يقول فيها :

ميمونة انت دار الروح والولد ... لا زلت محفوفة بالانس والرغد
لا زال نورك وهاجا ومؤتلقا ... والزرع ، والضرع ، في بحبوحة السند
يحميك ربي يا داري ، ويا فرحي ... وساكن الدار من ضلعي ومن عضدي
شيدت اضلاعك الغراء من عرقي ... فانت صيّب احشائي وغرس يدي
فظللي الدهر يا داري ويا أملي ... قطينك الشم من روحي ومن كبدي
وعندما ينتهي في ذي الدنى عملي ... وينضب الزيت من عظمي ومن غددي
اطوي شراعي وفي ثغري ابتسامته ... واقصد الربع في ذيالك البلد
حيث الاحبة واشوقي لرؤيتهم ... في ندوة الخلد والاملاك والصمد
ارضعت علم خلود الروح من قدم ... هذا رجائي وايماني ومعتقدي
هذي الوثيقة اطويها بحجرتها ... وديعة الله والانسان والصمد

وتوفي سليمان داود في اثناء القاء كلمة ترحيبية في حفل اقيم لزائر من لبنان مرّ بهيوستن ، وكان ذلك في اول ديسمبر من سنة ١٩٧٧ ، وقد شق عليّ ، نعيه ، واقلقني الخبر وقمت الى اضبارة رسائله استعرض منها بعض الذي يخصني وانا شاخص الى احدى صوره المهداة الي والدموع تتساقط من عيني عليها ، رحمه الله ، واثابه على حسناته ، ونور ضريحه .

الصافي ،والمؤلف في بيروت وقد بعث لي الصافي بهذه الصورة الى بغداد بتاريخ ١٦ شباط ١٩٥٧ وتحتها هذان البيتان :

انظر لرسمي واذكر به عهود التلاقي
لو فاه يوماً لأبدى اليك فرط اشتياقي

كيف عرفت احمد الصافي النجفي

١٨٩٧ - ١٩٧٧

- ١ -

آل الصافي من السادة العلويين الذين يرجع تاريخ وجودهم في العراق الى القرن الرابع الهجري وقد نزلوا في نواح متعددة من العراق ، شأنهم شأن آبائهم وأعمامهم من العلويين الذين كان يطاردهم الامويون والعباسيون وينكلون بهم ويذيقونهم الوانا من العذاب الذي نقرأ بعضه في كتب التاريخ وعلى الاخص (مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الاصفهاني)، فكان الكثير منهم يختفي بين القبائل ويغير اسمه ، ونسبه ، حتى اندس بعضهم بين القبائل المسيحية ، وتظاهروا بالمسيحية تسترا على هويتهم ، ومن هؤلاء الذين عرفنا ابناءهم اخيرا بلبنان كان امين نخلة الشاعر وكان منهم الشهابيون ، وبديع هاشم ، بكفرشيما، وهم مسيحيون انحدروا من سلالة هاشمية وتظاهر آباؤهم بالتنصر خوفا من البطش . وبيت الحسيني هم الاخرون هاشميون علويون طارد اجدادهم الامويون والعباسيون فلاذوا بالقبائل المسيحية متسترين كما لو كانوا مسيحيين حقيقة وما لبث اولادهم واحفادهم ان انجرفوا بتيارات البيئة واصبحوا مسيحيين ، ومن هؤلاء اليوم ادوارد الحسيني ، وخوزية الحسيني ، وملحم الحسيني، وهم من وجوه (برج البراجنة) ببيروت وكبار ملاكيها اما كثافة الحسينيين في السكن في لبنان فهي في الكسروان .

وحين ضعفت الدولة العباسية وأمن البعض من بطشها ظهر الكثير من العلويين في نواح كثيرة من العراق وكان من هؤلاء العلويين رهط قد استوطنوا مواطن

قبائل الخزرج التي صاحبت الامام علي (ع) من الحجاز الى العراق واشتركت معه في حرب صفين ، وذلك لموالاة هذه القبائل للعلويين وتعلقهم بهم ، ومن هؤلاء العلويين كان السادة من اجداد آل الصافي على ما ورد في التواتر ، ويعتبر (الدجيل) و(بلد) ثم (الكاظمين) بعد ذلك الموطن الاول للخزرج في العراق .

واول ما ظهر لهذه الاسرة من العلويين من آل الصافي وجود من حيث كثافة السكان ظهر في الجبيلة قرب البصرة ثم في الجانب الجنوبي من شط العرب والمحمرة والدورق وكانوا يعرفون بالسادة (البوشوكة) ثم نزح منهم قسم الى مناطق العمارة وعلي الغربي وعرفوا بعد ذلك بالسادة (البخات) ويغلب على الظن ان المقصود (بالبخات) هم اهل البخت ، وهي صفة كانت القبائل ولا تزال تطلقها على خيار الاسر من المشاهير بالصلاح ، فاذا ارادوا ان يمتدحوا أحداً قالوا انه من اصحاب (البخت) .

وكان (للبخات) العلويين قطعان من الغنم والجاموس لذلك كانت مواطنهم بالقرب من (الأهوار) وعلى ضفاف نهر دجلة وقد هاجر منهم الى الفرات رهط وامتلكوا بساتين في جهة (الحيرة) ونزل بعضهم النجف بقصد التفقه في الشريعة وكان من اولئك العالم الروحاني الشهير السيد عبد العزيز الصافي وهو الجد السادس للشاعر الكبير احمد الصافي ، والذي ورث علمه غير واحد من آل الصافي .

ووعيت انا والروابط تشد اسرتي بآل الصافي شدا محكما ، ومن اسرتي هذه ابي الذي توثقت بينه وبين السيد محمد رضا الصافي اواصر الصداقة ، والسيد محمد رضا هو عميد اسرة آل الصافي ، وهو الأخ الاكبر لاحمد الصافي ووالد الدكتور علي الصافي وكان يجلس للناس فيحضر ديوانه طبقة من اهل العلم والأدب ، وتكثر في ديوانه المناقشات العلمية والشعرية ، فقد كان السيد محمد رضا وان لم نسمع من شعره الا القليل ـ اديبا شاعرا ووجها من وجوه اهل العلم وكان له الفضل في نشأة اخويه العالم المجتهد السيد محمد امين الصافي والشاعر الكبير احمد الصافي اللذين نشآ في هذا الديوان وتحت رعاية اخيهما الكبير واحتكا بحضار ديوانه من اهل العلم والادب .

ومن مزايا السيد محمد رضا الى جانب فضله انه كان كثير الاناقة بهندامه ولباسه فكان يلبس اجود انواع (الجوخ) « الفاصونة » وكان الجيد منها في ذلك اليوم يسمى (بالتريكو) ، وحتى الآن وانا لا أدري سبب هذه التسمية ، وانما اعرف انها من الأقمشة الغالية وكان يلبس (الجواريب) يوم كان لا يلبسها في النجف الا القليل من العلماء والوجهاء ، وكان يخضب فلم يدع لاحد ان يرى شعرة واحدة بيضاء في وجهه لمبالغته في الأناقة وانا متأكد من ان ديوانه هو الآخر كان من انظف الدواوين في النجف واكثرها اناقة على ما هو عليه من البساطة ولقد تأثر بنظافة السيد محمد رضا واناقته اخوه العالم السيد محمد امين الصافي لحد ما ولم ادر لماذا لم يتأثر بها اخوه احمد الصافي ولو ببعض الشيء .

ولقد ولجت انا هذا الديوان كثيرا ولكني لم الازمه ورأيت بنفسي ما كان له من تأثير في عالم المناقشات العلمية والادبية بين حضاره وفي مقدمتهم كان المجتهد الكبير والعالم السياسي الاديب الشيخ عبد الكريم الجزائري واخوه الشيخ محمد جواد الجزائري اللذان كانا يلازمان حضور ديوان السيد محمد رضاويوفّقان في الجمع بين ديوانهما العامر الذي يجلسان فيه للناس صباحا وليلا وهذا الديوان اعني ديوان الصافي لم يكن مقتصرا على المناقشات والمجاملات ، وانما كان احد وسائل بث الروح الوطنية في الصميم في ايام الاحتلال البريطاني في العراق ، اذ كان السيد محمد رضا احد اقطاب الثورة العراقية الكبرى ومن مفجريها ، فلقد التقى السيد محمد رضا بالسيد علوان الياسري في (ابو صخير) ولآل الصافي بساتين هناك يتعهدونها بين فترة واخرى ووجد الصافي السيد علوان الياسري هائجا وفي حالة لا توصف من الغليان بسبب الاهانة اللاحقة به او بأحد الوجوه من لدن الحاكم الانكليزي ، فاذا اغتفرت هذه الاهانة من قبل البعض من رؤساء القبائل فمن الصعب ان تغتفر عند العلويين لا سيما وقد اعتاد الناس يومذاك ان يقبّلوا ايديهم ويأخذوا بعض القطع من أسمالهم وعمائمهم واحزمتهم فيحلقوا بها معاصمهم كما لو كانت اسورة او يقلدوا بها اعناقهم كما لو كانت قلادة وذلك بقصد الشفاء من الأمراض او بقصد التبرك ، وقد يطلبون من السيّد العلوي ان يبصق على جروحهم ويسمي العوام تلك الخرق . . . والاسمال التي يأخذونها من العمائم (بالعلك) بالكاف الفارسية .

أجل لقد التقى السيد محمد رضا بالسيد علوان وهو في مثل ذلك الهياج فأتفق معه على ان يسعيا لبث فكرة القيام بالثورة هذا في العشائر ، وذاك اي الصافي في مدينة النجف وكان ان اصبح السيد محمد رضا الصافي من اصحاب المشورة والساعين في الدعوة الى الثورة في وجه الانكليز ومن اوائل طلاب الاستقلال ، وقد ربط مسعاه هذا بمسعى الشيخ عبد الكريم الجزائري ومسعى الشيخ عبد الرضا الشيخ راضي وغيرهم الذين غذوا الثورة العراقية وجعلوا من بيوتهم مراكز لاجتماع رجال القبائل في الفرات وحين انتهت الثورة كان السيد محمد رضا من اوائل من قبض عليه الانكليز وزج في السجن ، واضطهد ، وظهر إباؤه للضيم كعلوي جليا في تعاليه عند التحقيق معه ، وله ابيات من الشعر طارت من السجن واستقرت في اذهان الذين كانوا يسألون عنه وعن مصيره ، وقد خمّسها اخوه احمد الصافي فجاءت على هذه الصورة بعد التخميس :

اننا في سوى العلى ما رغبنا نملأ الكون رهبة ان غضبنا
ما جزعنا للسجن يوم غلبنا ان من رام مثل ما قد طلبنا
(لا يبالي ان سيق للسجن سوقا)

نحن قوم عن العلى ما قصرنا حيثما دار كوكب العزّ درنا
واذا جار حادث الدهر جرنا رخصت عندنا النفوس فثرنا
(نطلب العز والعلى لا لنبقى)

قد خلقنا دون الورى احرارا وامتلكنا التيجان والامصارا
وجعلنا لنا المعالي شعارا ولقد سامنا العدو احتقارا
(فرآنا نستبق الموت سبقا)

ان ذلي موتي ، وعزي حياتي ما انثنت للعدو يوما قناتي
انا فرع من دوحة المكرمات انا من اسرة كرام اباة
(لا يرون الحياة في الذل ابقى)

انا لما اسرت لم ابد ضعفا لا ولم ارج من عدوي عطفا
ولقد قلت والردى بي حفا شرع ان يكون موتي حتفا
(او اراني يكون موتي شنقا)

والاشتغال في السياسة كان عند المراجع الدينية الكبرى مألوفا وقد عرفنا في العصور الاخيرة من المراجع الدينية الكبرى : الميرزا حسن الشيرازي بسامراء والحاج ميرزا حسين الخليلي الذي افتى بوجوب قيام المشروطة هو والشيخ ملا كاظم الخراساني (الأخوند) والميرزا محمد تقي الشيرازي وشيخ الشريعة الاصفهاني .

وعرفنا من كبار رجال العلم والاجتهاد الشيخ مهدي الخالصي والشيخ عبد الكريم الجزائري والسيد محمد علي هبة الدين ومن وجوه الطبقة الروحانية السيد (ابو القاسم الكاشاني) والشيخ جواد الجواهري والسيد محمد علي بحر العلوم والسيد محمد الصدر والشيخ عبد الرضا الشيخ راضي ومحمد رضا الشبيبي والسيد سعيد كمال الدين وغيرهم ولكننا لم نعرف احدا من وجوه الروحانيين من استساغ قيام الاحزاب في العراق والانتساب لها غير السيد محمد رضا الصافي الذي انتسب لحزب (الأخاء الوطني) وصار في النجف مرجعا لاعضاء هذا الحزب في جميع انحاء الفرات الاوسط في المشورة ، وغير الشيخ محمد رضا الشبيبي الذي كان من اعمدة الحزب ورؤ سائه .

وكان لي غير صلتي بالسيد محمد رضا الصافي والسيد محمد امين الصافي ارتباط صداقة قد تفوق ـ بل تفوق حدود الاخاء ـ بأحمد الصافي ، وبالسيد نعمة الصافي وبالسيد عبد الوهاب الصافي ، وكان بيت السيد نعمة مجاورا لبيت عمي الميرزا كاظم الخليلي لذلك كان السيد نعمة ملازما لديوانه لا ينقطع عنه في كل ليلة ، وكانت بيني وبينه مساجلات شعرية ومفاكهات ادبية .

ولقد قيل ان صداقة الاباء يرثها الابناء لذلك لا غرابة ان ورث ابناء الصافي محبة ابائهم لي والطافهم بي ، وتفقدهم اياي ، وفي طليعة هؤلاء كان الدكتور علي الصافي وعزيز الصافي وحسين الصافي ، والسيد موسى الصافي ، ويحيى الصافي ، واولاد السيد نعمة الصافي وانا معتز بهذه المحبة .

٢ ـ

ولقد سبقني بصداقة احمد الصافي اخي عباس الخليلي ، وكان احمد الصافي اقرب جميع الاصدقاء بل وحتى الارحام الى اخي عباس ، فكنت ارى الصافي في بيتنا وأراه في مدرستنا (مدرسة آل الخليلي) في غرفة اخي عباس ، وبلغ من امر هذه

الصداقة ان اخذ احمد الصافي من مدخر اخيه السيد محمد رضا ودون علم اخيه مبلغا من الليرات العثمانية وقدمه الى اخي حين تورط اخي في شراء محتويات سفينة جاءت من البصرة الى الكوفة محملة بالأقمشة ، وكانت اول سفينة تقدم من البصرة عقب احتلال الانكليز لبغداد .

وكان اخي عباس قد استعان بأختي فأخذ ما كان لديها من الليرات الذهبية ثم قصر هذا المبلغ فأتمه له أحمد الصافي من مدخر اخيه وقد استأجر اخي لنفسه محلا في الخان الواقع بسوق البزازين في النجف ليعمل في تجارة الاقمشة الى جانب مواصلته للدرس .

وحين اختفى اخي بسبب ثورة النجف في سنة ١٩١٨ كما هو مذكور في الجزء الرابع من (هكذا عرفتهم) في عرضي لكيفية معرفتي لأخي عباس ، وهو لم يكن قد باشر بعد هذه التجارة اوصى اخي عمنا الميرزا كاظم الخليلي الذي كان قد اسرع فنقل القماش كله من الخان الى بيته وملأ به السراديب خوفا من مصادرة سلطة الاحتلال له لقد اوصى اخي وهو في مخبئه بتسليم كل هذه الأقمشة الى احمد الصافي ، كما اوصى اباه بأن يفتح للصافي غرفته في المدرسة ويسلمه كل ما فيها حتى السجادة وحين سئل اخي عما ينبغي ان يحتفظ به من هذه الأقمشة والكتب للدائنين الاخرين ومنهم اخته ، قال هذا ليس من شأنكم ، انما يجب ان تسلموا كل ما يخصني انا لأحمد الصافي ، وقد فعل ابي وعمي ذلك والحصار ـ حصار الانكليز للنجف ـ لا يزال مضروبا على المدينة واخي لا يزال في مخبئه .

وعند انحسار الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠ خاف الصافي على نفسه كما خاف سعد صالح، والسيد محمد علي كمال الدين ففر الصافي الى ايران وفرّ سعد صالح والسيد محمد علي الى الكويت وحين أمنا عادا الى العراق ، اما الصافي فاتجه الى طهران وقصد رأسا منزل اخي عباس واقام عنده شهوراً كأخوين أكثر مما كانا يعيشان في النجف ، واستطاع اخي ان يحصل له على غرفة في مدرسة (مرو) وكان من الصعب الحصول على هذه الغرفة ما دام فيها مخصصات تدفع ـ للطالب الذي يسكن فيها ، وقد سكن فيها اخي مدة طويلة حين قدم طهران هاربا ، وافاد من هذه

المخصصات الشهرية ، وكان الصافي يجدّ في تعلم اللغة الفارسية وقد ساقه الى ذلك عاملان عامل السكن والاستيطان وعامل الادب لما بين العربية والفارسية من وشائج وصلات ادبية عميقة لا سيما وقد قرأ الصافي الكثير من القطع الشعرية والنصوص التي كانت قد ترجمت من الفارسية الى العربية وشغف بترجمة البستاني لرباعيات الخيام التي نقلها وديع البستاني من الانكليزية (لفيتزجيرالد)وهي ترجمة رائعة بالرغم من ان الترجمة لم تجيء عن الاصل وانما نقلت من لغة الى اخرى ومن هذه الى لغة ثانية ، ومن المؤسف ان وديع البستاني لم يترجم من الخيام الا سبعين رباعية ، وكم كان جميلا لو كان قد أتمّ هذه الرباعيات التي تجاوزت المئتين في تحقيق المستشرق الالماني (نولدكه) والا فهي اكثر من ثلاثمائة رباعية، وجمع البعض الرباعيات المنسوبة للخيام فبلغت أكثر من اربعمائة رباعية .

وكان بين اخي وبين الحاج (امين الضرب) وهو رجل من كبار رجال المال والادب وكان يعهد الى ابيه واليه من بعد ابيه بضرب سكة النقود فسمي (بأمين الضرب) وكان بيته مفتوحا للضيوف من اهل الفضل يقيمون فيه شهوراً مكرمين .

وفي هذا البيت وفي عهد والد الحاج (امين الضرب) نزل السيد جمال الدين الافغاني ضيفا ، وحينما اقتضى سفره على حين بغتة عندما احس بمداهمة الخطر حمل ما خف وزنه من اثاثه وحاجاته وترك ما ثقل حمله كأمانة في بيت (امين الضرب) ومن بعض ما ترك كان صندوقا مليئا بالكتب والاوراق والرسائل ، ومنذ عهد قريب وفي هذه السنوات الأخيرة رأى ابن (امين الضرب) وهو استاذ بجامعة طهران ان يفتح هذا الصندوق ويرى ما فيه ، وكان من نتائج ذلك ان اخرج هذا الاستاذ طائفة مما في صندوق السيد جمال الدين الأفغاني وصنّفه وقامت جامعة طهران بطبعه ، ومن الأسف ان وافق هذا زمن الفتور الحاصل بين سياسة الحكومة العراقية والايرانية ، فانقطعت عني فيها الصحف الايرانية والمجلات والكتب التي كانت تهديها لى جامعة طهران ومؤسسة (بنياد بهلوي) في بعض الاحيان وقد حرمت من الاطلاع على كثير من الكتب ومن جملتها هذا الكتاب الذي لا شك في اهميته ، كما انني نسيت اسم الحاج (امين الضرب) ووالده وحفيده الدكتور الذي قام بنشر هذا الكتاب الذي ارى من الوجوب ترجمته الى العربية ولما كانت هذه الاستعراضات التي اقوم بنشرها في

سلسلة كتابي (هكذا عرفتهم) وهي صفحات مما احتفظت بها الذاكرة ، لذلك لم اكلف نفسي البحث والاستقصاء عن الكتاب والا لما صعبت عليّ معرفة اسم (امين الضرب) واسم ابيه وحفيده الدكتور لو تقصيت ذلك .

وطلب (امين الضرب) من اخي عباس ان يرشح له استاذا يقوم بتدريس ابنه اداب اللغة العربية فلم يجد اجدر من احمد الصافي لا سيما وقد ـ الم الصافي باللغة الفارسية،واستجاب احمد الصافي لهذه الدعوة ولا سيما لشخص مثل امين الضرب المعروف بتقديره واحترامه لاهل العلم والفضل والادب ، ولا اعلم أكان هذا الذي تولى الصافي تدريسه الادب العربي وتهذيبه هو الاستاذ الجامعي المعروف الذي اخرج هذه النفائس مما ترك الافغاني ام انه احد اخوته الاخرين اذا كان له اخوة ؟

والذي يدخل من امثال الصافي بيت (امين الضرب) وخاصة من الذين لا يملكون بيتا فمن المستحيل ان يتركهم (امين الضرب) ان يقيموا في بيت اخر غير بيته .

وبيت (امين الضرب) بيت واسع بطهران وفيه من الغرف الخاصة بضيوفه ما يكفي ، فضلا عن ديوانه العامر بكبار رجال السياسة والعلماء والشعراء ووجوه البلد يلتقون في كل مساء فيه فيعمر بهم مجلسه .

وفي هذا البيت الذي حتّم (امين الضرب) اقامة الصافي فيه التقى الصافي بالكثير من هذه الطبقات فعرف الجميع له فضله وصاروا يشيرون اليه في كل مناسبة ولا سيما حتى يجيء ذكر الادب ، وحين تم له ان يترجم(رباعيات الخيام) التي كان من اشد المعجبين بهذه الترجمة (بهار) وهو الشاعر الذي احتل في الفارسية منزلة (شوقي) في العربية ، وكان العلامة الكبير السيد محمد القزويني الذي درس عليه الدكتور مصطفى جواد بباريس ايام دراساته العليا في (السوربون) في مقدمة المعجبين بهذه الترجمة ؛ ولإعجاب القزويني هذا قيمة جد كبيرة في عالم الادب بصفته احد العلماء المتضلعين باللغة العربية وآدابها فضلا عن تضلعه باللغة الفارسية والفرنسية وكان من نتيجة هذا الاعجاب بترجمة الصافي لرباعيات الخيام ان تولى السيد القزويني تقديم هذه الترجمة بقلمه .

وكان الصافي يقضي بعد هذا جل اوقاته في بيت اخي بطهران فينتشيان بذكر ايامهما في النجف ، وحدثت بينهما جفوة بسبب من سوء التفاهم كما عبر عنها الصافي في مقطوعة شعرية ثبتت في احد دواوينه ولم يعرف احد ان المقصود بها اخي ولا اعلم ما اذا كان اخي قد علم بأن هذه المقطوعة تخصه وذلك لانعدام الاشارة اليه ، ولم يعلم بها احد غيري وقد جاءتني هذه المعرفة من الصافي نفسه وتجنبت انا ذكرها لاخي حتى لقد سألني الصافي في اواخر ايامه عما اذا كان اخي عباس قد علم بأنه هو المقصود في هذه المقطوعة فأجبته بالنفي اذ كثيرا ما كان يجيء ذكر الصافي وانا بطهران فلم اجد اخي يتطرق الى شيء من هذا ويبدو ان الصافي كان قد ندم بعد ذلك ، اما السبب في هذه الجفوة كما رواه الصافي ان اخي قد اصاب ثروة بطهران واحسست ذات يوم بشيء من تعاليه ونحن في نقاش وانا ـ يقول الصافي ـ مرهف الحس رقيق الشعور ، لذلك احسست بشيء من تعاليه بسبب ثروته وخرجت من بيته فلم اعد اليه ولم يسأل هو عني ، وكان ذلك في اواخر اقامتي بطهران كما قال الصافي .

وقد اوردت انا المقطوعة في استعراضي لجانب من عرضي لحياة اخي في الجزء الرابع من (هكذا عرفتهم) ومع ذلك فلا بأس ان اورد بعض ابياتها هنا: يقول الصافي وقد عنون مقطوعته (بالصديق المثري) :

فكم قضيّت دهرا مع صديقي ... يظللنا لشقوتنا الهناء
توفّق للغنى فأزورّ عني ... وبدّل بالجفا منه الأخاء
لذاك نأيت عنه وفي فؤادي ... بقايا الود يطردها الجفاء
وذكرى الود لا زالت بقلبي ... لدى الايام يحفظها الوفاء
وابكي كلما ارنو اليها ... ويسبقها ـ متى ترني ـ البكاء
وارثي بالقريض قديم حبي ... لو ان الميت يرجعه الرثاء
ادام الله اصحابي بفقر ... مخافة ان يفرقنا الثراء

ويوم ذكر لي الصافي انه يقصد بهذه الابيات اخي عباسا نفيت عن اخي حسبما اعرف انا عنه ويعرف عارفوه ان يكن للمال عنده قيمة فسكت الصافي ولم يرد علي لذلك لا يبعد ان يكون للوهم اثره في هذه الجفوة سواء كان هذا الوهم قد داخل ذهن اخي او

داخل ذهن الصافي او داخل ذهن كليهما معا وهذا الأخير ارجح ، والا لماذا لم يسأل اخي عن الصافي بعد انقطاعه ؟ واشهد ان اخي كان يسألني مرات في رسائله ويسألني عنه عند زيارتي له بطهران ويحن اليه .

لقد كنت الصديق المقرب من احد شعرائنا الذين تحتم عليّ اغفال ذكر اسمه هنا يوم كنا صبيانا نلعب في الازقة ويوم كنا طلابا في مدرسة واحدة ، ثم شببنا وصرنا نعقد المجالس في بيوتنا ولا ينفك احدنا عن الاخر وكم كان شاقا عليّ يوم اصابت هذه الصداقة اول صدمة حين وقع شيء من سوء التفاهم بين الصافي وهذا الصديق الأثير ، وكان لهذا الاختلاف اثره في نفسي ، ، وقد والله نسيت هذا الصديق الأثير وصداقته الى حين بسبب اختلافه مع الصافي وكان ذلك بعد ان هرب اخي عباس من النجف وقبل قيام ثورة العراق الكبرى اي قبل نزوح الصافي من العراق الى ايران فكانت من كل هذه المشاعر والاحاسيس والمقدمات عوامل ربطتني بالصافي وشدتني اليه وقربتني منه حين عاد من طهران الى النجف سنة ١٩٢٧ بعد ان ـ قضى الصافي سبع سنوات بطهران ، فكنت من أكثر ملازميه اتصالا به ، ومحبة له واعجابا ببراعته ، وافكاره ، وشدة ابائه وبروحه الخفيفة المتجلية في شعره .

وكان اكثر ملتقانا مساءً في الصحن الشريف حيث يتحلق حوله المعجبون به فينشدنا شيئا من شعره الذي نظمه في طهران واكثر ما كان ينشدنا من ترجمته لرباعيات الخيام فيأتي بالاصل لمن يعرف الفارسية ثم يأتي بترجمته له ، وما لبث ان انضم الى حلقتنا هذه عدد من الادباء وصارت هذه الحلقة تتسع وصار يعيد علينا الترجمة بطلب ممن لم يسبق له ان سمعها ، ويومذاك كان (الجداول) ديوان ايليا ابي ماضي قد طبع ونفد قبل ان تصل منه نسخة الى العراق وكنت قد كتبت للدكتور محمد حسين هيكل الذي كان يشرف على تحرير صحيفة السياسة الاسبوعية والتي كانت جريدته تصل الي بأنتظام ولها علي حق لن انساه في تعرفي بالكثير من ائمة الادب واتساع دائرة الفكر عندي ، لقد كتبت له ارجو مسعاه في ان يكلف من يعتمده بالحصول على نسخة من (الجداول) اذ كنت شغوفا بشعر هذا الشاعر الذي دلتني عليه مخلفات اخي من الصحف والمجلات التي تركها في بيتنا والتي كنت اطالعها بشوق ولذة .

وجاءتني هذه النسخة من مصر وقبل ان اتلوها خطفها مني الصافي فقد كان هو الاخر شديد الاعجاب بأبي ماضي وظل اعجابه به يزداد حتى النهاية ، وظل الصافي يستمهلني في اعادة النسخة ولعله قرأ هذا الديوان غير مرة وحين اعاده اليّ قال انه قد دفع به لاحد اصدقائه ليستنسخ له نسخة منه وقد فعل !! ثم حين كان الصافي في سوريا صارت له بأيليا ابي ماضي صلات ومراسلات وايليا عند الصافي ليس اشعر شعراء المهجر بل هو اشعر شعراء العرب في عصره ، وانا معه على هذا الرأي .

وحين اصدرت (جريدة الفجر الصادق) في النجف نشرت قسما من ترجمة الصافي لرباعيات الخيام التي لم تكن قد نشرت بعد ، وعلقت عليها وانا اقدمها للقراء واشرت في تعليقي هذا الى قيمة ترجمة وديع البستاني لها وكونها ترجمة مفعمة بالبراعة والابداع الفني الادبي مما قد يرمز الى تفضيل ترجمة البستاني فأغاظ الصافي ذلك وعاتبني على ما رأيت من رأي ولكن مثل هذا الغيظ بيني وبين الصافي لا يزيد على غفوة وانتباهة فهو يعرف حبي له وانا اعرف حبه لي وقد كتبت له مرة وهو بلبنان حين علمت بأنه بالغ في انزوائه عن الناس وهجر مجالسه من المقاهي التي كان يلتقي فيها ، لقد كتبت اليه على هذه المبالغة في الابتعاد عن الناس فجاء في احدى رسائله الكثيرة التي تعبر عن مكانتي عنده يقول :

« . . . . . واصارحك كما صارحتني ولا اعلم هل انك تعلم بمدى حبي للانزواء ؟ وهل تعلم انك الشخص الوحيد الذي استطاع ان يخرجني من زاويتي وما ذلك الا لشدة انسجام روحي مع روحك ولو سألت روحك لعلمت أني لو بقيت الدهر معك لما مللت ، بل كنت ازداد سرورا وتعلقا بك . . . . . » .

لقد قضى ثلاث سنوات في العراق بعد عودته من طهران وكان يقضيها بين النجف وبغداد واكثر ملتقاه كان عند عبد الحميد زاهد صاحب المكتبة الوطنية التي كانت يومذاك بشارع المتنبي وحين عاد من طهران كان في صحة جيدة ثم ظهرت عليه بعد مدة آثار من اعراض المعدة وآثار من التهابات الرئة رجح له الطبيب السفر الى سوريا لقضاء مدة للاستشفاء ، ودعاه هنالك داع اخر للسفر وهو البحث عمن يقوم له بطبع رباعيات الخيام بعد ان لم يجد في العراق من يتصدى الى ذلك .

لقد كان سفره في سنة ١٩٣٠ وكان كل امله ان يعود متى تحسنت صحته وتم له

طبع الرباعيات وهكذا انتقل وترك انتقاله في نفسي فراغا كبيرا بالرغم من مواصلة الرسائل بيني وبينه .

- ٤ -

وما لبث قليلا في الشام حتى تعرف به الشعراء والكتاب واصحاب الصحف وكان في مقدمة اولئك يوسف العيسى صاحب جريدة الفباء الدمشقية الذي شدته بالصافي صداقة دامت طوال حياة(العيسى) وانا الاخر كنت قد تعرفت بيوسف العيسى وكانت جريدته تصل الي منذ العشرينات واذكر انه حين نفى رضا شاه الكبير اخي عباسا من ايران الى العراق كتبت (الفباء) تستغرب هذا النفي بأعتبار ان اخي كان من المقربين للشاه فكيف تم نفيه ؟ ثم انهت تلك الكلمة بهذا البيت من الشعر الذي لا اعرف صاحبه وقالت :

تلك السياسة ما في الامر من عجب تهوى التقلب اشكالا والوانـا

وهنا كان الصافي قد نزع العمامة ولبس الكوفية البيضاء والعقال الاسود وصار بالامكان ان تتبينه من بعيد بين اهل الطرابيش وحتى بين البدو لقامته الطويلة ونحافته ومشيته الخاصة .

وبدأت الصحف تنشر له شعره ، وحصل هناك من عرف قدر رباعياته فقام بنشرها ولم يحصل الصافي من ريعها الا القليل الذي استعان به في معيشته وما معيشته اليومية الا رغيف من الخبز وبيضة دجاجة او شيء من الحمص المسلوق وطبعت للصافي عدة دواوين وبلغ المطبوع منها عشرة وان لديه مجموعة كبيرة غير مطبوعة فلم يكن حظه منها بأكثر من حظه من (رباعيات الخيام) التي نفدت وحين عز الحصول عليها قام السيد قاسم محمد الرجب صاحب مكتبة المثنى ببغداد بطبعها . . . بالأوفسيت في طهران على غير دراية واستئذان من الصافي على ما قال لي الصافي ولست ادري ما اذا كان قد سوي الامر بينه وبين الصافي فيما بعد ام لا ، ولا بأس فالصافي في نزعته كثير القناعة ، شديد الاباء غير مبال بشظف حياته وخشونة عيشه وهو صادق كل الصدق اذ يقول :

وسائل مم عيشي ؟ قلت من كتبي فقال لي انت حقا عائش برغـدْ
فليس مثلك شخصاً عاش من كتب فقلت لكن عيشي لم يعشه احد

اما بيته في الشام فقد كان غرفة مهملة في احدى المدارس القديمة كان بينها وبين الغرفة التي سكنها بمدرسة (مرو) بطهران ما بين السماء والارض من الفروق وكان ياوي الى هذه الغرفة ليلا لينام اما في النهار فكانت له مقاه معينة في الشام يقصدها هي مقهى (الكمال) ومقهى (كوكب الشرق) اذا لم يقم بزيارة (الفباء) ويمكث عندها قليلا .

وفي المقهى الذي يقتعده الصافي يحوطه جمع من المعجبين بشعره والذين يأنسون به ويأنس بهم ، وحتى الذين يردون الشام وبيروت بعد ذلك والذين يعرفونه عن بعد وعن طريق الاعجاب بشعره كانوا يسألون عن مواطن جلوسه فاذا عرفوها لازموه فيها واحاطوا به .

وللصافي وضعية خاصة للجلوس أشرت اليها فيما كتبت عنه فاستلفتت هذه الأشارة الكتّاب فتكرر ذكرها وهي ان الصافي لا يكتفي بكرسي واحد من كراسي المقهى اذا جلس ، فهو يحتاج إلى كرسي يجلس فيه وآخر قد يستعين به في مدّ رجله او الأتكاء عليه ، وثالث يضع الصحف التي يحملها اينما ذهب عليه وكرسي آخر إذا شاء ـ ولا سيما في الصيف ـ ان يخص كوفيته وعقاله به ، وهو بعد هذا ينزع حذاءه في الغالب ويرفع رجليه واضعاً قدميه على حافة (الترابيزة) ان لم يمدّ رجليه على الكرسي الأخر ، اما الذين يلتفون حوله فان كل واحد يسحب كرسياً من المقهى ويدنيه اليه حتى تتألف من كل هذا حلقة تتسع في اغلب الأحيان وتضيق احياناً قليلة يجد الصافي في نفسه ميلاً الى السروح في الخيال فيغمض عينيه ولا يفتحهما في الغالب الا ليسجل بيتاً او رباعية استوحاها من تلك الاغفاءة .

ويدعو الكثير من اصدقائه ومحبيه والمعجبين بشعره للحضور في جلسات عامة وخاصة لينشدهم شعره، وفي دعوة خاصة استعد لحضورها عدد من اصدقائه الصحافيين والشعراءأو الأدباء، وكان مرّ وقت والصافي لم يحضر، وارتؤي اخيراً ان يقوم الكاتب الصحافي زهير ماردیني باستقصاء خبره ، وزهير ماردیني كان احد الملازمين للصافي منذ ان كان يقيم الصافي في الشام وحتى بعد انتقال الصافي و(ماردیني)الى بيروت، وبحث زهير ماديني عن الصافي ووجد ان وعكة صحية قد

حالت بين الصافي وحضور الدعوة ولكيلا ينغص زهير الجلسة على الأصحاب هيأ له عباءة كعباءة الصافي وكوفية وعقالاً وصمم ان يتقمص روح الصافي وجسده ، ولا ادري الى اي مدى كان نجاحه وانما الذي ادريه هو انه صعد منصة الخطابة وعلى قدر ما يستطيع مثل الصافي في انشاد بعض قصائده ، وكان التصفيق مزدوجاً، منه ما يتعلق باعجاب القوم بشعر الصافي ، ومنه ما يتعلق بتقمص زهير ماردیني شخصية الصافي . وللصافي نبرات في تلاوة الشعر محبوبة ومغبوطة تزيد الشعر حلاوة، ولذة في الاسماع ولا ادري هل استطاع ابو محمد (زهير ماردیني) ان يجيد تصويرها الصوتي كما اجاد لبس العباءة والعقال والكوفية بالشكل الذي يلبسها الصافي ؟

وفي الشام ظهرت عليه اعراض من امراض كثيرة هدت قواه اهمها كانت الدوسنطاريا التي ظلت اعراضها ترافقه حتى الممات وهناك التهابات في القصبات مزمنة كما انكشف بعد ذلك اثر للسكر في دمه فكان يقضي فصل الصيف في القرى القريبة من دمشق واهمها(مضايا)وكثيرا ما كان عارفوه ومحبوه يدعونه الى مصايفهم فيستجيب الدعوة ولا يقبل ان يقيم طويلا عندهم وكان في سنينه الاولى ملازما لدمشق لا يخرج منها الى جهة اخرى ولكنه صار بعد ذلك يزور بيروت في اوقات معينة ويقضي فيها بعض الوقت ويعود الى دمشق التي كان يحبها كثيرا .

ومن عادتي ان اقضي الصيف في ربوع سوريا ولبنان ومنذ ان سكن الصافي دمشق بدأت اطيل المكث بدمشق اكثر ، واقضي جل الاوقات معه فاذا التقينا لفتنا الانظار الينا بما كنا نطلقه من الضحكات التي كنا نغرق فيها بما كان يرويه لي وما كنت ارويه له انا ثم يقرأ عليَّ ما جدّ عنده من جديد نظمه ودواعيه وكنت انقل منه الى جريدتي (الراعي) يومذاك و(الهاتف) بعدها زيادة على كان يبعث به هو اليّ اما الذي بعث به اليّ وتم نشره في (الراعي) و(الهاتف) بصورة خاصة فهو عبارة عن رباعيات ومثاني ومثلثات كان يطلق عليها اسم (انغام مشوشة) فكنت انشر في كل عدد من الهاتف قطعة او قطعتين ثم صرف نظره عن هذا الاسم واطلق عليها اسم (اشعة ملونة) .

وذاكرني ذات يوم فيما اذا كان بالامكان جمع ما نشر في الهاتف من الرباعيات

وطبعه في مطبعتي بأسم (اشعة ملونة) ؟ على ان يكون الربح بعد استخراج اجور الطبع مناصفة بيننا ؟ فضحكت ، وكان معنى ضحكتي لديه مفهومة ومع ذلك فقد صارحته بأني سأقوم بطبع (اشعته) على نفقتي حين اعود الى العراق ثم اتقدم اليه بجميع النسخ على سبيل الهدية فأبى وابيت انا واصرّ هو واصررت انا وهكذا كان .

وكتب لي يقول (**اما الغاية من ذلك ـ اي الغاية من نشر اشعة ملونة ـ فهي جعل القراء ينظرون الى هذه المقاطع نظرة خاصة تريهم هواجسي وخطراتي التي جاءتني في اوقات مختلفة دون ان يكون لي رأي في خطورها ، ودون ان افكر فيها فهي بنت الخطور لا بنت الفكرة ، وليس لي فضل فيها ان كانت جيدة ولا ملام علي فيها ان كانت رديئة ، فما كنت ازاءها الا كالمسجل لتلك الخطرات الطبيعية ان خيرا فخير وان شرا فشر واليوم اقدم لك شيئا منها على ان ابعث اليك في البريد القادم بقيتها** » .

ثم طلب مني تقديم هذه الاشعة عند الطبع بقلمي فكتبت المقدمة وبعثت بصورة منها اليه فأعجبته كثيرا ورحت اعيد النظر فيما نشرته من انغام مشوشة من قبل وما بعث به الي لأضمه اليها فيما بعد فاستأذنته في تبديل بعض ما رأيت وانا اعلم ان الصافي لا يعنى كثيرا بغير المعنى والصورة وهو والشيخ علي الشرقي سواء في ذلك، والفرق ان علي الشرقي يذعن لمن يورد عليه ما فاته ولكن من الصعب ان يذعن الصافي لمثل هذا ومع ذلك فقد اخذت عليه بعض ما رأيت من قبل قوله (راق لي) عوضا عن (راقني) وجمعه النادي بالنوادي ـ وليس (الأندية) وقوله :

قد قلت لما جاءني بمتسول والفلس اذ ادنو اليه يبعدُ

آخذاً عليه ثبوت (الواو) في (ادنو) ورفع الدال في (يبعد) وغير ذلك مما لا اذكره الان فكتب لي يقول « . . . . **اخي اما ما ذكرته لي بشأن ابقاء التصحيحات كما هي . فهو وان عزّ عليّ نظرا للتصرف في بنات افكاري التي تعلم انت عزتها على والدها مهما كانت دميمة ولكني اغتفر ذلك ازاء ما اتفق به من حبك لي ، واعتقادك بضرورة العملية الجراحية سواء كانت ناجحة ام لا** » .

ثم قال في رسالة اخرى :

« اما تصرفك في قولي (عزّي يغر الناس حتى يحسبوا) فأنا اقبله بكل ترحيب وان كان ابتعد عن السائلين الذين هم موضوع الشعر ، واما حذف نون المفاعلة الموجودة مع نون الوقاية في قولي (تحبيني) - بدلا من تحبينني - وفي قولي (يروني) - بدلا من يرونني - فهو جائز حسب الاصول النحوية التي تستند الى رواية قوله تعالى (اتحاجوني) - بدون تشديد - واتحاجوني - بالتشديد والنحاة يأتون بهذه الاية المختلفة الرواية دليلا على جواز حذف نون الافعال الخمسة اذا اقترنت بنون الوقاية - » وصدق الصافي ان هناك من يجوز هذا الحذف وان كان ذلك موضع مناقشة عند النحويين الذين ذهب بعضهم الى ان (اتحاجوني) بالتشديد هي ان النونين قد دمجتا معا ، وبالاجمال فالحق مع الصافي في ان هناك من جوز هذا - واما قولك - يقول الصافي - (يحوطها) بدلا من (احاطها) فأنا اقبلها شاكرا واما تصحيح (كأنهم - يروني لهم من دون باقي الورى خلا) بقولك (كأنني . . . . . اكون لهم من دون باقي الورى خلا) فلا اوافق عليه ، ولا يقبله ذوقي اصلا - وانا الاخر لا يقبله ذوقي ولكنني حرت كيف اصلح (يروني) من حيث لا اتصرف ببناء البيت على قدر الامكان - واضيف الى ما سلف - يقول الصافي - تصحيح البيت الاتي حسب اعتقادك وهو :

(يبنت جبيل من يقيس (جديدة) يكون كمن قد قابل الناس بالعير)

وجعله هكذا :

(يبنت جبيل من يقابل (جديدة) يكن مثل من قد قابل الناس بالعير)

واحسب ان مثل هذا كثيرا ما كان يجري بيني وبين الصافي كتابةً على البعد وشفاها عن قرب واذا ما تقبل مني البعض مما آخذه عليه فقد كان يتقبله على مضض وكان مما يشفع هذا النقد عنده هو حبي المفرط له واعجابي الشديد بطائفة كبيرة من الأفكار البارعة التي يودعها في شعره .

ومع كل ذلك فقد كان يغالي بي ويعتز برأيي ويقول مثلما كان يقول بعضهم

بأنه اول ما يقرأ من جريدتي كان يقرأ ما كنت اكتبه انا في الجريدة قبل غيري حتى لقد ابدي اسفه يوم انهيت سلسلة(الهندواني) للفصل بين(اليعقوبي والخاقاني)وكان يعدّ هذا الذي كانت تتضمنه هذه السلسلة من التهكم والسخرية ضربا جديدا من ضروب الادب ويوم تناولت ديوانه الامواج بالتقريظ والنقد كتب لي يقول :

« . . . . اخي اعجبتني كلمتك عن (الامواج) جدا ففيها درس وتمحيص والتفات لناحية من شعري قل من تعرض لها ، فأشكرك وقد اطلع عليها بعض الادباء منا فأعجبوا بها . . . . » .

وما دمنا في ذكر صعوبة تقبل الصافي للنقد اذكر ان امين الريحاني الذي اثنى على شعر الصافي حين صدور (التيار) ثناء عاطرا أخذ عليه بعض المآخذ فكان ان كتب له الصافي ما يلي :

« . . . واني لا أشكر حسن ظنكم بما مدحتموه ـ يعني مدح التيار ـ وأعدكم بالسعي لاصلاح ما انتقدتموه، هذا فيما اذا انصاع شيطان شعري لاستماع النصائح الثمينة من استاذ مثلكم فقد عرفته ـ اي شيطان شعره ـ متمرداً لا يخضع لنظام وقاعدة (كذا) وهو اذا استرسل في النظم حسبته محموما يهذي ـ واعد انا هذا تواضعا من الصافي ـ وربما كان في هذيانه شيء مستحسن .

أجل اني اعرف شيطاني متمرداً ولو لم يكن متمرداً لما استطاع ان يفلت من سجن النجف واقفاص التقاليد ، واني لاشكره على خضوعه لقيود الوزن والقافية في اثناء ثورته وهذيانه » .

ولحقت النقمة على تمرد الصافي على التقاليد من لدن بعض الجامدين الى مدينة (بنت جبيل) ومدينة (بنت جبيل) هي اقصى مدن الجنوب من لبنان المجاورة لارض فلسطين والتي نالها اليوم بسبب معارك الجنوب ما نالها من الخراب وتشرد السكان وهي كالنجف لأن معظم علمائها وادبائها قد تخرجوا في مدارس النجف فكما تحمل النجف من الأفكار الحرة ، عند اهل العلم والادب فان هناك طائفة من المتزمتين الجامدين الذين لا يستسيغون حرية الفكر والذين من السهل

عليهم تكفير النابهين والمتحررين عن التقاليد البالية حتى وان بلغ هؤلاء النابهون والمفكرون درجة (الاجتهاد) ، فهم كفار في نظر اولئك الجامدين ، وطالما سقط علماء فحول في الفقه والاصول من اعلى القمم الى الحضيض بكلمة واحدة من اولئك الجامدين المتحجري الأدمغة ، ومن التابعين لهم من العوام ، ولقد لقيت انا نفسي من العنت والأذى ومحاولة الأغتيال ، وحرق مكتبي ، وحرق بيتي ، يوم كنت اصدر جريدة (الفجر الصادق) و(الراعي) و(الهاتف) في النجف ، تلك الصحف التي حاربت فيها ـ وانا يومذاك شاب كثير الحماس ، جرىء الى حد ما ـ التقاليد البالية التي كان من بعض نتائجها ان سقطتُ مضرجا بالدماء امام بيتي ذات ليلة وانا احاول دخول الدار فلم أع الا وانا غارق في بحر من الدم وظللت ملازما للسرير اياما بسبب الجروح .

والحرب بين الجديد والقديم ليس بالامر المستغرب فهو لا يكاد يكون سنة طبيعية رافقت الانسان منذ اوائل تكوين المجتمع وان الغلو ليزيدها اشتعالا والتعصب يزيدها رسوخا والحق ان الجديد لا يستطيع ان يستغني عن القديم ولا القديم بمستغن عن الجديد لو كان في الشرق من يزن الامور بميزان العقل والمنطق وقد سبب هذا التعصب من كلا الطائفتين للشرق متاعب كثيرة ادى الى تأخره عن اللحاق بركب المتقدمين في المدنية .

يقول الشيخ محمد الشريعة العالم الروحاني في الباكستان في صدد عدم استغناء الجديد عن القديم يقول : بأنك ستحتاج الى الشمعة حين ينقطع تيار الكهرباء وستحتاج الى القداحة حين نفاد عيدان الكبريت ، وستبحث عن الحمار في وسط الطريق حين يصيب سيارتك العطل فتقف عن الحركة نهائيا .

وكان الذين درسوا العلم والفقه من اهل بنت (جبيل) على اهل الافكار النيرة في النجف كآل شرارة مثلا ، كانوا متفتحي الذهن ، واقعيين في احكامهم وفي فتاواهم ونهجهم في التفسير بعكس الذين اخذوا علمهم في النجف من اولئك المتزمتين الجامدين الذين اذا اعوزتهم الحجة استعملوا سلاح التكفير واللعن والسخط في كل ما لا يحلو في عيونهم او يخالف نهجهم ، اما الصافي فقد دعي الى

بنت جبيل من لدن المعجبين به بقصد تكريمه ، فهاج في وجهه اولئك المعاكسون الذين يسهل عليهم تكفير المسلمين لا سيما وقد سبقتهم شهرة الصافي وهجاؤه اياهم ومحاربته التقاليد البالية في شعره فقد قال الصافي في هؤلاء المتزمتين الأموات روحا والذين قد يؤلفون نصف سكان النجف قال :

في بلاد الورى حياة ولكن ... في بلادي مظاهر للممات
بعض سكان بلدتي مثل دود ... عائش دائما على الاموات

ومن هذا القبيل قوله :

ان (الغري) بلدة تليق ان ... تسكنها الشيوخ والعجائز
فصادرات بلدتي مشايخ ... وواردات بلدتي جنائز

وله غير هذا مما يثير حفيظة تلك الطبقة ناسين اعتزاز الصافي بالنجف حتى لقد الحق نسبة النجف بأسمه وسمى نفسه (بأحمد الصافي النجفي) وحتى قال في النجف من باب الشفقة عليها :

صدق الذي سماك في وادي طوى ... يا دار بل وادي طوى وعراء
جلست على الانهار بلدان الورى ... فعلام انت جلست في الصحراء ؟

وتذكرني النجفية وقدسيتها بالصافي وقد دعي ذات ليلة لالقاء قطع من شعره في احدى المدارس الاهلية الدينية في منطقة شيعية ساذجة عامية ببيروت فلبى الصافي الدعوة دون ان يعرف شيئاً عن هذه المدرسة وعقلية اهلها وحين قدمه احد الادباء للحاضرين باسم احمد الصافي النجفي ومر اسم النجف على آذان المستمعين علا التكبير وتعالى الهتاف بالصلاة على محمد وآل محمد ، وحين جاء ذكر النجف ، مرة اخرى في التقديم انطلقت الأصوات بالصلاة على محمد مرة اخرى ، ثم قال المقدم : وهذا هو النجفي ينشدكم شعره ، وحين رنت كلمة (النجفي) صاح احد الحاضرين رحم الله من يصلي على محمد وآل محمد ، فدوّت القاعة بالصلوات ثم صاح مرة ثانية قائلاً ، ثانية رحمكم الله ، فعلا الهتاف بصوت أعلى ، وصرخ : ثالثة غفر الله لكم :

ورأى الصافي ان هذه الصلوات والتكبيرات انما تجري لاسم النجف وقدسيتها وليس للشعر الذي يريد ان ينشده ، فان مثل هؤلاء العوام ، إنما يكرمونه فليس لشعره وانما لكونه قد جاء من النجف ، فنزل من المنصة حينذاك وقال : والله يا عكاريت لستم انتم الملومين وانما انا الملوم الذي لبيت دعوتكم قبل ان اعرف هويتكم ومقدار ادراككم الشعر ، قال هذا وخرج .

ويقول التاجر النجفي الحاج مهدي عجينة انني كنت اجلس في دمشق بمقهى الكمال وامامي صباغ احذية والى جانبي بدوي يلبس الكوفية البيضاء والعقال وحين انتهى الصبّاغ من صبغ حذائي سألته كم ينبغي ان ادفع لك ؟ قال عشرة قروش فنسبته للنعال شائما كما اعتاد عوام النجف وقلت له (اي ابن النعال) كل يوم وانا اصبغ بخمسة قروش فلماذا تطلب مني عشرة قروش ؟ واذا بهذا البدوي ـ يقوم فيقبلني في جبيني ويقول : منذ ثلاثين سنة وانا مشتاق لكي اسمع هذه الشتيمة على السن عوام النجف ، وقال هذا وذهب ووجهه يطفح بالبشر وحين سألت عنه قيل انه احمد الصافي النجفي .

وهذا هو الصافي وحبه للنجف ولكن هؤلاء الاغبياء البلداء من بعض المشايخ يأخذون عليه قوله فيهم وهم احق بذلك اذ يقول فيهم وفي غيرهم :

صفعتهموا حتى برى صفعهم يدي ودستهم حتى غدا النعل باليا
ركلتهم دهرا فأصبحت اعرجا والقمتهم نعلي فأصبحت حافيا

لقد هاج هؤلاء في وجهه حين دخل (بنت جبيل) واحدثوا ضجة كبيرة معارضين هذه الدعوة لتكريمه وفي وسط هذا الشغب والصخب حمل فؤاد ـ جرداق احمد الصافي الى بلدة (جديدة مرجعيون) والجديدة هذه بلدة مسيحية صرفة نقيض (بنت جبيل) المسلمة الشيعية فأحتفى به اهل (الجديدة) احتفاءا باهرا وغمروه بعواطفهم ، واقاموا له احتفالا انشد فيه شعراؤهم ابدع قصائدهم في تكريمه واستبقوه ضيفا عزيزا عندهم اياما ، ورأى الصافي في هذه العواطف والتكريم ما سر خاطره وانساه هياج تلك الطائفة التي تغلبت على الفئة الاخرى التي كانت تريد ان تكرم الصافي في بنت جبيل .

وفؤاد جرداق الذي خطف الصافي وجاء به الى بلدة (الجديدة) (جديدة مرجعيون) شاعر فحل وهو اخو الشاعر الاديب جورج جرداق صاحب كتاب (الامام علي) وصاحب قصيدة (هذه ليلتي) التي غنتها ام كلثوم فكرمته ام كلثوم واهدت له(مسجلة) وحيدة من نوعها كانت احدى الشركات اليابانية قد صنعتها خصيصا لام كلثوم ، اما الشركة التي سجلت اغنية (هذه ليلتي) لجورج جرداق فقد كافأته بأربعة الاف ليرة لبنانية على ما بلغني ، وقالت انها مكافأة رمزية والحق انها مكافأة رمزية بالنسبة لتلك القصيدة الرائعة :

وفؤاد جرداق شاعر جرىء له صولات وجولات وطالما هاجم فؤاد بشعره الاستعمار الفرنسي الذي كانت حكومة لبنان تخشاه وتجاريه ولفؤاد جرداق تاريخ ادبي سياسي لست ادري كيف تناساه الكتاب اللبنانيون والشعراء منهم فضاع من لبنان جانب مهم من جوانب السياسة والاحوال الاجتماعية ، ولم يكن فؤاد يركن في شعره الى الهدوء بل هو كثير الحركة يتحرش ـ ولكن بحق ـ بكل من يراه حائدا عن الحجة ولم ينج من لسانه وشعره حتى البطارقة والخوارنة لذلك لم ينج من اعتداء المعتدين عليه كما لم ينج من دخول السجن ، وقد قبض عليه ذات مرة واودع السجن على اثر تطفله في القاء خطبة وقصيدة شعر كان قد اعدها لهذا الحفل الذي اقيم في مناسبة تخص الاكليروس والبطارقة والرهبان فتناول البطارقة كما تناول رئيس الجمهورية اذه ، وقام من مرتفع في هذا الحفل وباغت المحتفلين بخطاب كان من مضمونه قوله : كيف يجوز لهؤلاء البطارقة الذين يحملون الصلبان الذهبية ويلبسون الحرير والطيالس المذهبة وهم يعلمون ان المسيح ما ارتدى غير الصوف ، وما وطأت قدماه الارض الا وهما حافيتان ، فاحدثت خطبته هذه وقصيدته ضجة في الاوساط الكهنوتية وفي رياسة الجمهورية تم اسكاتها بزجه في السجن .

ومن بعض ما قاله في قصيدته قوله :

وطن سراحين الذئاب تسوسه ... ماذا يدرّ لشعبه تقديسه
وطن تطير من الأسى أرواحه ... وتثور من جور الطغاة نفوسه
هذا بلفّته يلفّ له الأذى ... والأثم ذاك يقلّه قلنوسه

ومشى مع الطرفين يسحب ذيله ... متلكئاً بالمشيتين رئيسه
فيتلّه لامامه محموده ... ويشده لورائه طنّوسه
ماذا اقول بموطن حكامه ... رهبانه وشيوخه وقسوسه
وعلومه اديانه وعميده ... خوّانه وزعيمه جاسوسه
ربضت على القبر الجميل اسوده ... وتحكمت بالعاقلين تيوسه
قانونه جور وعلم نباته ... اثم وقتل الناهضين دروسه
وطن بلا طول ولا عرض ولا ... سمك ولا جرم فكيف اقيسه
السيف ملك جبانه والمال ملك ... بخيله (كذا) والمومسات تسوسه

وقص عليّ ذات يوم (ابراهيم حرب) الشاعر الاديب اللبناني وكان من اصدقاء فؤاد جرداق قال ما رأيت احدا يميل الى السجن ويشتهي ان يلوذ به ويلتجيء اليه ساعة يريد ان ينسى العالم غير فؤاد جرداق ؟ ! ولقد دخل السجن حين تعرض لرئيس الجمهورية ، وحين شتم الحكومة ، وحين وقف موقف المنّدد في مناسبات كثيرة ، فكان ذلك مما استطابته نفسه ومع هذا فقد لا يستسيغ السجن في بعض الاوقات فيفر ويختفي حتى تهدأ الاحوال ويخرج .

ومن نوادر الصحافة او من نوادر (فؤاد جرداق) كما ذكر لي ابراهيم حرب ان الامير (حارس شهاب) وكان يصدر مجلة (المزارع) انه حين رأى ان . . مجلته قد بارت وانه على وشك الافلاس بحيث يتعذر الاستمرار في اصدارها لجأ الى (فؤاد جرداق) لكي يخلق له الجو الذي يحمل الحكومة على اغلاق المجلة فيكون هذا الاغلاق مشرفا لمجلة (المزارع) فنشر (فؤاد جرداق) قصيدة عامرة يهاجم بها الحكومة هجوما مليئا بالتهكم والازدراء وقبل صدور هذا العدد راح صاحب المجلة يبث (الدعاية) لهذه القصيدة ويوصي من يلقاه بأن يقرأ قصيدة فؤاد في العدد حتى خلق جوا حافزا للقراءة قبل صدور المجلة .

وفي هذا الوقت لم يكن دخول السجن رائقا لفؤاد لذلك اعد العدة للهرب من لبنان الى سوريا قبل يوم واحد من صدور المجلة ونزل ضيفا على آل البرازي (بحما) وكان آل البرازي يحبونه ويعجبون بشعره ويأنسون به وصدر العدد واغلقت

المجلة وقبض على الأمير (حارس)وزج به في السجن ثم تدخل الشهابيون واطلقوه من السجن ، وبعد بضعة شهور كانت الاحوال قد هدأت ولم يكن هناك ما يستدعي تحريك القضية من جديد عاد فؤاد جرداق الى بيروت وهو يحمل في معصمه ساعة ثمينة اهداها له آل البرازي .

وكان من اختطاف فؤاد جرداق للصافي من بنت جبيل والمجيء به الى بلدة (جديدة مرجعيون) والاحتفاء بالصافي اياما ان قال الصافي :

ببنت جبيل لو تقيس (جديدة) تكون كمن قد قابل الناس بالعير
فبنت جبيـل لا يكـرم اهلهـا سوى كل شيخ ذي رياء وتزوير
بحفلة تكـريم حبتني (جـديـدة) ونلت (ببنت جبيل) حفلة تكفير

وفؤاد جرداق قليل النظير من حيث السخرية بالكنيسة ورجال الدين والذي يعرفه منهم يتحاشاه ويجامله خشية تحرشه به امام الناس بل وحتى في الكنيسة .

وحين توفي البابا (تتشلي) اقام له الاب نقولا الحاج في كنيسة (مرجعيون) قداساً ، وكان الاب نقولا يوم ذاك خورياً وهو اليوم مطران على ما سمعت وكان فؤاد جرداق حاضراً في الكنيسة ، ولما اتم الأب نقولا القداس وأبّن البابا بما كان قد اعدّ من بليغ القول قام فؤاد جرداق من بين الحاضرين وعلى حين غفلة وجه الكلام الى الحاضرين وقال :

لقد سمعتم أيها الحاضرون قول الروحانيين في الأب الأكبر ، اما قول الفقراء المساكين فانكم لم تسمعوه بعد وانا الخصه لكم في هذا البيت :

مـا مات عكـروت بـرومـة مـرة الا وحـلّ محـله عـكـروت

فامتلأت الكنيسة بالضجيج والاحتجاج وحاول البعض الهجوم على فؤاد جرداق ، ولكن فؤاد جرداق كان قد فرّ واختفى لأنه كان قد حسب هذا الحساب ولهذا كان اقرب حضار الكنيسة الى الباب مجلساً .

- ٥ -

وقمت بطبع (اشعة ملونة) وعنيت بطبعها على قدر ما كان بأمكان مطبعتي وما كنت استطيع ان انفق على الطبع وحرصت على ان اصونها من الابتذال حتى لقد امتنعت ان اتقدم الى وزارة المعارف واطلب منها شراء عدد من النسخ لمدارسها ومكتباتها وهذا ما كنت افعله انا مع كتبي ومؤلفاتي ويبدو ان الصافي كان يعلم بسجيتي هذه وكوني اتجنب اهداء مؤلفاتي للملوك والامراء واهل الوجاهة كما يفعل بعض المؤلفين فكتب لي الصافي في تلك الايام يقول :

« . . . . اما عواطفك وسعيك في تأمين راحتي فأن لسان قلمي يعجز عن شكره لو كان للأخ ان يشكر اخاه.

« اخي سرني جدا ان تعاملني وتعامل اثاري بما تعامل به نفسك الابية وآراءك القيمة من حفظ الكرامة وللادب عن ان يفرض بفرض ويبذل بذلا وكل اديب يعرف ثمن الادب الحقيقي فأن كل فكرة يبدعها الكاتب او الشاعر تساوي في نظري ملكوت السماوات والأرض وهذه الناحية التي عرفتها منك هي احدى النواحي الكثيرة التي تربط روحي بروحك وتجعلنا متفاهمين على طول الخط» .

كل هذا لأنه كان يقرأ في مقدمات بعض كتبي شيئاً من الترفع عن بذل كتبي واهدائها لغير اهل الادب والاصدقاء ولا بد ان كان يقرأ الشعار الذي اتخذه (الهاتف)والكلمة التي كانت تنشر في صدر الجريدة من كل عدد وهي(الهاتف يترفع ان يكون كلاً على احد فعلى من يصل اليه بدون طلب ان يرفضه مشكورا) فقد كانت جل الصحف يومذاك ترسل بصحفها الى بعض الوجهاء دون ـ طلب منهم ثم تطالبهم ببدل المشاركة بعد ذلك .

وبالاجمال فقد صدرت (اشعة ملونة) وكان لها وقع جد حسن في نفوس القراء ولا سيما الادباء ولا تزال حتى اليوم يجد فيها القارىء روح الصافي وافكاره وابتكاراته ولفتاته وشاعريته الجذابة اكثر مما يجدها في قصائده المطولة بل واكثر مما يجدها في دواوينه الاخرى فقد يفرغ الصافي في بيت واحد من الشعر الكثير الكثير من المعاني والافكار التي تحتاج عند الكثير من الشعراء الى قصيدة لكي تتضمن ما

يقول وهذا ما نلمسه في قوله عن السيكارة مثلا اذ يقول :

تخذتها أمةً حتى غدوت لها عبدا وها أفنيها فتفنيني

وعن الخشونة اذ يقول :

ان رمت في الدهر ان تبقى فكن خشنا فمنخل الدهر لا يبقي سوى الخشن

وغير ذلك الكثير من براعة الايجاز التي عرف بها الصافي والتي يجدها القارىء في (اشعة ملونة) اكثر مما يجدها في دواوينه الأخرى .

وقرظ عدد من الأدباء (اشعة ملونة) عند صدورها ونشرت تلك التقاريظ في الهاتف وجمعت انا البعض من تلك التقاريظ وارسلتها اليه وفي ضمنها كانت كلمة لمهدي البلاغي !! ومهدي البلاغي هذا شقيق الصحافي النجفي محمد علي البلاغي اعتاد الناس ان يداعبوه ويأنسوا بأفكاره غير المنسجمة ومؤلفاته المخطوطة التي يحملها معه اينما ذهب وقد عرض علي مرة احد مؤلفاته الذي سماه (بست عشرة قصة وقصة) فقلت له ولماذا لم تسمها (سبع عشرة قصة) فقال لماذا يجوز ان نقول (الف ليلة وليلة) ولا نقول (ست عشرة قصة وقصة) وذكرني هذا بذلك الذي سألوه قائلين ماذا صنع صاحبك بحماره ؟ قال باعِه بكسر العين !! فقيل له لماذا لم تقل بَاعَه بفتح العين ، قال ولماذا كسرتم انتم الراء من حماره فقالوا له لان الباء الداخلة على الحمار حرف جر يجب ان تجر ما بعدها . . قال يا سبحان الله أباؤكم تجرّ وبائي لا تجر ؟

- ٦ -

قلت ان بين التقاريظ ـ التي بعثت بها الىْ الصافي والتي نشرت في جريدتي (الهاتف) او التي نشرتها الصحف البغدادية بأقلام طائفة من حملة الاقلام . . . والشعراء ـ كان تقريظ لمهدي البلاغي ، ارسلته للتفكهة لعلمي بحب الصافي للفكاهة ، ومن تعليق الصافي عليه يستبين القارىء لمحة من روح الصافي المرحة ، وطبعه الرقيق الذي يعرفه من يصاحبه ، ويتسنى له ان يتغلغل في اعماقه او يتعرف الى شعره الذي كثيرا ما يفيض بالنكتة الشعرية والحلاوة التي من بعضها قوله :

اقول اذ قال لي الشحاذ هب لي من مال الآله : لقد اخطأت موضعه
لم يودع الله عندي ماله ابدا وانما ماله في البنك اودعه

وفيما يلي قافية اتركها للقراء ليقفّوها في ضمائرهم فأنها من الظرف الذي لا يجوز ان يلفظ به اللسان يقول الصافي :

ايها الفلس ما ارى فيك خيرا حيث جافيت كل صاحب خير
انت صعب الدخول في الكيس يا فلس وسهل الخروج تشبه . . .

وهذان البيتان اللذان لم يشجعني على ايرادهما إلا كونهما منشورين في (اشعة ملونة) ولكن الذي لم ينشر من ظرفه والذي احفظ بعضه انا فهو مما يضحك الثكلى ومن بعض المنشور قوله متظرفا :

وسائل قال لي هب لي لتسعدني فلسا من المال ينجيني وينجيكا
فقلت لا فلس عندي كي اجود به فقل لربك يعطيني لأعطيكا

ومن هذا الظرف انه دخل مرة ناديا للقصاصين في الشام فقال له احدهم مداعبا : انت رجل شاعر فبأية صفة تدخل نادي القصاصين وهو مقتصر عليهم وحدهم ؟ قال الصافي :

« لأني اصلح ان اكون موضوع قصة »

اقول وحين بعثت للصافي بتقريظ مهدي البلاغي ليأنس به ، كتب لي يقول :

« . . . . اما تقريظ العلامة الشيخ مهدي البلاغي فكان اجمل تقريظ رأيته حتى الان ، وكان لي خير سلوى ، وانجع دواء من الامراض التي اعانيها لا سيما مرض الدوسنطاريا الذي هجم عليّ مدة اسبوع كامل كان الدم لا ينقطع في اثنائها كأني في حيض مستمر . وقد شفيت ببركة تقريظ الاستاذ مهدي البلاغي ، وكان الذ كلمة جاءت في تقريظه لديواني قوله (يا زميلي) فحمدت الله على أني لست الوحيد من نوعي ، اما ابياته الرقيقة البليغة فقد اعطيتها لصاحب الجلالة الشيخ

شريف الخياط » ـ والشيخ شريف وقد كتبت عنه انا كلمة في كتاب (يوميات) وهو رجل اوحي اليه انه الملك فيصل الاول الحقيقي لفرط شباهته به شكلا اما الملك فيصل الحقيقي فهو الفيصل المزيف عند شريف الخياط وكنا انا والصافي وغيرنا في الشام ممن يأنسون به ، ويوجهون له اسئلة في دنيا السياسة فيجيب عليها اجابات عجيبة مضحكة ـ اجل يقول الصافي « **لقد اعطيت ابيات البلاغي للشيخ شريف ليشطرها او يخمسها ، لان صاحب الجلالة ادرك ان من مكملات الملوك ان يكونوا شعراء ايضا ، فأصبح من تحت الليل شاعرا** » واليك يقول الصافي ـ نموذجا من شعره الجديد قال :

الحمد لله الذي جعل اعدائي بين يدي الله عزّ وجلّ
لاكون عبده المظلوم ولا اكون عبد الله الظالم

فقلت له ـ يقول الصافي ـ وتستطيع ان تقول ايضا :

لاكون عبد الله المشنوق ولا اكون عبد الله الشانق

واردف الصافي في رسالته يقول :

« **وانت تعلم ان عبد الله المشنوق هو صاحب جريدة بيروت ، وقد ذكرني هذا بمناجاة احد العوام في احدى ليالي رمضان قائلا :**

الهي انت الراحم وانا المرحوم ، الهي انت الظالم وانا المظلوم ، فأرجو ابلاغ سلامي الى الاستاذ مهدي البلاغي وان يهدي لي رسمه لأني نسيت صورة زميلي القديم » .

ومما يروي (الصافي) من نكاته انه حين كان يقيم بصيدا كان يخرج في كل صباح الى القلعة فيفترش عباءته ويتمدد عليها ، ويمسك بيده جريدة او مجلة او ديوان شعر ، ويمر السياح والزائرون من مختلف الاقطار بالقلعة ويرونه مسجى على هذه الطريقة فلا يناله منهم الا نظرة اعجاب او شفقة باستثناء بعض الشباب السائحين الذين استغربوا امتداده على هذه الصورة وانحناء احدى ركبتيه على هذا النحو وهو يقرأ ، فتقربوا منه وعلم منهم انهم لبنانيون احفاد لمن سكن من آبائهم

واجدادهم الولايات المتحدة فسألهم الصافي .

ـ وانتم في الولايات المتحدة تدرسون ام تتاجرون ؟

قالوا ـ تتاجرون . .

فعلم الصافي انهم قد نسوا حتى لغتهم العربية .

ـ ٧ ـ

والصافي من الإباء بحيث يتجاوز كل حد من الحدود المألوفة وليس من المبالغة في شيء اذا قلت انه قد انفرد بأبائه في عصره فهو مع شدة افلاسه الذي يؤلف ديوانه شيئا غير قليل من وصف هذا الافلاس فانه يأبى ان يتقبل حتى الهدية التي يشم منها بعض رائحة العطف او الشعور بحاجته وافلاسه فيظن انها لم تقدم الا على هذا الحساب ـ حساب شعور المهدي بحاجته ـ فهو يفضل ان يموت جوعا ولا يتقبل هدية مثل هذه الهدية ، ولقد بلغ من امره انه لامني كثيرا حين مررت بأخيه السيد محمد رضا وانا على وشك السفر الى الشام لاذكره بما ينبغي ان يذكر به اخاه بشيء من ارثه في البساتين فقال السيد محمد رضا انت أخبر من غيرك بطبع هذا الاخ ، فهو متى قبل شيئاً منا لكي انسى انا ان ابعث اليه بشيء من ارثه وبشيء منا ، ولو على سبيل الهدية ، ومع ذلك فهذا مبلغ احملك اياه لتدفعه له في الشام اذا قدرت ، اقول لقد لامني احمد الصافي على حمل هذا المبلغ من اخيه بل وعنفني وكان يوم ذاك عدد من الأصدقاء معي كان من بينهم المرحوم اسكندر حريق ، وعبود زلزلة ، وعزيز نصر ، ونايف نصر فلم نخرج من الشام الى الجبل الا وكان الصافي قد انفق علينا كل هذا المبلغ الذي جئت به اليه من اخيه في دعوات مكررة لنا في الشام وفي (الربوة) وفي (دمّر) ؟ .

هذا وقد كان والله احوج ما يكون الى المال يومذاك ويلمس حاله القارىء في هذه اللمحات التي كانت تعبر عنها مقطوعاته ورباعياته وما جرى على ـ لسانه من الابيات اذ يقول :

فكم من أحق فيهم دعاني ... اميراً فامتلا قلبي شجونا
دعاني بالامير وكنت اولى ... بأن ادعى امير المفلسينا

ويقول :

صافحتني يد امرىء فرآني ... ساخن الكف من لظى الوسواس
قال هذي حرارة الايمان ؟ ... قلت لا بل حرارة الافلاس

ويقول :

املك الدرهم الذيم لم يصلني ... فاذا حل في يدي طار مني
فانا لست مالكا غير وهم ... ذاك لم يأتني وذا فرّ مني

ومن اجمل ما وصف به افلاسه قوله :

براني الاقتصاد وهدّ جسمي ... بمنعي عن مآكل واجبات
اضر بي السطوى حتى كأني ... لنقص الاكل آكل من حياتي

وفي الافلاس والمرض يقول :

مذ رآني الطبيب قال دع السعي ... وهمّاً به حشاك يجيش
قلت اني اسعى ولا ألحق العيش ... فان استرحْ فكيف اعيش ؟

ومن هذا الشيء الكثير الذي حكى واقعه ولكنه ما قبل شيئا من احد ولو اراد لفاقت والله ثروته ثروة احمد شوقي وغيره دون اذلال او دون استعطاء .

* * *

ومررت ذات صيف بالشام كعادتي في كل سنة وكانت بيني وبين الصديق الكريم أبي طلال محمد جميل اسماعيل القربي صداقة ولا تزال هذه الصداقة تزداد رسوخا والقربي هذا احد محافظي سوريا وصار بعد ذلك مديرا للداخلية العام وكان يومذاك عضوا من ابرز اعضاء (نادي العروبة) فعرض عليّ بأن أكلم الصافي بانتقاله من صومعته في تلك الغرفة المشار اليها في المسجد الى دار يستأجرها له

النادي ويقيم عليها خادماً يقوم بكل مهامه من غسل البسته واعداد طعامه وله ان يتقبل ـ اذا اراد ـ عضوية الشرف والانتساب الى هذا النادي فاننا نفخر به ونعتز بأدبه ، والنادي مستعد ليقدم له مبلغا كثمن لعدد من النسخ المطبوعة من ديوانه ، وكان الصافي يوم ذاك يقضي اياما (بمضايا) خارج دمشق وكان له بريد ثابت هو شباك البريد في الشام يلاحقه بما يتلقى من بريده اينما يحل، فكتبت للصافي بذلك ،واخبرته بما جري بيني وبين (القربي) ورجحت له قبول العضوية في هذا النادي لا سيما وهو يضم عددا من خيرة رجالات سوريا الوطنيين والاحرار الذين كثيرا ما آلت اليهم بعد ذلك تولي سياسة سوريا كوزراء ونواب ورؤساء وزارات ثم اخبرته بأني خارج الى (ضهور الشوير) وقد كانت مصيفي المفضل قبل ان انتقل الى (سوق الغرب) ودعوته الى ضهور الشوير ليقضي عندنا اياما لا سيما وكنا قد استأجرنا بيتا واسعا ، وان الصافي معي غيره مع الناس ، فلا ينظر اليّ بالعين التي ينظر بها الى الاخرين وليس بيني وبينه من فاصل في الوحدة ، حتى لقد طلب مني ذات مرة ان آتي له من العراق بعباءة فأتيته ، وحتى كان ينزل في ضيافتي بأوتيل فاروق يومين وثلاثة ، ويوم خصص له راتب التقاعد ابى ان يقبل ضيافتي قائلا ان له في البنك ما يزيد عن الحاجة فلماذا يدعني ادفع عنه اجور الفندق بل لقد طالما

من اليمين في دمشق اسكندر حريق ، والصافي وجعفر الخليلي والواقفان المهندس عزيز نصر ، وعبود زلزله رئيس المفتشين الأختصاصيين بوزارة المعارف .

سألني ان كنت بحاجة الى شيء من النقد لان لديه الكثير الذي يزيد عن الحاجة، فأقسم له انني لو كنت محتاجا الى شيء لما كان أحد في الدنيا اقرب اليّ منه .

وفي منتصف الاربعينيّات سكن الشاعر احمد الصافي النجفي بحارة حريك القريبة من بيروت وفي غرفة منفردة مجاورة لبيت شبيه بالقصر لزعيم عائلة لها في تاريخ الاقطاع بجبل عامل شأن كبير ، وكان صاحب القصر وهو الزعيم الوائلي علي نصرت بك قد علم بقدوم الصافي لأنه اصبح من مجاوريه[1] .

وبحكم الصداقة التي كانت تربط ابراهيم حرب بالصافي فقد كان ابراهيم يزور الصافي دائماً ، يقول ابراهيم حرب وصادف اني وجدته يوماً على غير عادته مضطرباً بشكل غريب وهنا بادرني قائلاً :

ـ أتدري ما حلَّ بي ؟ أكُتِبَ عليَّ بان اسكن هنا لاتلّقى الاهانة كما ترى ؟

أنت تعلم من يسكن هذا القصر فقد علم صاحبه كما يظهر اني اقيم بجواره او سمع باسمي ، فارسل اليَّ يوم أمس أحد « خدمه » ودعاني بواسطته لتناول الغداء عنده دون ان يزورني بنفسه من قبل ـ تُرى انه قد حسبني كبعض الشعراء ألبّي الدعوة لمن يشاء ؟ ألا يعلم من أنا ؟ انه مهما سما باصله وحسبه فلن يبلغ ما انا ارجع اليه بحسبي ونسبي ألا يعلم اني هاشمي واني لشاعر انتمي الى جدي رسول الله .

انت تعلم ان نابليون القائد الفاتح العظيم عندما احتّل ألمانيا فقد ذهب بنفسه لزيارة شاعرها الاكبر « غوته » تقديراً له واحتراماً لعظمته عندما وجد ان الشاعر قد تخلف عن زيارته لغاية في نفسه وما وجد في ذلك من حرج بالرغم من معظم امراء المانيا الذين جاءوا الى الفاتح العظيم لتقديم الطاعة والولاء .

وتأثر الصافي بما حدث وقال لي صباح اليوم التالي :

لقد أحسن صاحب هذا القصر بتصرفه يوم أمس ولولاه لما نظمت قصيدتي غبن شاعر التي منها قوله :

لـعـن الـلـه عـلّة تـركـتـني رغم انفي أعيش عيشة شاعر

انا لولا سُقمي نظمت شعوري ... في مساع محفوفة بالمخاطر
وأريت الدنيا قصائد مجدٍ ... لم تقطعْ بغير بيضٍ بواتر
سخِر البعضُ من حياتي وأني ... مثلهم من حياتي اليوم سَاخر
ورثى البعض لي وأني لأرثي ... لعقول ترثي لبؤس ظاهر
ان شعري لتسليات عَليلٍ ... أرغمتُه على الخمول المقادر
دهش البعض إذْ رآني عزيزاً ... وكغيري بالشعر لست أتاجر
أبداً أمنحُ الصعاليك عطفاً ... ثم أبدي تكبراً للاكابر
وكذا الشاعر الصحيح نبي ... مرسل والنبي غير التاجر
أنا إما أن لا اكون كغيري ... شاعراً أو أكون وحدي الشاعر

وسافرت الى (ضهور الشوير) وتلقيت هناك بوساطة اسكندر حريق رسالة منه تكفي لتعرف الشيء الكثير بإباء الصافي والغيرة على كرامته فهو ، يقول فيها :

« السلام عليك والشوق الشديد اليك وبعد :

فقد جاءني كتابك الكريم وانا في قرية (مضايا) من المصائف السورية الممتازة بجودة هوائها وعذوبة مائها وسحر مناظرها ، اما تأخري عن زيارتك في (ضهور الشوير) التي كانت اعظم امنية لي لانك تعرف مقدار سروري بك وبحديثك العذب وبأخلاقك الصافية ، وروحك الطاهرة ، فهو منبعث عن سبب لا استطيع شرحه الا بحضورك . . وهنا انا قد صممت العزم على زيارتك قريبا على اني ارجوك رجاء اكيداً يتوقف عليه حفظ الصداقة بيني وبينك وانت تعلم مقدار غلاء هذه الصداقة لديّ وثمنها العظيم في نفسي ولكن بما ان هذا الرجاء يتعلق بشرفي وكرامتي (كذا) لذلك اخشى عليهما من عدم اجابتك هذا الرجاء .

أما رجائي هذا الذي لم يسبق ان تقدمت برجاء اعظم منه(كذا) فهو ان تبادر عند وصول كتابي اليك بالسلام على الصديق الاستاذ (جميل القربي) وتبدي له اولا رفضي لعضوية النادي لان اوانها قد فات ، واعني بأوانها وقت افتتاح النادي الذي كنت مساهما في حفلة افتتاحه حيث دعيت لالقاء قصيدة في حفلة الافتتاح وانا لست ممن يأتون في آخر وجبات (الوليمة) واعلم ايها الاستاذ اني ولله الحمد ممن يقومون

بأنفسهم لا بفضل ناد ، اما اذا كان النادي سائرا على الاسس التي اعلنها فأني اناصره دون ان انضم اليه .

واما شراء الكتب والبيت فأني ارفضهما رفضا باتا وارجوك ان تعتذر لي من الاستاذ جميل عن قبول الشراء مع تقديم شكري لعاطفته لان كتابي موجود هنا في المكتبات ومن شاء من اعضاء النادي فليشتره منها وانا في انتظار جوابك السريع المطمئن لي عن تنفيذ رجائي لديك لأتوجه نحوك واقضي بقربك اسعد الايام وهناك امور لا استطيع شرحها لك الان تتعلق بأسباب هذا الرجاء . . . سأذكرها لك عند اللقاء . »

وبادرت طبعا بتنفيذ طلبه هذا وكتبت من (ضهور الشوير) الى الشام معتذرا للاستاذ القربي بشكل لا يخدش له عزة نفسه كما كتبت للصافي الى شباك البريد بدمشق بأني نفذت امره بكامله .

وجاءنا الصافي الى ضهور الشوير ونزل في بيتنا أياماً سعدنا به وسعد الاخوان الذين كانوا يزورونه في بيتنا ويقضون وقتا طويلا قد يمتد الى العشاء وما بعد العشاء الى منتصف الليل واكثر ونتناول العشاء معا واذكر منهم الاستاذ علي الشرقي الذي جاءنا من سوق الغرب خصيصا ، واذكر عباس مهدي، والمحامي عبود الشالجي والشاعر الصحافي الياس (ابي شبكة) ،وحليم دموس ، والدكتور اسد رستم وفي طليعتهم اسكندر حريق الذي كان يلازمنا ولا يبارحنا في كل يوم وليلة .

وبلغ الإباء من الصافي بحيث صار يشكك حتى في هدية الصديق المألوفة من ساعة ، او قلم ، او مبلغ في مناسبة تستدعي مثل ذلك فقد صار يشكك فيما يجيئه أهي هدية من الهدايا المتعارفة عند الناس ؟ ام هي ضرب من ضروب المساعدة والاشفاق ؟ وقد قدم له صديق عزيز ورفيق قديم مخلص مبلغا داخل رسالة في مناسبة من المناسبات المقتضية لمثل هذا فحار الصافي بين قبول المبلغ ورفضه وقد عبرت الابيات التالية عن حيرته هذه وفيها من البراءة الفكرية ما لم تخف على احد، يقول الصافي عن هذه الرسالة :

ونبيل قوم جاد لي برسالة ... فواحة من لطفه بعبيره
واذا بها ملغومة بسخائه ... فاحترت بين مسائتي وسروره
حاولت ردّ سخائه فخشيت ان ... اقضي على نبع السخا بضميره
فرضيت منكسرا بجرح كرامتي ... وقبلت جرحي خوف جرح شعوره

وكان البعض ولعل منهم الادباء يجهلون طبيعة الصافي ولا يعرفون شيئا عن ابائه الذي اصبح مضرب المثل في حياته لذلك كانوا حين يتطرقون اليه في الكتابة يرون من الواجب ان يشيروا الى ضنك عيشه وجشب غذائه وقسوة ظروفه بما يشم منه رائحة الشفقة وكان اخر من كتب مثل هذا هو المحامي عبد المحسن القصاب الذي اسهب كثيرا في مدح الصافي وتحليل شاعريته ومكانته في عالم الادب مما يشكر عليه لو لم يتخلل كلمته تلك شيء من اثارة الشفقة ودعوة الحكومة الى وجوب شراء كتبه وكان قد صادف نشر هذا المقال الذي لا اذكر اين نشره (القصاب) اهو في (الهاتف) أم في احدى الصحف العراقية وقد صادف ظهور هذا . . المقال مع ظهور

ناجي جواد ، والصافي ، وجعفر الخليلي ، على قارعة الطريق ببيروت .

(اشعة ملونه) الى السوق وقد حملني مقال القصاب هذا ان ـ اعلق عليه في الهاتف واصحح رأي من لا يعرف الصافي معرفة كافية وقد جلوت صفات الصافي في هذا المقال واشرت الى ابائه وتعاليه وهي كلمة كان بها الكفاية ولكن الصافي حين اطلع على ما كتب القصاب وما علقت انا على كلمته لم يكتف بذلك بل بعث لي بالمقال التالي :

إلى إخواني العراقيين :

« لقد حرت والله ماذا اكتب وبماذا اجيب كلام هؤلاء الاصدقاء والمحبين الذين لا يعرفون كيف يظهرون عواطفهم تجاهي فيجرحونني وهم يحسبون انهم يداوون جروحي فبين مدة ومدة ارى الصحف العراقية تتناولني موضوعا لاهتمامها فتشكو للعالم وللعراق وللحكومة بؤسي وان هؤلاء ليسيؤون اليّ بمقدار ما يحاولون الاحسان .

لقد اصبت من الزمان بجروح كثيرة ولكن كان اعمقها في نفسي التوجع لي والتأسف والتلهف عليّ واراني الان مضطرا الى ان اعلن لاول مرة واخر مرة للملأ العراقي والعربي عموما انني بحمد الله غير بائس ولا محتاج وان كنت اشكو شيئا فانما اشكو العلل الجسمية التي أنهكتني واقعدتني عن كل سعي اما فيما عدا ذلك فانا سعيد ولي من ريع كتبي ما يكفي للنهوض بي في حياة الزهد التي الفتها لا سيما وان كتبي تلاقي اقبالا لا دخل للعاطفة فيه وقد نفد بعضها واعيد طبع بعضها وكان ذلك عفوا وبعيدا عن كل دعاية وتكليف والان ارى ـ طلبنا ملحا باعادة طبع كتبي التي نفدت من الاسواق ولولا غلاء الورق لاعدت طبعها وان ذلك حظ قل ان اوتيه اديب .

اما الركود المؤقت الذي اصيبت به بضاعة الادب وفي جملتها بضاعتي فقد اصيبت به اكثر البضائع الاخرى ولي بذويها اسوة واني واياهم لانفراج الازمة لمنتظرون .

لقد كان اكبر هدف لي منذ نشأت هو المحافظة على عزة نفسي وقد حافظت عليها ما استطعت حتى الان على رغم الظروف القاهرة التي كانت تحاول سلبي اياها

وكم عرضت عليّ اموال فرفضتها شاكرا وكانت سعادتي طيلة هذه المدة منحصرة في المحافظة على تلك العزة واليوم اراني اجرح في كل فترة ومناسبة عن طريق الاهتمام بتنظيم حياتي فالى الاخوان والمحبين والمشفقين اوجه هذه الكلمة راجيا منهم ان لا يجرحوني في اعز شيء لدي كما اني بعد هذه الكلمة التي تلهف فيها علي الاستاذ عبد المحسن القصاب ودعا الحكومة والاهالي الى شراء كتبي ، اقول اني احرم شراء كتبي على كل من يشتريها مدفوعا بعامل الشفقة كما ارجو الاستاذ الخليلي ان يجمع النسخ ـ ويقصد بذلك نسخ كتابه (اشعة ملونة) ـ من المكاتب ويحصرها عنده حتى ارى رأيي فيها واذا لم يفعل فلا يكون قد ادى للصداقة والكرامة حقهما .

اما خوف البعض من المشفقين والاصدقاء من ان انتحر فذلك خوف لا محل له ، اذ ليست الماديات كل شيء عندي في هذه الحياة واني اطمئنه بأني لا اكترث للمال فقد تعلمت ان البس لكل حالة لبوسها وما دمت ارى عزة نفسي مصونة فليس ما يدعوني الا الى الغبطة والسعادة مهما تنوعت الخطوب واذا كان شيء يدفعني الى الانتحار فهو هذه الشفقة وهذا العطف الذي يبديه بعض الكتاب علي وان ـ يكونوا مدفوعين بأنبل المشاعر لان هذا العطف هو الذي يحقر الحياة في نظري وهذه الشفقة هي التي تسوّد الدنيا في عيني فان كان هؤلاء سامحهم الله حريصين على سعادتي وغبطتي فعليهم ان يكفوني عطفهم واني من الان اوجه كل انواع السب والاحتقار الى كل من يشتري كتابي متأثرا بالعطف والشفقة علي لانني اراه جانيا وقاتلا لنفسي وان قتل النفس اعظم من قتل الجسم » .

دمشق في ٢٩ تشرين الاول سنة ١٩٤٠

احمد الصافي النجفي

وكتب لي الصافي في هذا الخصوص يقول : « لقد أرسلت نسخا من هذه الكلمة الى جريدة (البلاد) وجريدة (الهدف) وجريدة (الاتحاد) و(مجلة المجلة) فاذا لم ينشروها فارجو الاشارة الى ذلك مع معاتبتهم في مجلتكم الغراء » ويقول لي : « ولقد ارسلت لك النسخة الخامسة اعتمادا على ذوقك في قرائتها » .

فلم أر بأسا ان اعلق على هذا المنشور ثانية فكانت مني كلمة واسعة عدت بها

الى الموضوع نفسه حتى اشبعته في هذه المرة اشباعا وعلق الاستاذ عبد الحق فاضل بما يشبهها من حيث الموضوع بكلمة استلفتت نظر الصافي فكتب لي الصافي حينذاك يقول :

« اخي لقد ذكرت لك في كتابي السابق شكري واعجابي بكلمتك التي دافعت ـ بها عن كرامتي وصورتني فيها ابدع تصوير وكنت ارى كلمتك لا احتياج معها الى كتابة شيء ولكن عندما رأيت كلمة الاستاذ القصاب قدرت له عاطفته النبيلة من جهة وثارت ثائرتي من جهة اخرى عندما ذكر الطريقة الايجابية للاهتمام بشأني اعني دعوة الحكومة والموظفين الى شراء كتبي فجئت بكلمتي التي نشرتها الصحف موافقا ومؤيدا لكلمتك والحق اقول ان كلمة القصاب أقضت مضجعي ليالي طويلة حتى رأيت جوابي عليها منشورا في الصحف فهدأت ثائرتي .

اما عاطفة الاستاذ عبد الحق فاضل تجاهي وحسن ظنه بي فاني اشكرها له غاية الشكر ولولاخجلي من ان ابدأه بالكتابة كما اقترحت انت لكتبت اليه ما يشرح له شعوري نحوه ولكنك الرسول الصادق الامين بيننا وانك مني بمنزلة هارون من موسى فبلغه تحياتي واشواقي واعجابي به وبكتابه الاخير الذي وصلني قبل ايام فقرأته باعجاب ولقد بدأ اعجابي بشعر الاستاذ عبد الحق منذ اول قصيدة قرأتها له وقد ذكرت لبعض الادباء هنا اني لم اجد شاعرا يمثل الطريقة التي احاول اتباعها وارى ان تسود في الشعر العربي الا الاستاذ عبد الحق وكنت اريد ان اكتب له في ذلك ولكن رأيت مقاله عني فامتنعت عن ابداء اعجابي بشاعريته لئلا يحملها البعض على محمل تبادل الثناء فحياك الله وحياه وجعل منكما وممن ينهج منهجكما حملة للواء الادب الحي الصادق ومصابيح يهتدي بها الضالون في مهامه الادب » .

وانقطعت مكاتيبي عنه فترة بسبب الحرب وقد تخيلته مستغربا مثل هذا الانقطاع على الرغم من علمه بظروف الحرب وصعوبة وصول الرسائل وحين تسنى لي الوقت المناسب المطمئن كتبت له معتذراً وارسلت له تعليقا جديدا اقتضته المناسبة للاشارة الى إبائه فتلقيت منه الرسالة التالية :

« تحيات واشواق لا تحصى وبعد ، فاعلم ايها الاخ الوفي اني كنت كما ذكرت لي في كتابك مستغربا من انقطاع مكاتيبك عني طيلة هذه المدة على اني لم اكن اتصور السبب هو الاهمال كما خيل لك وانما كنت ابحث في نفسي عن اخطاء سببت قطع المراسلة فكنت اجد اخطاء كثيرة ولكنها ليست جديدة بل كانت منذ القديم ولم تكن تؤثر على صداقتنا المستمرة التي هي اقوى من الاخطاء على اني رأيت السبب الوحيد هو المشاغل التي ولدتها ظروف الحرب وقلت اذن فلابق انتظر حتى تنفرج فأحظى بكتاب منك واذا بي أقرأ مقالك عني في مجلة الهاتف واذا بي اشعر بهزات من السرور الشديد والالم الممحض في آن واحد اما سروري فلأن لي هذه المنزلة الروحية في ارقى روح احبها واحترمها واعجب بها واعلم ان حسن ظنك بي هذا يفوق عندي بكثير جوائز الملوك العظمى التي كنا نسمع بها عن اغداقها على رؤوس الشعراء المبدعين واما المي فلاني ما كنت ارغب في اثارة الموضوع من اصله على اني رأيت موقفك ضروريا للدفاع عن كرامة اخيك التي تهمك كما انك لم تدع لي مجالا للاعتراض حينما قلت انك تؤدي واجبا قوميا يخصك ولا يخصني فانا اشكر لك هذه

الصافي والخليلي ، وناجي جواد في مطعم العجمي ببيروت

العاطفة النبيلة وهذا الشعور الفياض وهذا الاسلوب البديع الذي جريت عليه فأرضيت به الذوق والعقل والضمير وليس هذا بغريب عن روح الخليلي السامية وتفكيره الواسع الذي لا يدع في بحثه كبيرة او صغيرة الا احصاها واقول لك بالمناسبة ان الاستاذ رئيف خوري بجانبي الان وقد قرأ مقالك فاعجب به غاية الاعجاب ـ وهو قلما يعجب بشيء » .

وكثيرة هي الامثال التي يجدها المتتبع لاباء الصافي ومنها قضية الراتب التقاعدي فلقد قص علي ناصر الحاني وكان يومذاك سفيرا للعراق بلبنان بأنه وهو يمر ذات يوم بسيارته في (الكورنيش) وكان الوقت ظهرا فألفى على مقربة منه بدويا وقد تحلقت حوله حلقة من بعض الشباب عرف ناصر احدهم وكان اديبا من ادباء لبنان فأوقف سيارته عنده وسأل عن هذا البدوي فقال له انه الصافي فنزل (الحاني) من سيارته وتقدم الى الصافي وبشوق قليل النظير اخذ الصافي بالاحضان وارغمه هو وبعض من لم يعتذر من تلك الحلقة وادخله في السيارة وسار به الى بيتهوتناولوا هناك الغداءوانسوا بما انشدهم الصافي من شعره ثم اوصله (الحاني) بسيارته الى مقره على ان لا تكون هذه الجلسة كبيضة الديك ، وبعد ايام لم تكن بالطويلة كان (الحاني) ببغداد وكان ان ـ نبه الحكومة بوجوب تعيين راتب شهري للصافي فقرر مجلس الوزراء العراقي حينذاك هذا الراتب وجاء يخبر الصافي بما تم ، واذا بالصافي يرفض تسلم المبلغ رفضا باتا وعبثا راح يحاول الحاني اقناعه بأن مثل هذا القرار من مجلس الوزراء ليس الا وجها من وجوه التكريم وان رفضه غير مستساغ في عرف الدولة والناس وبهذا نفسه حدثني الصافي ايضا ولا ادري كم قضى الحاني من الايام حتى حمل الصافي على اقناعه .

ومن عادة الصافي ان يستقبلني كلما جئت الى لبنان بقصيدة جديدة ـ يهديها الي فتنشرها احدى المجلات وتعلق عليها .

وفي هذا الصيف صيف سنة ١٩٦٨ الذي تم قبول الصافي لهذا الراتب جئت انا الى لبنان كالعادة وزارني الصافي وبصحبته ابن اخيه الدكتور علي الصافي وهناك قدم لي مسودة قصيدة جديدة باسم راتب التقاعد ، تولينا كتابتها انا والدكتور علي

الصافي واهداها لي جريا على عادته ثم قام بعد ذلك الدكتور سهيل ادريس ونشرها في العدد الثامن من شهر اب سنة ١٩٦٨ من مجلة الاداب وقدم لها بهذه المقدمة :

« قبل ايام قرر مجلس الوزراء العراقي تخصيص راتب تقاعد بمبلغ مائة دينار شهريا للاستاذ احمد الصافي النجفي والحق ان مجرد التفكير من قبل رئيس الـوزارة . . العراقية ومن قبل سفير العراق بلبنان في مثل هذه البادرة لهو من الامور التي تستحق كل ثناء وشكر ولكن للصافي مزاجا خاصا يجعله ينظر الى مثل هذه الامور نظرة خاصة .

وكيفما كان الامر فقد قبل الصافي المبلغ على اساس ان رفضه قديدل على عدم تقدير منه للروح الطيبه التي حملت الحكومة العراقية على التفكير في امره فقبله شاكرا الدواعي الروحية وليس المال الذي لم يعتد ان يقيم له وزنا طول حياته وحتى في اضيق الاوقات وقد هنأه من سمع بالخبر وقال له احدهم على سبيل الدعابة : انه قد اصبح لنا بعد هذا اليوم مأمل حين نريد ان نتسلف منك ما نحتاج اليه ما دمت قد اصبحت غنيا ، فأجابه الصافي على دعابته قائلا :

« ويلك قل لي اهو راتب تقاعد هذا ؟ ام بنك تسليف لتطمع في ان تستلف منه نقودا ؟ »

وقد هاج راتب التقاعد هذا في نفس الصافي شاعريته فاذا بقريحته تجود بقصيدة عامرة شاء تواضعه كما يقول جعفر الخليلي ان يهديها له بصفته ـ اقرب الاصدقاء الى روحه واعرفهم بجبلته التي جبل عليها ومزاجه الذي شب عليه كما يعتقد الصافي اما القصيدة التي اهداها الى صديقه جعفر الخليلي والمعنونه براتب التقاعد فهي التي تنشرها (الاداب) هنا مع الشكر .

الاداب

- راتب التقاعد -

لم يزدني المال - اذ جاء غنى ... كنت أغنى الناس اذ كنت فقيرا
كم اتاني المال لم اعبأ به ... هاربا منه ولم املك نقيرا
هازىء فقري بانواع الغنى ... يحسب المعتز بالمال حقيرا
اسال المال الذى قد سركم ... كيف فيّ اليوم لم يبعث سرورا
ولماذا غرّكم اذ جاءكم ... ولماذا فيّ لم يبعث غرورا
اي سحر فيه اعمى منكم ... عن سبيل الحق من كان بصيرا
ها انا باق على ما كنته ... يكبر المال امرأ كان صغيرا
وصغير النفس من هنأني ... حاسبا مالا اتى شيئا خطيرا
ليس مالي فضة او ذهبا ... مالي الفكر الذي عزّ نظيرا
مالي الخير الذي اعمله ... مالي السعي الذي يرضي الضميرا
مالي النور الذي ارسله ... يبدل الظلمة في الافكار نورا
مالي الوحي الذي يلهمني ... مالي الشعر الذي يحيى الشعورا

* * *

لم يغير خلقي او سيرتي ... عارض المال وان كان وفيرا
اعشق الزهد مريحا فكرتي ... اعشق الكوخ ولا اهوى القصورا
اعشق العيش بسيطا هادئا ... اشتهي الارض مهادا لا السريرا
كم هويت الصخر لي بتكأ ... وافترشت الصخر لا الفرش الوثيرا
ما اتاني غير ما احتاجه ... بدل السجاد اشتاق الحصيرا
غير ما احتاجه اخرجه ... من فصول العيش قد عشت نفورا
حرت بالمال وإنفاقي له ... لم أجد احرى به الا الفقيرا
اعرف الفقر فما يخدعني ... مدعي الفقر وان لاح كسيرا
راحة الفقر بعيشي بدلت ... ثروة قد عقدت مني الامورا
الغنى شيء غريب داخل ... في حياتي مقلق مني الشعورا
هو ضيف اجنبي حرت في ... امره اخشى غدا منه المصيرا

اتـرى اطـرده حـين ارى طردي الضيف على النفس عسيرا
هـو لي مـستعمر قـد حـل في سـاحتي مهما يين لـطفاً كثيـرا
مـستقـلا كـنـت والـيـوم اتى عـارض المـال دخيـلا واميـرا
سـيـرى مـني احـتـقـارا ومـتى احترم مـالاً اكن شيئا حقيرا

احمد الصافي النجفي

- ٨ -

وقد صدق الصافي والله فيما جاء في قصيدته

فالقناعة من ابرز صفاته ويجدها القارىء في كثير من مواطن شعره وفي طرز حياته وقد والله كثيرا ما بات دون ان يدخل جوفه طول النهار غير رغيف واحد وبدون ادام فلم يتذمر ولم يستنكر ، وما يقرأه القارىء في شعره من وصف لما هو فيه من الافلاس ليس الا من قبيل التفكه او المفاخرة بأنه مع كل ما هو فيه من عوز فانه لمسرور غاية السرور وكل هذا قد كان قبل ان يتفق معه الناشرون على شراء طبعات دواوينه ومنهم (دار العلم للملايين) ببيروت ، وقبل ان تخصه الحكومة براتب التقاعد . ومن بعض الادلة على قناعته قوله :

انـا حـسبي ثـروة مـن ادب قـد كفتني عن طـلاب الـذهب
فـليـدم جيـبي فـقـيـرا انمـا فـقـر جيـبي ثـروة لـلادب

وحين ازور لبنان في الصيف كان يزورني في الفندق (فندق فاروق) بسوق الغرب فأستبقيه اياما ، وحين تم تخصيص راتب التقاعد له ابى ان يقضي بعد ذلك ـ كما سلف ان ذكرت ـ ايام زيارته على حسابي في الفندق وكان مضمون قوله ما الذي اعمل بهذه النقود التي امتلكها وانا والله ادفع منها للبعض وانفق منها على نفسي وتبقى لي فضلة كبيرة لا اعرف ماذا اعمل بها » .

لقد كتب لي مرة في الاربعينات وهو في اشد ازماته الاقتصادية لقد كتب لي يقول :

« اخي سألت عني فانا بحمد الله راض بما انا فيه لاني البس لكل حالة لبوسها اما نعيمها واما بؤسها فلم تضق بي الامور حتى الان رغما عن ضيقها كما اني لا ازال . . املك شيئا من المال ـ واحسب ان هذا المال الذي يقول انه لا يزال يملكه لا يزيد عن بضع ليرات يومذاك ـ ويقول ـ ولا ازال املك خاتما من ذهب كما اني لا ازال املك ايضا اسنانا من ذهب ؟ فكن مطمئنا على اخيك وفوق ذلك املك ثروة كبرى وهي ثروة القناعة التي هي كنز لا يفنى ، اما الشيء الوحيد الذي اشكوه فهو انقطاع معين الشعر الذي هو سلوتي ان عزت عليّ السلوى ، ويظهر شيطاني ـ يقصد به شيطان شعره ـ انه وديع مسالم او جبان خائف ـ لان الوقت كان وقت حرب وكان الصافي يكره الانكليز كثيرا ويصغي الى يونس بحري وينقل اخبار انكسار الجيوش الانكليزية في دنكرك بلذة وارتياح ـ فقد انكمش على نفسه في اول الحرب ـ يقصد شيطان شعره ـ واختبأ في بعض الملاجيء خوفا من الغارات وانا اتمنى انتهاء الحرب حتى يخرج من مخبئه خيفة عليه ان يموت من هواء المخابيء قبل ان يموت من الغازات والقنابل ولعله اذا خرج حيا يكون الرسول الامين بيني وبين (الهاتف) ـ يعني جريدتي ـ » .

- ٩ -

وقد ثبت ان شيطان شعره لم يكن جبانا فحين تم انهزام جيش فيشي سنة ١٩٤١ ودخلت الجيوش الانكليزية لبنان زجت بالذين عرفت منهم الكره للانكليز في السجن وكان ـ من هؤلاء احمد الصافي الذي كان من ابرز من تصدروا للمظاهرة ، التي قامت في وجه الانكليز ببيروت وكان من المشاركين فيها الدكتور ضياء ابو الحب وكان يومذاك طالباً في الجامعة الاميركية كعضو بعثة عراقية فطردته الجامعة لهذا السبب واكمل بعد ذلك دراسته العالية باميركا ، وكان من المتظاهرين ابراهيم حرب الشاعر الذي يدير اليوم اكبر مدرسة ثانوية رسمية ببرج البراجنة وهي الثانوية التي تضم ١١٠ مدرسين واكثر من ٢٤٠٠ طالب وطالبة ، ويقول ابراهيم لقد انخلع حذاء الصافي في هذه المظاهرة ، وهو يهرول مع المهرولين وحين نبهه الى ذلك قال : لقد مشى النبي محمد حافياً ومشى قبله المسيح حافياً ، فما قيمة حمشاي حافياً في هذا

السبيل ؟وسجن الصافي ، وانطلق الشعر من فمه في السجن فاذا به يؤلف ديوانا كاملا باسم (حصاد السجن) والغريب ان الذي تولى تقديمه في الطبع كان رئيف الخوري ووجه الغرابة بعد ذلك ابيات من شعر الصافي اعقبتها ابيات اخرى ما لبثت ان غيرت رأي رئيف في الصافي واذا به يتقدم من تلقاء نفسه فيعرض على الصافي استعداده لتقديم هذا الديوان ديوان (حصاد السجن) الى القراء وينسى الخوري كرهه الذي حدثني عنه الصافي نفسه وينسى الخوري اختلافه مع الصافي في الرأي.فقد كان رئيف الخوري متطرفا في اليسار في حين كان الصافي متطرفا في اليمين ، متفانيا في حب العرب والعروبة وكتب الخوري مقدمة تعتبر من اهم العروض للذين زجوا في السجون من رجال الادب . . والفكر والشعر في التاريخ .

ثم قال رئيف بعد ذلك عن شعر الصافي ما يلي :

« هذا شعر ان فاتني شرف نظمه فلن يفوتني شرف نشره فاذا بي الان وقد اكرهتني ظروف قاهرة على التنازل عن شرف نشره ارى حسبي ان اقف بعتبة هذا الديوان أأخذ بأيدي رائديه الى داخل عتبة الهيكل وابقى عندها ويقيني ان رائديه سيقبلون على الديوان كثيرا وسيوافقونني على قولي انه اغزر مجموعة من شعر السجون لشاعر واحد في الادب العربي قديمه وحديثه بل انفس مجموعة شعرية في هذا الموضوع تشارك شعراء العرب افضل معانيهم في هذا الباب ، ثم تبزّهم على الجملة سعة واغرابا وعمقا » .

ويقول الصافي في سجنه هذا :

حبست وضاق الحبس بي حين زج بي ... الى غرفة ظلماء محكمة السد
فقلت علام الحبس ؟ لا انا سارق ... ولا آثم عمدا ولا دون ما عمد
ولما رأيت الذنب خدمة موطني ... حلا السجن حتى خلته جنة الخلد

وكان قد بلغ الصافي ان مذاكرة تجري بين السلطات الانكليزية والفرنسية واللبنانية والحكومة العراقية لاطلاقه من السجن قال :

حكومة لبنان قد راجعت ... فرنسا لفكّي فلم تستطع

وراحت فـرنسـا إلى الانكليـز تـراجعهـم جـل من مـرجـع
وقـد راجـع الانكليـز العـراق ولـلـيـوم بـالامـر لم يـصـدع
فقلت اعجبوا ايها الـسـامعـون ويـا ايها الخلق قـولـوا معي
امن قـوتي صـرت ام ضعفهم خـطيـرا عـلى دول اربـع

وقال لي الصافي بعد ذلك ان صالح جبر ـ وكان يومذاك وزيرا للداخلية ووكيلا لوزارة الخـارجيـة ـ هو الذي ـ سعى لدى السلطات الانكليزية في اطلاقي فاطلقت .

ومن الامثلة على كرهه للانكليز قوله فيهم :

احـارب جيش الانكليـز لانني وقفت على نصر الحقيقة مخذمي
احـاربهم حـربي لكـل رذيلة الى كل شيطان الى كـل ارقم
اخـاف اذا ماتـوا تموت ابـالس فابقى بلا لعني لهم نصف مسلم
تحـاربهم روحي وكفي ومنـطقي وان هم نووا قتلي يحاربهم دمي

وساءت حاله الصحية وهو في السجن فنقل الى المستشفى وفي المستشفى لقي من الاطباء وكلهم كانوا يعرفونه عناية فائقة وباشر الاطباء بأجراء فحوص طبية عامة له ، وكان اكثر الساعين للافراج عنه من السجن قدري القلعجي الذي كان يراجع بشأنه الحكومة العراقية والسلطات الانكليزية والفرنسية وقبل ان تتم فحوصه الطبية ومعالجته صدر الامر بالافراج عنه فلم يسع الاطباء الاستمرار في معالجته لخضوع المستشفى للنظام العسكري فصب الصافي جام غضبه على قدري القلعجي الذي كان في طليعة الساعين لاطلاق سراحه وعن طريق الدعابة صار الصافي يلعن القلعجي وينسب لمسعاه في خلاصه من السجن وقوعه في المرض لانه خرج من السجن ولم تتم بعد فحوصه الطبية ؟؟

وانتابت الصافي طوال اقامته بسوريا ولبنان امراض كثيرة كان ابرزها قرحة في المعدة الى جانب الدوسنطاريا المزمنة وضيق في النفس الى جانب التهابات رئوية راسخة وضعف في الأعصاب ، ويجد القارىء الشيء الكثير من شواهد علله في شعره كقوله :

لا تسلني عن جديد الخبر بل فسلني عن جديد الخطر
انا من فرط سقامي دائما عائش عيش امرىء محتضر

كما يقول :

يرى الطبيب بجسمي ما اشتهى عللا كأن جسمي اضحى سفر امراض

وفي الشتاء كانت تشتدّ عليه الازمات الرئوية والمعوية وطالما حثثته انا على العودة الى العراق في الشتاء والرجوع منه صيفا الى سوريا ولبنان وكتبت له ذات مرة بهذا المعنى في ايام الحرب من شتاء سنة ١٩٤٢ وكان قد مر على غيابه نحو اثنتي عشرة سنة فكتب لي يقول :

« اما ما ذكرته من امر رجوعي الى العراق فأنت تعلم اني منذ حللت في هذه الربوع ما فتر شوقي الى العراق والى الاهل والخلان والى ذكريات الصبا التي امتزجت بروحي ودمي ـ واشهد الله اني في هذه الاثنتي عشرة سنة لم انو الاقامة يوما واحدا في هذه الارجاء مهما حوت من مسليات ومنعشات فقد مرت علي هذه المدة وانا اشعر اني اعيش في حديقة مستشفى انتظر الابلال من مرضي والأذن لي بالخروج واقسم لك بكل المقدسات اني كلما عرضت لي فترة من الشعور بالصحة ولو يوما او يومين فكرت للحال بأمر العودة الى العراق ولكن لا اكاد افكر بذلك حتى يعود الي المرض واستيقظ من حلم الصحة الجميل على وخزات الالم وجرح السقام وانت تعلم اني عدت من طهران الى العراق بصحة لا بأس بها واذا بالمرض يوصلني الى حافة القبر واظنك لا تنسى الحالة التي وصلت اليها فكيف اعود اليوم الى العراق وانا اشكو اشد الالام وقلما تتركني الحمى رغما عن وجودي في اجمل المصايف وقد كشف الفحص الاخير عن اني مصاب بألتهاب مزمن في المعاء الغليظ وهو يحتاج الى مداواة طويلة من حقن وابر لا تساعد الظروف على تطبيقها .

وهب اني غامرت بصحتي وعزمت على الرجوع الى الوطن المقدس ولو مدة الخريف والشتاء عن طريق القطار فاعلم اني لا استطيع مواصلة الركوب في القطار هذه المسافة الشاسعة ولا بد من تقطيعها الى مراحل تكلفني مصاريف باهظة لا

استطيع القيام بها مع هذه الديون التي تراكمت عليّ من انقطاع موارد الطبع والنشر » .

- ١٠ -

كان الصافي ينتظرني في كل صيف بشوق ولهفة وانا انتظر الصيف لاحظى برؤ يته بأكثر من شوقه ولهفته وقد قلت انه اعتاد ان يحييني بآخر منظومه الذي لم يتمه بعد او الذي اتمه قريبا ولم ينشره فيهديه لي وتنشره الصحف له هدية يخصني بها في صدر القصيدة وقد كان من ذلك قصيدة بأسم (رواد ابولو ١٣) الذين وجلت القلوب خوفا عليهم من الوفاة وقد ـ نشرها الدكتور سهيل ادريس في العدد السابع من مجلته (الاداب من سنة ١٩٧٠ والتي يقول فيها الصافي :

على رواد (اوبولو) حزنا وهاج بنا اضطراب وانتخاء
فشرنا لاستعادتهم جميعا اليس الكل يجمعنا الاخاء
اليسوا مثلنا ابناء ارض فخفنا ان تصادرهم سماء. .اخ

واهدى لي في صيف ١٩٧١ قصيدة نشرها الاستاذ البير اديب في مجلته (الاديب) وقدم لها هذه المقدمة التي تشرح الدواعي التي هاجت قريحة الصافي وجاء في مقدمته ما يلي :

(عشرون سنة متواصلة والشاعر الصافي النجفي يرتاد متنزها بين بعض الشجيرات وفي جوار مقهى متواضع من (ربوة دمشق) يقصده في كل يوم من ايام الصيف فيفرش له القهواتي بين تلك الاشجار حصيرة من حصره المتواضعة، ويجيء له وسادة ويصدع بأمره فيشتري له من الحبوب حفنات لكي ينثرها للبط والوز الذي يسبح هناك وللطيور التي تتجمع حوله والتي الفته فصارت هي والبط تلتقط الحب من بين يديه ، وقد اصبحت تلك الحصيرة بين تلك الاشجار والى جانب ذلك القهواتي مفرش لذة الصافي ومبعث وحيه طوال هذه السنين العشرين ويجيء الصافي في هذه السنة الى ذلك المتنزه فيجد المقهى الصغير مبعثرا والشجيرات مصوحة وليس هناك غير تلك الطيور المحوّمة على تلك الصومعة ـ صومعة الصافي والبط الذي يروح ويجيء

في ذلك النهر الصغير لان القهواتي كان قد مات والمكان قد خلا من كل انسي يتخذ منه منتجعا كالسابق فبكى الصافي واستحالت دموعه قصيدة رثاء لذلك المأتم الذي سماه (بمأتم متنزه) وقدمها لصديقه جعفر الخليلي الذي ـ كثيرا ما نعم بمثل هذه الهدايا النفيسة الغالية من صديقه (الصافي) في كثير من المناسبات) .

ثم نشر (الاديب) القصيدة تحت هذه المقدمة بعنوان مأتم متنزه ـ مهداة لجعفر الخليلي :

انا ارثي في الشام عندي مقاما ... كان خلدا لدي عشرين عاما
هو سهل في شاطىء النهر نضر ... لي يهدي الابداع والالهاما
كان مأواي كل يوم هجير ... ومقيلا ومنظرا ومقاما
عميت اكثر النواظر عنه ... وسروري إن تعم او تتعامى
تركتني في جنة الخلد وحدي ... لست اصغي للغو يدعى كلاما
يسمعون الضجيج من (راديات) ... ومن الطير اسمع الانغاما
سامعا دونهم غناء السواقي ... وحفيف الاوراق والانساما
حيث وزّات نهره ألفتني ... تتوخى من كفي الإ طعاما
ولكم بالجناح قد صفقت لي ... ومناقيرها تضج احتراما
يتظاهرن فرحة بقدومي ... مفصحات بالزقزقات كلاما
صائحات يوقظنني من رقادي ... طالبات عواطفا وطعاما
ويحدقن بي فأفهم منها ... الف معنى يحيّر الافهاما
حسبتني المسؤول عنها تماما ... لم اخيّب ظنا لها ومراحا
ان اسافر عنهم اوكلْ وصيا ... يتولى عني لها الاطعاما
طول عامي ابقى افكر فيها ... فكأني لها احس غراما
ارتجي الصيف مسرعا لي يأتي ... حيث يطفي لنا اللقاء الاوام
كم اثارت تعجبا وهي تعدو ... مسرعات اليّ واستفهاما
هي لي اسرة وكل حنان ... ونوال يؤلف الارحاما
كن سبعا ، واربع متن منها ... معقبات في مهجتي آلاما

* * *

عـدت في لهفة بصيفي هـذا ... فاذا الشاطىء استحال ركاما
واستحـالت اشجـاره لصخـور ... واستحال الجو اللطيف قتاما
جعلوا الروض مأربا لانتفاع ... واذا الانس فـر منـه انهزاما
تـركوا بـين دوحتين مكـانـا ... لي فيه والشمس تذكو ضراما
نمت فيـه كـأنني في جحيـم ... رحت اشوى وما اقترفت اثاما
رحت ارضي نفسي به دار ذكرى ... مثلما دارسو الطلول احتراما
رحت ابغي نوما فأبصر حلما ... بـاكـيـا فيّ تـلكـم الايـامـا

* * *

واذا الـوزّ مسـرع لي يعلي ... زقـزقـات اطـارت الاحـلامـا
رحت ابكي حزنا عليها بقلبي ... اذ فقـدنـا هنـاءنـا والمقـامـا
رحت ابكي لهـا ابـا في يمضي ... عن حـماهـا قسـرا فتحيا يتـامى
ليتني حـامـل لهـا اين امضى ... صاحباتي في الصيف عاما فعاما
هي لم تنسني اذا مـر عـام ... حـافظات عهـدا لنـا وذمـامـا
كان حظي من جنة الشام روضا ... صار فقدي له لانسي ختاما
كـان في الشـام جنتي ومصيفي ... فسالقى في كـل صيف هيـامـا
كـان بـردا لمهجتي وسـلامـا ... صـار نـارا تـذيبني وضـرامـا
سوف يبقى لذلك الروض جرح ... في فؤادي هيهات يلقى التآما

احمد الصافي النجفي

وفي شتاء احدى السنين جئت الى بيروت للاشراف على طبع احد كتبي وكان قد اصاب لبنان قحل ومحل شديدان لقلة الامطار في تلك السنة ، فقال لي الصافي بهذا المضمون : لانت اجدر ان ينشد فيك هذان البيتان يا جعفر ، وانشدهما قائلاً :

ولقد مررت على (العقيق) واهله ... يشكون من مطر الربيع نزورا
ما ضرهم ان كان جعفر جارهم ... ان لا يكـون ربيعهم ممـطورا

وفي ١٦ شباط من سنة ١٩٥٧ كنا قد تصورنا معاً فكتب لي تحت الصورة البيتين اللذين ذكرتهما من قبل واللذان يقول فيهما :

الى اخي جعفر الخليلي :

انظر لرسمي واذكر به عهود التلاقي
لوفاه يوماً لأبدى اليك فرط اشتياقي

وحين جاء الصافي الى بغداد كان قد كف بصره الا قليلا من بصيص يكاد لا يرى منه الا الأشباح فأهدى لي هذه الابيات وارسلها الى مجلة (الف باء) وبحضور جمع كان من بينهم سالم الالوسي واحسب ان المجلة لم تنشرها وفي صدرها مقدمة تشرح سبب نظم هذه الابيات التي يقول فيها :

حفلت بغداد بي ترفع شاني وتغالي
رؤيتي بغداد احلى لي من الف احتفال
حلما كانت بنفسي شاغلا كل خيالي
دائما اسمع عن ادراكها حد الكمال
حرمت من حسنها عيني في يوم الوصال

ومن محبته لبغداد ولم يطق ان يراها بعينيه يوم وصوله فيها قال عنها :

يا عودة للدار ما اقساها اسمع بغداد ولا اراها

وصار هذا البيت مثلا لمحبته على الرغم من كثرة شعره في حب العراق . . . وبغداد خاصة ومنها قوله :

ان البلاد كما الحسان تفاوتت حسنا وان عروسها بغداد

وقوله من قصيدة طويلة يحن بها الى العراق :

يا عراقي برغم طول الفراق فيك تشدو جوانحي يا عراقي
وانا العاشق الذي بك اضحى في دنا الحب سيد العشاق

الى ان يقول :

افـأبـقى ذاك الـغـريب المـعـنى يـا الهي متى يكـون التـلاقي ؟

- ١١ -

ويسأل البعض حين يعرفون زهد الصافي وقناعته وتركه للذّات الدنيا وخصوصا اذا قرأوا له امثال هذا البيت :

ارى شعـراء يعشقـون غـوانيـا من الشعر يحكين العصور الخواليا
غـوانيهم في كـل يـوم بحلّة ويخلق فكـري كل يـوم غوانيـا

قد يسألون : وهل الصافي يحب غير غواني الشعر غواني من النساء ؟ لا سيما وقد عاش اعزبا وكانت له ابنة عم سميت باسمه فحللها من هذا الارتباط بالاسم ولم يتزوج، وقد يسألون هل انه بعيد عن هواجس الحب والشعور بجمال المرأة ؟ وهو سؤال لا احسبه واردا حتى وان خلت دواوينه ، وهي لم تخل من تصويره جمال المرأة واثرها في النفس ما دام رقيق الشعور مرهف الحس نابض القلب نافذ النظرات وماذا تريد منه اكثر من قوله الذي بز اقوال الكثير من الشعراء المحبين الصادقين في حبهم والمعروفين بالرقة ؟ ماذا تريد اكثر من قوله وهو ينظر الى جمال المرأة :

لـيس عـيـنـاي لي بـكـافـيـتـين فـوق عينيّ ابتغي الف عـيـن

قال لي مرة ونحن في مجلس استعراض للحب والجمال وسحر العيون قال لي : دعتني آنسة اديبة ببيروت وهي من اروع النساء جمالا واناقة واشراقة وجه وبشاشة ، قال لقد دعتني الى بيت والديها لتناول العشاء عندهما وجاءت تقلني بسيارتها وقد ركبت الى جانبها وكان العطر يفوح منها فيحلق بك في سماوات من النشوة التي تخلب لبك فكيف وهي الاية من الجمال الذي لم يستطع للان اي شاعر ان يسبر غوره وهنا يقول الصافي لقد نسيت نفسي ولكن لم انس ادبي فاستأذنتها سائلا : أأستطيع ان انعم بقبلة منك ؟

قالت : ولم لا ؟

قال الصافي ، وادنت خدها من شفتي (وقبلتها يا جعفر ، لقد قبلتها طويلا!!)

ـ وهذه عبارته :

وشعرت والله وهو يضع يده على كتفي بأن الفرحة تطفح على وجهه كما لو كان بدأ يقبلها الآن وان طعم القبلة لا يزال في فمه .

واحسب ان هذين البيتين اللذين يقول فيهما الصافي :

تمنيت من خدّي حبيبي قبلة وما خده الوضاء غير شعاع
فجاد بها لكن بوقت وداعه فيا ليت كل العمر وقت وداع ـ

احسب ان هذين البيتين ربما كانا في تلك الآنسة الساحرة الاديبة ولم اكن استحضر هذين البيتين لأسأله فيمن قيلا .

وماذا يريد السائل من حب الصافي اكثر من قوله :

يا رب شوه لي وجوه الغيد كيلا اعذب منهم بصدود

وذلك لما تأخذ منه الغيد من انفعال مشوب بالحرمان فيدعو الله ان يشوه هذه الوجوه الساحرة ما دام يحب ويعشق ولا يطيق صبرا على حبه .

ويقول اكرم زعيتر وهنا اذكر قول امين الريحاني عن الصافي اذ يقول الريحاني « . . . فالدمامة امه ، والبؤس والده ، والسقم اخوه ، والفقر ابن عمه ، اما الروح فهي سليمة قوية ، بل هي روح جبارة في هيكل سقيم » .

وحين كنت انزل بسوق الغرب وكان يتفضل الصافي عليّ بالزيارة كما اشرت الى ذلك وكان لي في سوق الغرب صديق قديم هو الدكتور امين زهر تعود صلتي به وبآله الى ايام اشتغاله طبيباً في النجف ، فكان هذا الصديق يدعونا الى العشاء في كل ليلة يكون الصافي عندي فننعم انا والصافي بسهرة تمتد الى ما بعد منتصف الليل ويحضرها رجال ونساء من اسرة الدكتور واسرة قرينته وتعمر سهرتنا بقراءة اشعار الصافي حتى لقد يستكتبونه اياها وكانت لقرينة الدكتور زهر اخت اديبة تعمل معلمة وذات جاذبية وخلق رضي ولطف ويبدو انها وقعت من عين الصافي موقع الالتفات لكثرة ما كان يطلب منها ان تقوم وتقعد بأغلاق الشبابيك مرة وفتحها من جديد مرة اخرى ثم

الطلب منها بأن تعد له شايا خفيفا على الرغم من وجود الخادمة التي تقوم بمثل هذا ، الى غير ذلك من تسخير وتكليف كانت تتلقاه الست (سامية قائد بيه) بكل سرور وفخر وهي شقيقة طبيب امراض القلب الشهير الدكتور (سامي قائد بيه) الاستاذ بكلية الطب في الجامعة الامريكية ببيروت واحد كبار اطباء المستشفى الاميركي في امراض القلب وكثيرا ما كان يحضر مجلسنا هذا اذا علم بوجود الصافي .

وكل هذا الاهتمام من الصافي بالست سامية قائد بيه لم يلفت اهتمامي انا .

ومرت سنتان او ثلاث سنوات كان يتكرر هذا الاهتمام من الصافي بالست سامية كلما دعينا الى بيت الدكتور امين زهر في ايام الصيف لتناول العشاء وقضاء السهرة حتى توثقت عرى الصداقة والمحبة بين آل زهر وآل قائد بيه واحمد الصافي ، وقد زارهم الصافي ذات يوم ـ ولا ادري اين كنت انا ـ وكانت الست سامية قد اعتادت قضاء بعض ايام الصيف في بيت اختها قرينة الدكتور زهر فطلب منها الصافي ان تعد له الشاي والشاي الذي ـ يعدونه آل الدكتور زهر هو كشاي العراق تماما وقد تعلّموا كيف يحافظون عليه لئلا يغلي ولكي (يتخدر) على حد اصطلاحنا نحن العراقيين منذ ان كانوا في العراق واذ جاءت (سامية) بالشاي طلب منها الصافي ان تجلس بالقرب منه وكانا وحدهما في غرفة الاستقبال وهناك قال لها الصافي :

ـ منذ زمن وانا احاول ان اخلو بك لاقول لك انني احبك فلم يتهيأ لي ذلك وكلي رجاء ان لا يعرف الخليلي ذلك عني ـ واظنه كان يخشى ان الومه على عشقه لاحدى بنات بيت تعرف عليه عن طريقي ـ وانا يقول الصافي لسامية كلف بك لم تغيبي عن ذهني وقد نظمت فيك هذه المقطوعة الشعرية وقسما انني لم ابالغ فيها ورد فيها فكل ما جاء هو عين ما يجول في ذهني ويحس به قلبي وناولها القصيدة التي تحتفظ الست سامية بها وهي بخط ـ يده يقول فيها :

خلقتِ حبيبتي لما خلقنا ... فغيم لتيتني بعد الشباب
لقد كنا نتيه بقفر حب ... ظماء لا نعب سوى السراب
فليس اليوم يروي منك شوقي ... ولو اني شربتك كالشراب
عرفتك بالضمير ولم يبن لي ... خيالك في ملامحه العذاب

ولما ان رأيتك قلت شمس اضاءت لي وكانت في غياب
كأنا زورقان قد التقينا هوالِكَ في مصارعة العباب
تماسكنا حنانا واتحدنا اقارب نلتقي بعد اغتراب
تلاقينا وقد ولى شبابي فأرجع لي اللقا عهد الشباب
شباب جل عن نزق وطيش فما تخشى العواقب في الحساب
سيحسدنا الشباب على هوانا ويدرس عندنا فن التصابي

ايلول سنة ١٩٦٨

احمد الصافي

ولم يبد من (سامية) ما يضيره وبالعكس فقد شكرته وقالت انها لتفخر ان تقع من نفسه في مثل هذه المنزلة ثم اخبرت اخاها الدكتور سامي قائد بيه واطلعته على القصيدة فقال لها الدكتور سامي اياك ان تريه وجها غضوبا فتضجعيه في حبه هذا ـ لأن آل قائد بيه من الدروز والدروز جد محافظين ـ وتذكري ان الرجل شاعر ولربما يعاني من الغربة والوحدة ما يعاني فجاريه ولا تضيريه ، فقالت سامية وهكذا فعلت والله ولم انكر عليه عشقه وغرامه ، وتغزله في ، بل لقد شكرته على ذلك ، فسر كثيرا ، ولقد اخبرتني سامية بذلك وقرأت علي تلك المقطوعة وتظاهرت انا امام الصافي في كل تلك السنين بأني لم اعرف شيئا عن حبه وقلّت بعد ذلك رؤيته لسامية ، لان زيارتها لاختها ولسوق الغرب لم تكن دائمة وكان . . . يسألني الصافي عنها فأجيبه بما اعرف وانجاهل معرفتي لحبه وكانت سامية تساكن اخاها الدكتور سامي قائد بيه ببيروت يومذاك وقبل ان يبنوا قصرهم الكبير بشملان ، وانا على يقين انه لم يلتق الصافي بها بعد ذلك وظل هذا الحب يغمر كل وجوده حتى مات .

يقول (ربيع ديب) وهو من (شحيم) بلبنان : ان الصافي اجاب دعوة أديبة لبنانية وقد أصرّ على عدم ذكر اسمها كانت تدعي غرامها به ، وقد زارها في مكتبها ، حتى اذا جلس شرعت آلات الهاتف الكثيرة فوق مكتبها ترنّ الواحدة تلو الأخرى ، والمرأة تلتقط سماعة مرة ، وسماعتين مرة اخرى ، ولما طال بها الوقت وهي منشغلة بمكالماتها الهاتفية ،تناول الصافي ورقة من المكتب وكتب عليها هذا البيت :

وكيف الترجي منك صدق العواطف وقلبك مقسوم على الف هاتف ؟

ثم خرج دون ان تشعر به !!

وغير هذا يجد القارىء في شعره عروضا للحب الذي ربط قلبه بغير واحدة فلم يطق شعره ان يخفيه ، ومن المؤسف ان يفوتني ان أسأله عمن كان يعني من الحبيبات بهذا الشعر لان الصافي حين يلتقيني فنغوص انا واياه في بحر من المرح والضحك الذي ينسيني انا وينسيه هو الدنيا كلها وكان كثير الثقة بي حتى لقد حفظت من شعر دعابته المسمى (بالادب المكشوف) الذي لم يقرأه على احد غيري وهو من اجمل وابرع ما لها فيه لاه من نوابغ الشعراء ومع ذلك فقد عرفت فيمن عرفت (ماري) الراهبة الجميلة الدمشقية التي كان يلتقيها الصافي في بيت اهلها وكانت تهم بدخول الدير لانها كانت منذورة وقد وله بها الصافي واحبها ثم دخلت الدير فكانت تزور اهلها في اوقات معينة وكان الصافي يعرف اوقات وجودها عند اهلها فيزورهم ولقد عرفت انا ماري الراهبة وهي وان كانت صبيحة الوجه وفيها شيء من الجاذبية ولكنها كانت دون سامية قائد بيه جمالا وروعة بكثير وقد قال الصافي فيها :

قالت سأنأى عن الدنيا بصومعة قلت اجعليها بحق الله لاثنين
فهل تضيق بدنيا الحب صومعة تحوي مليكين بل تحوي ملاكين
ما نحن لما اتحدنا بالصفات سوى روح وان حسبت في العدّ روحين
روح من الملأ الاعلى قد انقسمت بين العراق وبين الشام نصفين
فهل توحدنا دار تكون لنا كالقشر يجمع في احشاه لبين
كلاهما لاجيء في قلب صاحبه من عالم الناس او من عالم الشين
وهل تضيق بدين الله صومعة عن ضم حرين بل لله عبدين
لا غرو اذ كلنا لله منقطع ان ضمنا الله منه تحت جنحين
الله ثالثنا في جوف معبدنا ولا اقول الهي ثالث اثنين

أما تلك الحسناء المسيحية الجميلة التي استلفتت انظاره وهي تسوق سيارتها الرفيهة الأنيقة فلا اعلم ما اذا كانت له سابقة معرفة بها ام انها قد خلبت لبه من اول نظرة وبدون سابقة وهو الارجح عندي وهو كل ما كان قد عرف عنها اذا كان قد

عرفها ـ وهو المستبعد عندي ـ وهذا وغيره مما فاتني ان اسأله عنه فقال فيها :

غانية فاقت على جيلها ... وحق قُرآني وانجيلها
ساقت اوتوميلا رقيقا لها ... يجري رخاء وفق مأمولها
رقيق سير صوته كالغنا ... بأعذب النغمة مقبولها
كأنه الطيف اذا ما سرى ... في ساحر المقلة مكحولها
الطف ما قد صيغ من جيله ... فيه التي الطف من جيلها
اخر موديل جمال كما ... موديله حلو كموديلها
نشوان من نفحة ارداتها ... يختال اذ خص بتفصيلها
اضحى مليكا بين اترابه ... متوجا منها بأكليلها
أحيته فهي الروح حلت به ... بلمس كفيها ومنديلها
مرت كما مرت بنا نسمة ... من عاطر الازهار مطلولها
تعلق القلب بها فأغتدى ... يحوم كالطير لتقبيلها
اهوى ركوبا لي في جنبها ... اولا فدعاً بأتوميلها

والشيء الذي انا متأكد منه او قل شبه متأكد على الأقل انه كان في كل حبه خائبا واني لأستبعد ان يكون حب المرأة له حبا متبادلا من ناحية العاطفة الجنسية وانما هو حب اعجاب من المرأة بشعره ورقته واكباره واحترامه ذلك لأن الصافي لم يكن يعنى بهندامه وملبوسه وبالأتكيت المألوف في المجتمع ثم هو لم يكن من الجمال الذي يجذب امرأة حسناء لها نضارة الوجه واناقة الملبس وحسن السليقة والذوق كسامية قائد بيه وقد بالغ الصافي في دمامة وجهه وقبح صورته حتى قال في ذلك :

طبيعة الكون في خلقي لقد غلطت ... فلو بأية حيوان تبدلني

وقال اكثر من ذلك حين قال :

لذاك تبدو لعيني المرآة بعض الخصوم
اني لأرثي لعين ترنو لوجهي الذميم
لو كان وجهي بكفي القيته في الجحيم
لو ان ربي براني طيرا براني كبوم

ابيع جسمي بدين لو صح بيع الجسوم

صحيح انه قد بالغ في دمامة وجهه الذي يشبه كثيرا وجه الزعيم غاندي كانهما توأمان ولكنه لم يبالغ في اهماله لمظهره حين قال :

انتم نظرتم ظاهري فضحكتموا ونظرت باطنكم فعدت ضحوكا
فلنبق نضحك لست قط بظاهري اهتم ان يك باليا مهتوكا
كلا ولستم تحفلون بباطن ان كان باطنكم غدا مهتوكا

وفي مذكرات اكرم زعيتر ان الصافي نشر مقالاً في جريدة الجزيرة الدمشقية ، حول المرأة التي يريدها ، فعدد الشروط ، وقال :

« على ان لا تطلب مني مالاً ، ولا جمالاً ، ولا كمالاً ، لأني لا اطلب شيئاً منها ، وان لا تطلب مني صحة لأنني مصاب بضعف في القلب ، وتضخم في الكبد ومرض في الكلية ـ هو داء الرمل ـ وضعف الاعصاب ، والتهاب الحنجرة وغيرها . . » .

- ١٢ -

وللصافي عشرة دواوين مطبوعة بأسماء مختلفة كالامواج ، والاغوار ، والتيار ، والحان اللهيب ، وهواجس ، وحصاد السجن ، وشرر ، واللفحات ، والشلال ، وقد طبعت له (دار العلم للملايين)ببيروت ستة منها، هذا عدا ترجمته لرباعيات الخيام وقد قال لي ان له من الشعر الذي لم يطبع بعد ما يساوي ديوانين واكثر وكان يحرص على هذه المجموعة التي بقيت في مسكنه ببيروت حين سقط في الشارع جريحا بالرصاص فبادرت جارته المسيحية التي كانت تعنى به هي وزوجها وسلمتها للسفارة العراقية وهذه سلمتها له في المستشفى وقامت وزارة الثقافة والفنون اخيراً بطبعها في مجلد ضخم .

وله غير هذا ترجمة ممتازة من الشعر الفارسي باسم (صفحات من الادب الفارسي) ،وقد طلب منه عبد الوهاب عزام ان يبعث بها اليه في القاهرة ليقوم بتقديمها وطبعها له هناك وكان الصافي مهتما بهذه الصفحات ثم استصغر شأنها بعد ذلك ورأى

انها بحاجة الى اعادة نظر لانه كان قد ترجمها على عجل على ما قال لي ، وقد كتب لي عنها يقول : ان بعض الادباء قال له حين تأجل تقديم هذه (الصفحات) للطبع « لا بأس ان ـ تحفظ هذه الصفحات كأثر(من آثاري) يطبع بعد مماتي وقد اصغيت ـ انا ـ لنصائحكم وعدلت عن طبعها وسوف تطلع ـ انت ـ عليها متى قدمت الى سوريا لترى رأيك فيها » .

وما عدا الشعر فان له في النثر كتاباً باسم (هزل وفكاهة) يلمس فيه القارىء روح الصافي المرحة المتفتحة .

واخذ بعض الادباء على الصافي تعاليه في شعره ولم يستسيغوا منه هذا التعالي وقد اشاروا الى ذلك في مقالاتهم وكان في مقدمة اولئك الاديب الناقد مارون عبود واكثر هذه المآخذ التي لم يستسيغوها كانت من قبيل قول الصافي :

سموت بشعري فوق جيلي ولم يزل ... يشك بشعري معشر البلهاء
فان لم اكن من امة الشعر واحدا ... اكن امة اعلى من الشعراء

أو مثل قوله :

كل بشعري واجد نفسه ... ففيه اسرار الورى مودعه
شعري ينمو مع سن الفتى ... ينمو حجاه وهو ينمو معه

ومثل قوله :

مرآة هذا الوجود شعري ... تبصر عصري بها وذاتي
ان مثلت في الحياة عيبا ... فالعيب لا شك في الحياة

ودافع عن اقواله هذه ادباء اخرون كان منهم سعيد الجزائري الذي قال ان ليس في ابناء عبقر من لم يقل (انا . وانا . وانا) وقد قالها المتنبي اذ قال :

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي ... واسمعت كلماتي من به صمم

ولكن الجزائري عاد فأخذ عليه تلك المآخذ وقال: ان الصافي كان يرى شخصه انه فوق جيله لا فوق شعراء جيله فحسب، وانه هو الشاعر الواحد في امة الشعر،

واين ؟ ومتى ؟ وذلك في الزمن الذي كان فيه احمد شوقي ، وحافظ ابراهيم ، وخليل مطران ، وشفيق جبري وبدوي الجبل . . . » .

وكان الصافي يعجب بالكثير من الشعراء المتقدمين والمتأخرين ولكن اعجابه هذا بدأ يقل كلما تقدم في السن حتى اقتصر على المتنبي من المتقدمين وعلى ابي ماضي والياس فرحات من المتأخرين بل لقد قلّ هذا الاعجاب او انعدم اخيراً عن الكل حتى المتنبي » ويوم كنا نجتمع انا وهو كان يشير الى الذين يثيرون اعجابه بشعرهم ، وقد كتبت لالياس فرحات بما كنا نستعرض انا والصافي من اشعار المتقدمين والمتأخرين وعن رأي الصافي فيه فكتب لي يقول في احدى رسائله :

« . . . وكم تمنيت لو اني كنت اتلصص عليكم من خلف الباب . . واسمع حديثكم عني وعن زملائي بل زميليّ ابي ماضي والقروي ، وأتنصت بلذة الى حديث (البدوي)الصافي الذي ـ كما قال لك ـ قد اجتمعت به غير مرة في لبنان ، وقد زارني في(كفرشيما)ثم التقينا في بيروت في مكتب الاستاذ البير ريحاني،وقد دخلت المكتب فوجدت الصافي جالساً القرفصاء اعني متربعاً فوق كرسي هناك وحضنه مملو بالاوراق ولم يكن صاحب المكتب موجوداً ، دخلت وسلمت فردّ السلام دون ان يرفع نظره عن اوراقه الي ففهمت انه مهتم بتصحيح اخطاء مطبعيه لانه كان يطبع احد دواوينه ، وانه لم يعرفني ـ وانا الاخر لم اعرفه ـ فقلت له ـ من باب الدعابة ـ متحرشا به كبدوي يقرأ ويكتب ـ لقد قلت له : الظاهر انك تحسن القراءة العربية . . . ؟ فاجاب دون ان يرفع رأسه بعض الشيء وقال: انا الصافي النجفي: فقلت له : وانا الياس فرحات ، فقفز عن كرسيه وقفزت اوراقه من حضنه ، بالطبع ، وضمني وضممته ، وجمعنا الاوراق المبعثرة وضحكنا ، ولم نفترق الا بعد ان مضت على لقائنا ساعات . . »

وقورن تعالي الصافي بتعالي احمد شوقي الذي تألب عليه فحول الادباء في عصره مثل العقاد وعبد الرحمن شكري والمازني واتباعهم وقيل لقد ترفع شوقي ان يقول شيئا الا في عرض الكلام ودون ان يسمي مهاجميه الذين ندموا بعد ذلك وكان العقاد في مقدمة النادمين والمستغفرين وان كل ما قاله شوقي في تعاليه هو هذا :

كان شعري الغناء في فرح الشرق وكان السعزاء في احزانه

وكان رئيف الخوري ، من هؤلاء الذين هاجموا الصافي حتى لقد قال لي الصافي بأن الخوري يكرهه ولكنه كان بعكس مارون عبود اذ رجع الخوري عن رأيه كما رجع العقاد عن رأيه في شوقي . ولم يرجع مارون عبود .

ومن المآخذ التي اخذها سعيد الجزائري على الصافي ـ والجزائري صديق مقرب للصافي ـ قوله عنه : « ولقد رأيته يمعن في مسايرة الشاعر العملاق محمد مهدي الجواهري مواطنه وابن بلده ونحن في جلسة ثلاثية في مطعم سقراط في دمشق وانا اعرف رأيه الصحيح في الجواهري » .

فأينما يرد الناقدون ان يضعوا احمد الصافي بين الشعراء فانهم لا ينكرون انه احد كبار شعراء عصره وان له من ميزة (السهل الممتنع) في الشعر الشيء الكثير، واكثر ما يصور في شعره فانما يصور نفسه فيأتي بالمبتكر من المعاني، والصور، ومن هذه المعاني قوله في السيكارة كما ذكرت ذلك من قبل :

تخذتها امةً حتى غدوت لها عبدا وها انا افنيها فتفنيني

وقوله وهو يسخر بلقب الاستاذ :

وغبي سميته استاذا وهو في جهله من الافذاذ
قيل هل رمت رفعه قلت كلا رمت اسقاط كلمة الاستاذ

ومن هذا القبيل قوله في شخص كان الصافي يستصغر شأنه فقيل له ان هذا الشخص قد قتل صلا فوجه الكلام له قائلا :

زعمت بأن اردَيت صلا بضربة وما خلت قبل اليوم انك صنديد
فلا شك ذاك الصل قد كان دودة والا فكيف الصل يقتله الدود ؟

ومن جميل قوله :

يقولون ان الخطب للشعر منبع وكم يبديع الشعر خطب الفتى يوحي
فلا تخش ضغطا سوف يخرج لؤلؤا فقلت اخاف الضغط يخرج لي روحي

ومن شعر الفكر قوله :

كل يوم ازيح عني ثوبا ... باليا من عقائد الاحقاب
آملا ان اعري النفس حقا ... من لباس يشينها وحجاب

غير اني ان انض ثوبا اصادف ... الف ثوب ملاصقا لاهابي
فتراني ما عشت انزع اثوابا ... كأني كونت من اثواب
صرت اخشى إن انض كل ثيابي ... لم اصادف روحا وراء الثياب
فكأني القشور كون منها ... بصل ما به سوى الجلباب

وقوله :

بعوضة انا في الدنيا وحين ارى ... بعض الورى فكأني بينهم فيل

ومن اقواله الظريفة قوله :

اواه من جنس بني آدم ... واحدهم شر من الاخر
كلا، فما الناس بنو آدم ... اذ لم يلد آدم لكن خري

ومن هذا القبيل قوله في كثرة النسل عند الفقراء :

كم غني لم يعطه الله نسلا ... وفقير يبلى بنسل كثير
فلو ان الامور كانت بكفي ... كنت اخصي في الكون كل فقير

وليس هذا مقاما لعرض شعر الصافي وانما هذا ما جرى على بالي كشواهد لافكاره في حين ان دواوينه تحوي الشيء الكثير من الشعر المبتكر الرائق الذي يصلح للامثال ولا يعد هذا الذي اوردته انا شيئا الى جنبه .

- ١٣ -

واحبني الصافي كثيرا وقال لي غير مرة انه ينتظر الصيف بفارغ الصبر لينسى عند حضوري كل ما كان يؤلمه من الخواطر والافكار والاخيلة ، وكنت في السنين السابقة انزل . . (ضهور الشوير) حين كان الصافي لم يزل مقيما في الشام ولكن لا

امكث الا قليلا حتى اعود الى الشام لا لشيء الا لكي انعم بلقاه وقد استصحبه معي الى ضهور الشوير فقد كنت استأجر بيتا في كل سنة في الضهور ، وفي احدى السنين كان بيتي لا يحتوي الا على غرفتين فجئت به معي الى (ضهور الشوير) ولم اكن قد اتخذت تدبير منامة في غرفة مستقلة ان جاء معي وبحثت فلم اعثر على غرفة في فنادق الضهور له وانا لم اعتد النوم مع احد لكي اهيىء له سريراً آخر في غرفتي ولم اذكر متى فصلني ابواي عنهما وخصاني بغرفة مستقلة وحتى بعد الزواج كان هذا ديدني وحتى حين امرض وحين يجب ان يسهر احد على مراقبتي كنت امانع ان ينام احد معي ولا انكر انني طالما ضمتني غرفة واحدة او ايوان واحد وجماعة من الرفاق في ايام الشباب حين كنا نخرج الى الكوفة او مسجد السهلة، والسبب هو اننا كنا ننام مجازا اذ كنا نقضي الليل بتقفية الشعر او بالاحازير او بمهاجاة بعضنا بعضا بما يدور على السنتنا من الشعر المرتجل فتشرق الشمس ونحن في يقظة مستمرة من اول الليل الى آخره .

وذكرت ان لي صديقا في الشوير وقد تعرف بالصافي ذات يوم حين جاء الى الشام معي بل لقد (تصورنا) في جلسة معا وذلك هو اسكندر حريق فأخذت الصافي معي الى بيته ووجدنا منه ترحيبا حارا وسرعان ما افرغ لنا احدى غرف البيت وسهرنا عنده تلك الليلة ولم اعد الى الفندق الا بعد ساعتين واكثر من منتصف الليل ونام الصافي عنده. وفي الليلة الثانية افرغت للصافي احدى الغرفتين وحصرت زوجتي وولدي في غرفة واحدة ونمت انا في ممرّ ضيق ظللت انام فيه على الارض طوال الايام التي كان الصافي عندي وحين كنت اغادر الشام عائدا الى العراق كنت احس بالكآبة مرتسمة على وجه الصافي وكانت محبته لي لا تثمن ولم تنقطع مكاتيبي ولا مكاتيبه عني ، وكان يودعني وانا استقل السيارة فالقي عليه آخر نظرة متأسفاً لهذا الفراق .

وعندما بلغه خبر الاعتداء علي ومحاولة اغتيالي من لدن السواد على اثر مقال شديد اللهجة كان قد تجاوز حدود المقالات السابقة في شجب ضرب الرؤوس بالسيوف وضرب ـ الظهور بالسلاسل ولطم الصدور ولدمها في ايام عاشوراء باسم الحزن على الامام الحسين (ع) حتى سقطت سابحا بدمي امام باب بيتي في النجف وفاقداً وعيي ، الامر الذي ألزمني الفراش اياما وانقطعت عن الكتابة في جريدة (الهاتف) وقد كتب لي الصافي يقول :

« السلام عليك ، والشوق اليك وبعد :

فقد مرت مدة مديدة وانا لم اظفر منك بكتاب كما اني لم اقرأ (الخليلي) في (الهاتف) كما كانت عادتي وقد بلغني منذ مدة ان احد المتهوسين الانذال اعداء كل اصلاح وعبقرية قد اعتدى عليك واصابتك منه ضربة نالت مركز الشعور والعبقرية وانت تعلم مقدار ألمي لمجرد السماع لهذا الحادث وكنت اريد ان اعلم السبب في هذه الجناية ولكني لم اهتد اليه حتى الان ولقد حاولت مرارا ان اكتب اليك مستفسرا عن صحتك ولكني خفت من ان ازيد جرحك ايلاما فانتظرت حتى يلتئم بمرور الزمن والآن ارجوك ان تطمئني عن صحتك العزيزة علي وعلى كل من يعرفك من عشاق ادبك وابداعك . . »

وحين عدت الى العمل في الجريدة بعد الشفاء ، عدت باشد حرارة في مهاجمة تلك التقاليد وفي هذه الاثناء صدر لي الجزء الثاني من (يوميات) فارسلت للصافي نسخة منه ، وتلقيت منه رسالة يقول فيها :

« اخي لقد وصلني منذ مدة وانا ببيروت متتجع للصحة كتابك الجديد اعني الجزء الثاني من (يوميات) فسررت اولا لاعتقادي بشفائك حتى استطعت اخراج الكتاب المزين بامضائك وثانيا فقد قرأته بكل لذة واتفق عند وصوله ان كنت مع الاستاذ (عمر ابو ريشة) فأطلعته على الكتاب فقرأ منه اكثر من اربعة فصول واغرق منها في الضحك واعجب غاية الاعجاب وبقي كلما رآني يذكرني ببعض فقرات الكتاب ، والبارحة ذكرني (بجبلقة جبلاق) . . » .

وجاءت الحرب فحالت بيني وبين الاصطياف بسوريا ولبنان بل وقد تأثر بها حتى البريد وقد علمت ان الصافي قد سكن صيدا وكان يلازم كل يوم قلعتها ويفترش هناك عباءته ويتمدد ويسرح في خياله وله في هذه القلعة شعر رائق يصور كل ما يجول في ذهنه وقد علم بمحله هذا عشاق شعره فكانوا يزورونه في القلعة ويتخذون من صخورها وبقايا احجارها مقاعد لهم فيلتفون حوله ويقضون شطرا من الوقت بالتحدث اليه والتلذذ بأشعاره .

وجئت الى بيروت وقد طال غيابي بسبب الحرب وبسبب ما حدث لي من عوائق

ولم ادر كيف سألتقي الصافي واين سيتسنى لي العثور عليه فقد تغيرت الاحوال وتبدلت معالم البلد بعض الشيء وانا لا اعرف اين يسكن الصافي ؟ واين مقره ؟ وكل ما كنت اعلم هو انه قد انتقل من صيدا الى بيروت واتخذها مسكنا فصممت على ان اعمل في التفتيش عنه ما عمل ابن اخيه الدكتور علي الصافي على ما قيل لي ، اذ التجأ الى جريدة (الحياة) حين مر ببيروت في طريقه الى المانيا وبالعكس واعلن عن نفسه يقول بانه الدكتور علي الصافي وان عليه ان يغادر بيروت قريبا وانه نزيل الفندق الفلاني وليس لديه من الوقت الكافي الذي يساعده على البحث عن عمه احمد الصافي النجفي وهو بحاجة جد شديدة لرؤيته فعلى عمه اذا ـ قرأ الجريدة والرجاء من معارفه الذين يعرفون مقره ان يخبروه بمنزله في الفندق المذكور،وما كادت جريدة الحياة تنتشر صباحا حتى وصل الصافي الى الفندق وانتهت المشكلة .

اقول لقد صممت على ان اعمل ما عمل الدكتور علي الصافي واعلن في الجريدة مثل ذلك الاعلان ولكني ذكرت، لقد ذكرت اني لست مضطرا لمغادرة بيروت بتلك العجالة فلم لا ابحث عنه بنفسي وبداية من معرفتي لطبيعة الصافي ومزاجه وفكرت قليلا ثم قلت في نفسي : صحيح ان (كل نجد للعامرية دار) ولكن الاهتداء الى محل الصافي ومواطن جلوسه في المقاهي يجب ان يجيء عن طريق مزاجه ويومذاك كان الصافي يتهرب من الضوضاء والضجيج حتى لقد مر عليه وقت كان يلقي بالراديو جانبا منزعجا من صوته وهو ينتظر وقت اذاعة الاخبار ، ولم يعرف الصديق ناجي جواد ذلك منه والا لما اشترى له من بيروت (راديوا) واهداه له فأخذه الصافي شاكرا وهو يبتسم ولم يعرف احد سر ابتسامته غيري ، ولكن الصافي قد تغيّر بعد سنين وصار لا يعبأ بالضوضاء والصخب والصراخ .

اقول وان الذي يعرف مزاج الصافي يستطيع بسهولة ان يعرف محلات ارتياده ويستطيع ان يحصرها فهو اذا نزل فندقا او نزلا فالغالب يومذاك ان يكون هذا النزل هادئا كل الهدوء وكما يصفه هو في قوله اذ يقول :

سكنت نزلا ما به نازل بي هو لا بأهله آهل
مودع انا ومستقبل والضيف والقادم والراحل

حـارسـه والاهـل فيـه انـا والـزائـر الخـارج والـداخـل
في النـزل تلقـاني وتـلقـاه بي حتى كـأني الـنـزل والـنـازل

اما من حيث روحه المحلقة في سماء الشعر والطائفة في العوالم اللانهائية فيستطيع الباحث ان يلقاه حيث يقول :

يـروم زيـارتي عشـاق شعـري فلا يجدون لي في الارض دارا
تـراني كـالنسيم اطـوف حـرا فلست ولا النسيم نـرى قـرارا
فـزوروني بـأنفـاس الخـزامي وزوروني بـآهـات الـعـذارى
وقـد آوي لقلب اخي غـرام واصعـد منـه آنـات حيـارى

وكل لذة الصافي كانت منحصرة في الانفراد بنفسه ويستوحي من انفراده هذا ووحدته آيات شعره وبدائع خياله لذلك كثيرا ما اتخذ سكناه في الاحياء النائية الهادئة البعيدة عن الجلبة والضوضاء وفي ذلك كان يقول :

قـال قـوم: الجـار قبـل الـدار ولـذا قـد ألفت سكنى القفـار
طفت في الارض ما ظفرت بجار فمن اليـأس مـا اقمت بـدار
مـا ديـارى الا محـطات سير ومكـوثي بهـا مكـوث القـطار

وقد صدق اذ صور نفسه بالقطار الذي لا يمكث عند المحطة الا قليلا ثم يغادرها الى محطة اخرى وكثيرة هي الشواهد التي تعرب عن فراره من الناس وتعبر عن حبه الانفراد بنفسه فها هو ذا يقول عن مصيف كان قد وقع من نفسه موقع الاعجاب :

جمـيـل بعـيني هـذا المـصـيف واجـمـل مـا فيـه فقـد البشـر
فـما فيـه من نـاطـق مـقـلق يشـوش لي ما ارى من صور

وعن هذا الانفراد بالنفس والوحدة التي تلذه وتنعشه ويرى فيها موطن وحيه وصفاء ذهنه وحضور عقله يقول :

اراني مجنونا متى كنت في الورى وان انفرد يوما رجعت الى العقل

وتتجاوز الشواهد التي يستخلص منها القارىء ميول الصافي الى المواطن الهادئة لذلك ما اسرع ما كان يفرّ حين لا يجد المسكن والمقام الملائم لمزاجه وفي ذلك يقول :

لم اقن دارا خوف المقام بها ... مقيدا كالجدار والصنم
اسكن دارا حينا وابرحها ... منتقلا دائما كمنهزم

وقوله :

اذا انفرُدت اتاني الوحي مندفقا ... كأن كل عراقيلي هم البشر

واذا استعرضت دواوين الصافي فلا يصعب عليك ان تحصر اماكن الصافي من المقاهي التي كان يرتادها في الشام والتي يرتادها ببيروت، حتى لقد يكون بامكانك ان تسبق الصافي وانت على غير دراية سابقة بمحله وتنتظره هناك قبل مجيئه فان اخفقت مرة او مرتين فلن تخفق في المرة الثالثة والرابعة . وقد احسن هو في وصف المجالس التي كان يأوي اليها سابقاً اذ يقول :

يقولون بيتي سوف يغدو محجة ... اذا ما طوى شخصي القضاء المحتم
يحج له عشاق شعري مواكبا ... يقبله هذا وذاك يسلم
وذاك بكفيه يمس تبركا ... جدارا له والبعض ساه يعظم
وذاك يشم الارض منه تيمنا ... وهذا على ايامه يترحم
فقلت وهل لي اي بيت يضمني ... وعمري طواف مزمن وتبرم؟
فبيتي مقاه جمة وفنادق ... اقيم بها حينا فأشقى واهزم
وبيتي زوايا لا تعد سكنتها ... وروض وصحراء بها كنت أنعم
وكرسي ومقهى كنت اجلس فوقه ... وشاطىء بحر فيه اهنا واحلم
وبيتي خرابات بشعري عمرتها ... اجيئ لها ابغي الهدوء وانظم
أتعب عشاقي طوافا ورحلة ... فينجد ذا بحثا وذلك يتهم
أرى حظ عشاقي كحظي تشردا ... فانهم مني كما انا منهمو

كل هذا واكثر كنت اعرفه عن الصافي واعرف اين ترفرف روحه ولكني اريد ان التقيه بهيكله وصورته وروحه المرحة الجذابة فرحت استعرض من مقاهي بيروت

التي تتوفر فيها راحة النفس لمزاج كمزاج الصافي وحصرتها في عدد لا يتجاوز اصابع اليد وقلت اذا لم . . اجده هنا او هنا وجدته هناك او هناك بدون ريب وشك .

وقصدت المقهى الاول فلم اعرف عنه شيئا وجئت الى المقهى الثاني وسألت :

- أتعرف اين اجد الاستاذ الصافي ؟

فرد علي باللهجة اللبنانية قائلا :

- ازا بدّك وديع الصافي فما بعرف فين . . اما ازا بدّك الصافي النجفي فهلاّ مرا من هون . . (أي مر من هنا) .

وأسرعت الخطى حيث الاشارة ولم اكد انعطف خلف المقهى بعشرات الامتار حتى وجدته ، ولقد وجدته بهداية من نفسي، وبعلم من طبيعته ومزاجه دون الاستعانة بأحد الادباء ممن اعرف، ودون اعلان في الجريدة ولكيفية التقائي اياه بعد تلك الغيبة الطويلة قصة منشورة في الصحف اما الذين لم ينشر منها على ما اظن فهو ما سادنا نحن الاثنين من الدهشة وما ركبنا من العجب بالطريقة التي يتم لي فيها الاهتداء اليه .

وسألني الصافي: أهي من باب المصادفة ان التقينا هنا ام ان هذا الالتقاء كان مقصودا ؟

قلت : لا بل انه لقاء مقصود له شبه بقصة الحشاش والحمار الضايع فلقد ضاع لرجل حمار ظل يطلبه اياما لم يترك فيها وسيلة من وسائل البحث عنه دون ان يلتجىء اليها حتى المناداة عنه في الشوارع حتى يئس وعلم ان الحمار اما ان يكون قد سرقه سارق او انه قد خرج من البلد، ورأى صديق حيرته ويأسه فأشار عليه بأن يقصد حشاشا من الحشاشين فان لهم افكارا عجيبة مبتكرة يوحى بها الحشيش لهم وبين مصدق ومكذّب اهتدى الصديقان الى حشاش معروف وقدّما له بعض السكاير من الحشيش واخبراه بمهمتهما وبدأ هذا الحشاش يدخن حتى اخذت النشوة منه مأخذها قام من محله وقال لصاحب الحمار اتبعني لادلك على حمارك .

وسار الحشاش ومن خلفه الصديقان وهو يدخل شارعا ويخرج من شارع حتى اتى الى خربة لا تقع عليها العين فاذا بالحمار واقف هناك !!

وسئل الحشاش ـ وكيف عرفت بمحل هذا الحمار ؟

قال ـ لقد فكرت : لقد فكرت لو اني انا كنت هذا الحمار وحاولت ان اهرب من صاحبي فأي مكان هو اصلح للهروب والاختفاء ؟ فلم اجد مكانا احسن من هذه الخربة . . !

وقلت للصافي وفكرت انا ، لقد فكرت : لو كنت انا الصافي ففي اي مكان يمكن ان يلقاني به الباحثون عني واهتديت اليك ؟ !

ـ ١٤ ـ

وفي السنين الاخيرة كان قد استأجر له (شقة) صغيرة ببيروت دعاني غير مرة اليها فاعتذرت اما الغرفة التي كان قد استأجرها سنويا بفندق المعرض الواقع مقابل شارع سوريا فقد بقيت في ايجاره ، وكنت امرّ عليه بها فأما أن اجده فيها واما أجده بمقهى فلسطين، وعند الظهر لا بد وان يكون قد اتخذ مقره في مقهى البحرين او مقهى الحاج داود على البحر ثم يروح ماشيا الى فندق المعرض فينام قليلا ويشرب الشاي الذي كان يعده بنفسه ثم يغدو الى (الشقة) التي يقضي فيها ليله وكانت الى جواره سيدة مسيحية تسكن وزوجها شقة صغيرة فكانت تعنى بالصافي كثيرا وكان هو كثير الامتنان منها ولما لم تكن تعمل ذلك لطمع مادي على رغم عوزها وتأنف ان تتقاضى شيئا فكان الصافي يستغل بعض المناسبات من الاعياد فيشتري لها ولزوجها من الحاجات والهدايا ما يفيدهما ومع ذلك فقد كانت تتعفف في كثير من الاحيان من قبول الهدايا على ما قال لي الصافي .

ووقعت حوادث بيروت في سنة ١٩٧٥ وتأزمت الاحوال يوما بعد يوم حتى لزم الناس بيوتهم فكانت الاضواء التي يسلطها القناصون على البيوت مما تزعج الصافي لانها كانت لا تنقطع هي والرصاص الذي كان يدخل هذه الشقة فكان الصافي لا يستطيع النوم في اغلب الليالي على ما حدثني ، اذ قال: وكنت اخرج في النهار حين

يخف تبادل الرصاص الى مقربة من الشقة التي اقيم فيها فاشتري من صاحب فرن هناك اكثر من حاجتي اليومية من الخبز حذرا من ان لا يكون بوسعي الخروج في اليوم الاخر وقد كان هذا الحذر في محله اذ كثيرا ما كان ينقطع الطريق ويصبح الخروج متعذرا فالجأ الى هذه الارغفة وقد يبست فأبلها بالماء واتخذ من الشاي اداما .

وذات يوم ـ يقول الصافي ـ وانا خارج من هذه الشقة لشراء الخبز والبحث عن اغذية اخرى ـ إذ ـ مرت سيارة عسكرية لبنانية جوالة اعتادت ان تجوب الشوارع للحراسة وكان الصافي في سنينه الاخيرة اذا مشى فهو يمشي مشية من يدب على الارض كمن يحمل من الاثقال ما لا طاقة له على حمله ويلتفت الضابط الذي تقله السيارة وتقل جنوده الى الصافي وهو يدب فيعرفه ويقف له ويسأله عن محل اقامته واسباب خروجه من البيت ؟ ويخبره الصافي ـ وهو لا يعرف هوية هذا الضابط وكيف تم له ان يعرفه ـ فيخبره بخبره ويدله على شقته القريبة منه ويشكو له مضايقة هؤلاء القناصة وتسليط اضوائهم ورصاصهم ليلا على هذه البناية التي يقيم فيها فيطمئنه الضابط بأنه سيوعز الى هذه الجهة التي يأتي منها الرصاص والاضواء بالكف عنه كما سينيط بأحد هؤلاء الجنود حين تمر سيارة الحرس هذه من هذا الطريق بأن يمر بالصافي ويتسلم منه ثمن الحاجات اليومية التي يريدها وهكذا كان فقد كان يمر هذا الجندي الحارس بالصافي في كل يوم ويأتيه بما يريد دون ـ حاجة لخروج الصافي من مكمنه ، كما انصرف القناصون عن توجيه رصاصهم واضوائهم الى هذه الشقق بعد ذلك .

وكان اكثر ما يحرص عليه الصافي هو هذه المجموعة المخطوطة من شعره الذي كانت (دار العلم للملايين) تطمع في نشرها فكان يضمها الى صدره ويستعرض اشعارها في قلبه ذلك لان بصره قد رك وضعف حتى لم يبق له منه الا ظلال الاشياء التي لم تتميز .

ولا ادري كم ظلت راية هذه النعمة النسبية ترفرف على رأس الصافي فقد بدأ ينام منذ تلك الليلة التي عرفه فيها الضابط وقد غدا يحصل على بعض ما يحتاج من الغذاء النافع ببركة ذلك الجندي الذي كان يمر به كل يوم ويشتري له حاجاته اليومية ، وجاء يوم نيطت حراسة هذه المنطقة بجنود آخرين وضابط اخر استبدل عن

الضابط السابق فانقطع المرور بالصافي من الجند وعاد الرصاص يزعج ويخيف الصافي، اذ طالما مرت . . الرصاصة وهي على قيد شبر منه ، اما اضواء الكشف فلم تنقطع عن اختراق الحجب وعاد الصافي الى التفكير في امر معيشته كلما فرغت غرفته من الخبز وكان يرى ان جاره المسيحي وزوجته في ازمة اشد من ازمته فهما شيخان عاجزان لا يدري الصافي كيف يدبران امرهما .

وخرج الصافي ـ كما كان يخرج اولا ـ في طلب الخبز وفي هذه المرة كان قناص من بعيد يصوب اليه رصاص بندقيته فتصيبه رصاصتان وينكفىء الصافي على وجهه والدم يشخب من جسده ولقد كان الصافي من النحافة والضعف حتى لم يبق منه في السنوات الاخيرة الا هيكل عظمي يغطيه جلد ارق من جلود العصافير فكيف به الان وقد بدأت تنفد اخر قطرة مما يسمى بالدم من جسده ؟ وتمرّ من هناك سيارة اسعاف فترى هذا الرجل الجريح الغائب عن الوحي .والذي لا تعرف عن هويته شيئا فتحمله الى (مستشفى المقاصد) ويراه مدير المستشفى ، ويدهش حين يعرف انه الصافي الشاعر الكبير ويحوطه منذ تلك الساعة بعناية فائقة وتجرى له العمليات المستعجلة لاستخراج الرصاصتين ويتم اخبار السفارة العراقية بذلك وتنقل الاذاعات العربية والصحف خبر اصابة الصافي، وتهتم الحكومة العراقية بالامر وتطلب من سفارتها نقل الصافي الى العراق لمعالجته ببغداد، ويمانع الطبيب في نقله حتى يتماثل الى الشفاء ولا يكون لنقله من اثر صحي عليه اذا ما نقل.

وحين صار بامكان الصافي ان يستعيد شعوره فان اول ما سأل عنه هو مجموعة اشعاره وكم سرّه حين وجد ان هذه الجارة قد حملت هذه المجموعة وسلمتها للسفارة ـ العراقية ببيروت .

واستقبل عدد من الشعراء الصافي بالشعر وهذه احدى القرائد التي استقبل الدكتور احمد الوائلي بها احمد الصافي حين عودته الى العراق .

يا عود جرحك لحن بالعبير ندى ... فحل جرحك يشدو في ذرى بلدي
فرب جرح على انغامه سكرت ... دنيا وما زال صداحا الى الابد
يا بن الفرات لقد تاق الفرات الى ... لحن عن الشط والناعور مبتعد

غنى للبنان فاخضرت شواهقه ... ولفّع السفح في زاه من البرد
وتينة الجبل استبكته وحدتها ... وربّ منفرد يبكي لمنفرد
وعلّمته بارض الشام صومعة ... يأوي اليها معاني الصبر والجلد
ونخلة الشام كم آذته غربتها ... وانها ما نمت يوما ولم تزد
قلب يوزع للدنيا خواجله ... شدوا وسجوا ولم يبخل على احد
والشعر من طبعه النعمى وسابغة ... من العطاء بلا منّ ولا نكد

* * * *

يا ايها العائد المجروح نزّ له ... بالقلب جرح وجرح نز بالجسد
فالقلب ادماه سحر الحور سارحة ... بساحة البرج حيث النفث بالعقد
والجسم ادماه رشاش لباغية ... رشّ اللهيب على روض ومبترد
اذ وجه لبنان للمجدور شوهه ... رشق القذائف من قرب ومن بعد
يا بن الفرات وحدا للرصاص فقد ... اعاد مغتربا لولاه لم يعد

* * *

عد للحصاد وللناعور يغزل في ... الشطين نجوى حبيب لاهب الكبد
للنخل أعذاقه الصفراء يسكرها ... سجع الفواخت في جوق من الغرد
وللمواويل اذ تنساب من قصب ... الراعي فتطرب حتى سارح النقد
للسامرين ليالي البدر يجمعهم ... ناي يقصّ حكايات بلا عدد
وللدوالي بارباض السدير بها ... طيف من ابن عدي او شذى دعد
ودير هند وقد مرت كواعبه ... تمشي الى الكرح في دل وفي اود[1]
حيث الشعانين[2] تستهدي مواكبه ... طريقها بنهود للسما نهد

---

(١) الكرح : بيت النصارى وكانت بيوتهم بظهر النجف جنب ديرهم .
(٢) الشعانين : عيد للمسيحية .

وحيث يمزج ثرواني خمرته بالخمر اذ يبتغي ماءا ولم يجد(٣)

* * *

لكوفة الجند أطياف الكميت بها ونـدوة لشقة !؟ في المتن والسند
لساحر المتنبي العبقري لدى ارباض كندة بالنقاد محتشد
لرملة النجف السمراء ضاحكة ابعادها بالأصيل الحلو والرأد
في حيث تخصب افكار معمقة لو جاءت العصر في اثوابه الجدد
وحيث يرقد عملاق مشاعله ما زال بالكون منها الف متقد
عد فالمعار الى اهليه مرتجع وقل لجرحك غردّ في ذرى بلدي

* * *

النجف الاشرف
الدكتور الشيخ أحمد الوائلي

ونقل الصافي من بيروت الى العراق في يوم ٩ شباط من سنة ١٩٧٦ ليقضي دور النقاهة في (مدينة الطب) وليعنىٰ الاطباء بما يتطلبه هذا الدور من الاستشفاء واقبل على زيارته الاصدقاء والمحبون والمعجبون بشعره ويظهر انه قد ضاق ذرعا بزواره فقد زرته ظهرا لاول مرة في غرفته بالمستشفى وكان نائما فحرصت على راحته حتى لقد ضغطت على انفاسي لكيلا يسمع لي صوت ، وجلست قليلا افكر فيما ينبغي ان افعل ؟ هل اعود من حيث اتيت ؟ ـ واترك زيارتي الى الغد ؟ ام اظل جالسا لأرى كيف يتم الامر ؟

وهنا تململ الصافي في سريره قليلا وتحرك منقلبا من جنبه اليمين الى الشمال

---

(٣) الثرواني : محمد بن عبد الرحمن الشاعر الكوفي او ابو نواس الكوفة وبالبيت اشارة لمقطوعته التي يقول فيها :

على الريحان والراح وابسام الاكيراح وابريق كطير الماء في لجة ضحضاح
سلام يسكر الصاحي وما ثم فق صاح اذا عزّ بنا الماء مزجنا الراح بالراح

فوجدتها فرصة، فقلت له : يبدو انك قد افقت من النوم - وقبل ان اتم كلامي قال - وقد بدا عليه شيء من الضجر من هذه الزيارة المزعجة - قال - لا، انني (موجوع)- وهذه عبارته - واريد ان انام ، وكرر كلمة (موجوع) لكي اتركه لشأنه واخرج قلت متعك الله بالصحة، اما انا فاني جعفر الخليلي وسأزورك في وقت اخر،وما كاد يسمع باسمي حتى هب من فراشه، وانا اقسم ان عينيه قد دمعتا واقبلت عليه واخذته بالاحضان وراح يقص علي ما جرى عليه، وطال جلوسي عنده وكلما حاولت القيام استبقاني وانا اخاف عليه من استمراره في الحديث وكثرة الكلام واستعراض اخبار الشدة عليه وعلى الناس ببيروت وكيفية محاولة السفير العراقي في جلبه .

وصرت ازوره بعد ذلك مرات في المستشفى وقد رافقني ذات يوم الصديق سالم الالوسي والحاج طالب الحاج فليح الذي حضرته ابيات مرتجلة فطلب الصافي مني ان اسجلها في دفتر كان هناك بمثابة التذكار . . فكتبت انا كلمة،وكتب الالوسي كلمة مثلها،وسجل الحاج طالب ابياته ثم نقله بعد ذلك الدكتور علي الصافي الى بيته ريثما يهيء له دارا مستقلة وخادما وطباخة وهكذا كان فقد نقل الى دار عامرة وبدأ يزوره الناس فيها وزرته انا فيها كثيرا . ولقي من الحكومة ومن السيد النائب قائد القوات المسلحة السيد صدام عناية مفرطة .

وفي ١٤ حزيران سافرت الى لبنان وتركته في حالة غير مرضية نقل على اثرها الى المستشفى اذ اصيب بجلطة دماغية فقد على اثرها وعيه وفي يوم ٢٧ حزيران ١٩٧٧ صعدت روحه الشفافة الى باريها في المستشفى وشيّع في اليوم التالي تشييعا فخما مشى فيه جميع اهل الفضل والادب ودفن في مدينة النجف،واذا لم يتسع لي ان اشارك في تشييعه بحضوري فقد شيعته عيناي بالدموع الغزيرة التي سكبتها حزنا عليه ليالي طويلة بلبنان فقد كانت الغرفة التي كنت اعدها له في هذا الفندق يوم يزورني مجاورة لغرفتي فما جئت الى غرفتي ووقعت نظرتي على غرفته الا وتمثل لي شخصه امام عيني ، وشيعه قلبي بتلك الذكريات العزيزة التي كانت الجزء الاكبر من نعيم حياتي ونعيم حياته هو كما كان يقول .

وقد مرت الان سنين وستمر سنين اخرى اذا كتب لي ان اعيش سنيناً اخرى

وغاب عن ذهني كل شيء، في الغالب، ولكن الصافي سيظل خالدا على صفحة الذهن والذي لن يغيب ابدا ولن تغيب ذكرياته العزيزة .

ولقد صدق الخطيب المعروف السيد جواد شبر حين قال في رثائه قصيدة من خرائد الشعر وروائعه اذ قال :

ما جئت ارثيك أو أذري الدموع اسى ... إن الرثاء لشخص مات واندرسا
قالوا لقد مات قلتُ اليوم مولده ... ونجمه قد تجلّى يطرد الغلسا
واليوم يبدأ تاريخٌ له عبقٌ ... وطيب تأريخه قد أنعش الجُلَسا
ما الحيُّ مقياسُهُ مرُّ السنين ولو ... طال البقاءُ، ولا ترداده النفسا
إن الحياة بأفكار يخلّدها ... عبرَ العصور وغرساً صالحاً غرسا
وآخذاً بيد العافي ومنقذه ... سواء أحسن هذا ام اليه أسا

* * *

ما كان أحمد في عصر يعيش به ... إلا كشعلة نور تحمل القبسا
يعيش في الناس لكن روحه انفردت ... عنهم كمن عاش بين الخلق محتبسا
سما الى عالم أسمى بفكرته ... لذاك مهما خلا في نفسه أنسا
فلا ترى معه في بيت عزلته ... ألا اليراعة ـ أمّ الشعر ـ والطرسا

* * *

إيهِ ابا الخالدات النيراتِ سناً ... والسائرات ،أقام الدهر أم جلسا
هذي روائعك الغرّا يُرددها ... فمُ الزمان، ومن أنوارها اقتبسا
أمواجها اندفعت تتلو أشعتُها ... تجلي العقولَ ومنها تغمر اليبسا
وذي الهواجس ما أحلى هواجسها ... تداعب الروح ان دقت لها جرسا
رفت تناغيك همساً في تدللها ... والحبُّ يعذُبُ ان ناغى وإن همسا
أشعةٌ في معانيها ملونةٌ ... إشعاعها مشرف عن روحك انعكسا
ان كنتَ حلّقتَ أو أبدعتَ لا عجبٌ ... قرآنُ أحمد قدماً حيّر القسسا
وأذعنت لغةُ الفصحى لروعته ... وعاد منطيقها مستسلما خرسا

الناظم الدرَ نظماً لا نظير له ... بالشعر ينبوعه الصافي قد انبجسا
والمرسل الشعر سهلا غير ممتنع ... سلساله العذب يجري سائغا سلسا

* * *

زهدتَ في هذه الدنيا وزخرفها ... إذ انت أرفع ممن يرتضي الدنسا
وكنتَ تهزأ ممن راح يعشقها ... ومن بأوطارها قد ظلَّ منغمسا
نفسٌ ترى فوق هام النجم رفعتها ... وبزَّةً - اذ تراها - بزَّة البؤسا
تريهم ان دنياكم وبهرجها ... كشملتي هذه، من سامَها بخسا
لاويتَ دهرك حتى رُضت جامحه ... كمن يروِّضُ من فرسانها فرسا
بعزمة شهد التأريخ واقعها ... ما كنتَ هيابةً يوماً ولا نكسا
عرفتَ دنياك مذ وازنتَ قيمتها ... وأنها عرفتك النيقدَ المرسا
وكم دعتك لوصلٍ وهي ضاحكة ... لكن رأتك على ما تبتغي عبسا
رحماك ليست نفوس الناس واحدة ... إن خفَّ ذاك فهذا في الوجود رسا

* * *

هذي الحياة وكم غذيتها حكماً ... غرّا، وأرسيتَ من أركانها اسسا
فكنتَ تشبعها بحثاً وتجربةً ... وكنتَ تنشرها درساً لمن درسا
وتوضح القول مجلواً ومزدهراً ... فلم يُعْد بعدُ فيها الامرُ ملتبسا
دم للخلود فذي الايام طوعك ... والدهر استلان وان قدما عليك قسا

* * *

جواد شبر

مكتبة الجواد للعامة
مؤسسة السيد هبة الدين الحسيني
الدبرسالي
تأسست سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م
صحن الكاظمية - العراق

المحتوى

صفحة

الحاج عبد الحسين الازري ٧
جورج كعدي ٣٥
فؤاد عباس ٥٩
الياس فرحات ١٢٣
الدكتور سليمان داود ١٨٧
احمد الصافي النجفي ٢٠٣